

تفسير

النَّحْجُ بْنُ وَالتَّنُونِ

تأليف

سَمَاحَةُ الْأَسْتَاذِ الْإِمَامِ الشَّيْخِ
مُحَمَّدِ الطَّاهِرِ الرَّائِسِ عَاشُورِ

المجلد الثاني عشر

الملك - الناس

دار ابن حزم

دار ابن حزم
وَتَنُونِ



تفسير
الحجرات والتوبة

12

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير

النَّجْمُ بَرٌّ وَالتَّنْوِينُ بَرٌّ

تأليف

سَمَاحَةُ الْأَسْتَاذِ الْإِمَامِ الشَّيْخِ
مُحَمَّدِ الطَّاهِرِ رَبِّهِ عَاشِرٍ

المجلد الثاني عشر

الملك - الناس

دار ابن حزم



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1443 هـ - 2021 م



ISBN: 978-9959-858-85-6



ISBN: 978-9938-35-034-0



دار ابن حزم
تونس

10 مكرر نهج هولاندة

1000 تونس

الهاتف: +216 - 71256435

+216 - 71253456

+216 - 71253839

الفاكس: +216 - 71352926

alouini.aws@planet.tn

دار ابن حزم

بيروت - لبنان - ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 - 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

الجزء التاسع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الملك

سَمَّاهَا النَّبِيُّ ﷺ: «سورة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾» فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ وَهِيَ سُورَةُ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾» قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

فَهَذَا تَسْمِيَةٌ لِلسُّورَةِ بِأَوَّلِ جُمْلَةٍ وَقَعَتْ فِيهَا، فَتَكُونُ تَسْمِيَةً بِجُمْلَةٍ كَمَا سُمِّيَ ثَابِتُ بْنُ جَابِرٍ: تَأْبَطُ شَرًّا. وَلَفْظُ (سورة) مُضَافٌ إِلَى تِلْكَ الْجُمْلَةِ الْمُحْكِيَةِ.

وَسُمِّيَتْ أَيْضاً «تَبَارَكَ الْمُلْكُ» بِمَجْمُوعِ الْكَلِمَتَيْنِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَبَسْمَعٍ مِنْهُ فِيمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ: ضَرَبْتُ خُبَائِي عَلَى قَبْرِ وَأَنَا لَا أَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ (أَي: دَفِينٌ فِيهِ) يَقْرَأُ سُورَةَ «تَبَارَكَ الْمُلْكُ» حَتَّى خَتَمَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ الْمَانِعَةُ هِيَ الْمُنْجِيَةُ تَنْجِيهِهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، فَيَكُونُ اسْمُ السُّورَةِ مَجْمُوعٌ هَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ عَلَى طَرِيقَةِ عَدِّ الْكَلِمَاتِ فِي اللَّفْظِ دُونَ إِضَافَةٍ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى مِثْلَ تَسْمِيَةِ (لَامُ أَلْفٍ).

وَنَظِيرُهُ أَسْمَاءُ السُّورِ بِالْأَحْرَفِ الْمُقْطَعَةِ الَّتِي فِي أَوَّلِهَا عَلَى بَعْضِ الْأَقْوَالِ فِي الْمَرَادِ مِنْهَا، وَعَلَيْهِ فَيُحْكَى لَفْظُ: ﴿تَبَارَكَ﴾ بِصِيغَةِ الْمَاضِي وَيُحْكَى لَفْظُ: ﴿الْمُلْكُ﴾ مَرْفُوعًا كَمَا هُوَ فِي الْآيَةِ، فَيَكُونُ لَفْظُ سُورَةٍ مُضَافًا مِنْ إِضَافَةِ الْمُسَمَّى إِلَى الْاسْمِ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ تَعْرِيفَ السُّورَةِ بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ عَلَى حِكَايَةِ اللَّفْظَيْنِ الْوَاقِعَيْنِ فِي أَوَّلِهَا مَعَ اخْتِصَارٍ مَا بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ، وَذَلِكَ قَصْدًا لِلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ (تَبَارَكَ الْفَرَقَانِ)، كَمَا قَالُوا: عُيِّدَ اللَّهُ الرَّقِيَّاتِ،

بإضافة مجموع (عبيد الله) إلى (الرقيات) تمييزاً لعبيد الله بن قيس العامري⁽¹⁾ الشاعر عن غيره ممن يشبه اسمه اسمَه مثل عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، أو لمجرد اشتغاره بالتشبيب في نساء كان اسم كل واحدة منهن رقية⁽²⁾ وهن ثلاث.

ولذلك يجب أن يكون لفظ «تبارك» في هذا المركب مفتوح الآخر. ولفظ: ﴿الْمَلِكُ﴾ مضموم الكاف. وكذلك وقع ضبطه في نسخة جامع الترمذي وكلتاها حركة حكاية. والشائع في كتب السنة وكتب التفسير وفي أكثر المصاحف تسمية هذه السورة سورة المُلْك، وكذلك ترجمها الترمذي: باب ما جاء في فضل سورة المُلْك. وكذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه.

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: «كنا نسَمِّيها على عهد رسول الله ﷺ المانعة»، أي: أخذاً من وصف النبي ﷺ إياها بأنها المانعة المنجية كما في حديث الترمذي المذكور آنفاً وليس بالصریح في التسمية.

وفي الإتقان عن تاريخ ابن عساكر من حديث أنس أن رسول الله ﷺ سَمَّاها «المنجية»، ولعل ذلك من وصفه إياها بالمنجية في حديث الترمذي وليس أيضاً بالصریح في أنه اسم.

وفي الإتقان عن كتاب جمال القراء تسمى أيضاً (الواقية)، وتسمى (المناعة) بصيغة المبالغة.

وذكر الفخر: أن ابن عباس كان يسميها (المُجَادِلَة) لأنها تجادل عن قارئها عند سؤال المَلَكِين، ولم أره لغير الفخر.

فهذه ثمانية أسماء سَمَّيت بها هذه السورة.

وهي مكية، قال ابن عطية والقرطبي: باتفاق الجميع.

وفي الإتقان أخرج جوبير⁽³⁾ في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس نزلت تبارك الملك في أهل مكة إلا ثلاث آيات اهـ.

(1) هو من بني عامر بن لؤي شاعر مُجيد من شعراء العصر الأموي.

(2) هي: رقية بنت عبدالواحد بن أبي سعد من بني عامر بن لؤي، وابنة عم لها يقال لها: رقية، ورقية أخرى امرأة من بني أمية وكن في عصر واحد.

(3) كتب في نسخة مخطوطة جوبير بصيغة تصغير جابر، والذي في المطبوعة جُبَيْر بصيغة تصغير جبر. ترجمه في طبقات المفسرين في اسم جُبَيْر بن غالب يكنى أبا فراس، كان فقيهاً شاعراً خطيباً فصيحاً، له كتاب «أحكام القرآن»، وكتاب «السنن والأحكام»، و«الجامع الكبير» في الفقه، وله رسالة كتب بها إلى مالك بن أنس، ذكره ابن النديم وعده من الشراة من الخوارج.

فيحتمل أن الضحاك عنى استثناء ثلاث آيات نزلت في المدينة. وهذا الاحتمال هو الذي يقتضيه إخراج صاحب الإتيان هذا النقل في عداد السور المختلف في بعض آياتها، ويحتمل أن يريد أن ثلاث آيات منها غير مخاطب بها أهل مكة، وعلى كلا الاحتمالين فهو لم يعين هذه الآيات الثلاث وليس في آيات السورة ثلاث آيات لا تتعلق بالمشركون خاصة بل نجد الخمس الآيات الأوائل يجوز أن يكون القصد منها الفريقين من أول السورة إلى قوله: ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 5].

وقال في «الإتيان» أيضاً: فيها قول غريب (لم يعزه) أن جميع السورة مدني. وهي السادسة والسبعون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة المؤمنين وقبل سورة الحاقة.

وأيها في عدّ أهل الحجاز إحدى وثلاثون، وفي عدّ غيرهم ثلاثون.



أغراض السورة

والأغراض التي في هذه السورة جارية على سنن الأغراض في السور المكية. ابتدئت بتعريف المؤمنين معاني من العلم بعظمة الله تعالى وتفرد بالملك الحق؛ والنظر في إتيان صنعه الدال على تفرده بالإلهية، فبذلك يكون في تلك الآيات حظ لعظة المشركين.

ومن ذلك التذكير بأنه أقام نظام الموت والحياة لتظهر في الحاليين مجاري أعمال العباد في ميادين السبق إلى أحسن الأعمال ونتائج مجاريها. وأنه الذي يجازي عليها.

وانفراده بخلق العوالم العليا خلقاً بالغاً غاية الإتيان فيما تراد له.

وأتبعه بالأمر بالنظر في ذلك وبالإرشاد إلى دلائله الإجمالية، وتلك دلائل على انفراده بالإلهية، متخلصاً من ذلك إلى تحذير الناس من كيد الشياطين، والارتباك معهم في ربة عذاب جهنم، وأن في اتباع الرسول ﷺ نجاة من ذلك وفي تكذيبه الخسران، وتنبيه المعاندين للرسول ﷺ إلى علم الله بما يحوكونه للرسول ظاهراً وخفية بأن علم الله محيط بمخلوقاته.

والتذكير بمنّة خلق العالم الأرضي، ودقة نظامه، وملاءمته لحياة الناس، وفيها سعيهم ومنها رزقهم.

والموعظة بأن الله قادر على إفساد ذلك النظام فيصبح الناس في كرب وعناء ليتذكروا قيمة النعم بتصور زوالها.

وضرب لهم مثلاً في لطفه تعالى بهم بلطفه بالطير في طيرانها.

وأيسهم من التوكل على نصرة الأصنام أو على أن ترزقهم رزقاً.

وفظّع لهم حالة الضلال التي ورّطوا أنفسهم فيها.

ثم وبخ المشركين على كفرهم نعمة الله تعالى وعلى وقاحتهم في الاستخفاف بوعيده وأنه وشيك الوقوع بهم.

ووبخهم على استعجالهم موت النبي ﷺ ليستريحوا من دعوته.

وأوعدهم بأنهم سيعلمون ضلالهم حين لا ينفعهم العلم، وأنذرهم بما قد يحل بهم من قحط وغيره.

[1] ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

افتتحت السورة بما يدل على منتهى كمال الله تعالى افتتاحاً يؤذن بأن ما حوته يحوم حول تنزيه الله تعالى عن النقص الذي افتراه المشركون لما نسبوا إليه شركاء في الربوبية والتصرف معه والتعطيل لبعض مراده. ففي هذا الافتتاح براعة الاستهلال كما تقدم في طالع سورة الفرقان.

وفعل ﴿تَبَرَّكَ﴾ يدل على المبالغة في وفرة الخير، وهو في مقام الثناء يقتضي العموم بالقرينة، أي: يفيد أن كل وفرة من الكمال ثابتة لله تعالى بحيث لا يتخلف نوع منها عن أن يكون صفة له تعالى.

وصيغة تفاعل إذا أسندت إلى واحد تدل على تكلف فعل ما اشتقت منه نحو: تناول وتغابن، وترد كناية عن قوة الفعل وشدته مثل: تواصل الحبل.

وهو مشتق من البركة، وهي زيادة الخير ووفرته، وتقدمت البركة عند قوله تعالى: ﴿وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ﴾ في سورة هود [48].

وتقدم ﴿تَبَرَّكَ﴾ عند قوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ في أول الأعراف [54].

وهذا الكلام يجوز أن يكون مراداً به مجرد الإخبار عن عظمة الله تعالى وكماله، ويجوز أن يكون مع ذلك إنشاء ثناء على الله أثناءه على نفسه، وتعليماً للناس كيف يشنون

فالناس يتوهمون أمثال ذلك مُلكاً وليس كما يتوهمون.

واليد: تمثيل بأن شَبَّهت الهيئة المعقولة المركبة من التصرف المطلق في الممكنات الموجودة والمعدومة بالإمداد والتغيير والإعدام والإيجاد؛ بهيئة إمساك اليد بالشيء المملوك تشبيه معقول بمحسوس في المركبات.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِيهِ الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ في سورة آل عمران [26].

و﴿الْمُلْكَ﴾ بضم الميم: اسم لأكمل أحوال الملك بكسر الميم، والملك بالكسر جنس للملك بالضم، وفُسِّرَ الْمُلْكُ المضموم بضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم، وهو تفسير قاصر. وأرى أن يفسر بأنه تصرف في طائفة من الناس ووطنهم تصرفاً كاملاً بتدبير ورعاية، فكل مُلْك (بالضم) ملك (بالكسر) وليس كل ملك مُلْكاً.

وقد تقدم في قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ في الفاتحة [4] وعند قوله: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ في البقرة [247].

وجملة: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معطوفة على جملة: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ التي هي صلة الموصول وهي تعميم بعد تخصيص لتكميل المقصود من الصلة، إذ أفادت الصلة عموم تصرفه في الموجودات، وأفادت هذه عموم تصرفه في الموجودات والمعدومات بالإعدام للموجودات والإيجاد للمعدومات، فيكون قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مفيداً معنى آخر غير ما أفاده قوله: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ تفادياً من أن يكون معناه تأكيداً لمعنى: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، وتكون هذه الجملة تميماً للصلة.

وفي معنى صلة ثانية ثم عطفت ولم يكرر فيها اسم موصول بخلاف قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ﴾ [الملك: 2]، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [الملك: 3].

و﴿شَيْءٌ﴾: ما يصح أن يُعلم ويُخبر عنه. وهذا هو الإطلاق الأصلي في اللغة. وقد يطلق «الشيء» على خصوص الموجود بحسب دلالة القرائن والمقامات. وأما التزام الأشاعرة: أن الشيء لا يطلق إلا على الموجود فهو التزام ما لا يلزم دعا إليه سد باب الحجاج مع المعتزلة في أن الوجود عين الموجود أو زائد على الموجود، ففترعت عليه مسألة: أن المعدوم شيء عند جمهور المعتزلة وأن الشيء لا يطلق إلا على الموجود عند الأشعري وبعض المعتزلة، وهي مسألة لا طائل تحتها، والخلاف فيها لفظي، والحق أنها مبنية على الاصطلاح في مسائل علم الكلام لا على تحقيق المعنى في اللغة.

وتقديم المجرور في قوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ للاهتمام بما فيه من التعميم، وإبطال دعوى المشركين نسبتهم الإلهية لأصنامهم مع اعترافهم بأنه لا تقدر على خلق السماوات والأرض ولا على الإحياء والإماتة.

[2] ﴿أَلَيْسَ خَلْقَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ لِبَلُوكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۚ﴾.

صفة لـ ﴿أَلَيْسَ بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: 1] فلما شمل قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: 1] تعلّق القدرة بالموجود والمعدوم أتبع بوصفه تعالى بالتصرف الذي منه خلق المخلوقات وأعراضها لأن الخلق أعظم تعلق القدرة بالمقدور لدلالته على صفة القدرة وعلى صفة العلم.

وأوثر بالذكر من المخلوقات الموت والحياة لأنهما أعظم العوارض لجنس الحيوان الذي هو أعجب الموجود على الأرض والذي الإنسان نوع منه، وهو المقصود بالمخاطبة بالشرائع والمواعظ، فالإماتة تصرف في الموجود بإعداده للفناء، والإحياء تصرف في المعدوم بإيجاده ثم إعطائه الحياة ليستكمل وجود نوعه.

فليس ذكر خلق الموت والحياة تفصيلاً لمعنى الملّك بل هو وصف مستقل.

والاقتصار على خلق الموت والحياة لأنهما حالتان هما مظهرها تعلّق القدرة بالمقدور في الذات والعرض، لأن الموت والحياة عَرَضَانِ والإنسان معروض لهما.

والعَرَض لا يقوم بنفسه، فلما ذكر خلق العَرَض عُلم من ذكره خلق معروضه بدلالة الاقتضاء.

وأوثر ذكر الموت والحياة لما يدلان عليه من العبرة بتداول العَرَضَيْنِ المتضادين على معروض واحد، وللدلالة على كمال صنع الصانع، فالموت والحياة عَرَضَانِ يعرضان للموجود من الحيوان، والموت يُعَدُّ الموجود للفناء والحياة تُعَدُّ الموجود للعمل للبقاء مدة. وهما عند المتكلمين من الأعراض المختصة بالحي، وعند الحكماء من مقولة الكيف ومن قسم الكيفيات النفسانية منه.

فالحياة: قوة تتبع اعتدال المزاج النوعي لتفيض منها سائر القوى.

والموت: كيفية عدمية هو عدم الحياة عما شأنه أن يوصف بالحياة أو الموت،

أي: زوال الحياة عن الحي، فبين الحياة والموت تقابلُ العدم والمملكة.

ومعنى خلق الحياة: خلق الحي، لأن قوام الحي هو الحياة، ففي خلقه خلق ما به

قوامه، وأما معنى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ﴾ فإيجاد أسبابه، وإلا فإن الموت عدم لا يتعلق به

الخلق بالمعنى الحقيقي، ولكنه لما كان عَرَضاً للمخلوق عبر عن حصوله بالخلق تبعاً كما

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [96] [الصافات: 96].

وأيضاً لأن الموت تصرف في الموجود القادر الذي من شأنه أن يدفع عن نفسه ما

يكرهه. والموت مكروه لكل حي فكانت الإمامة مظهراً عظيماً من مظاهر القدرة لأن فيها تجلي وصف القاهر.

فأما الإحياء فهو من مظاهر وصف القادر، ولكن مع وصفه المنعم.

فمعنى القدرة في الإمامة أظهر وأقوى، لأن القهر ضرب من القدرة.

ومعنى القدرة في الإحياء خفي بسبب أمرين: بدقة الصنع وذلك من آثار صفة العلم، وبنعمة كمال الجنس وذلك من آثار صفة الإنعام. وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ في البقرة [28].

وفي ذكرهما تخلص إلى ما يترتب عليهما من الآثار التي أعظمها العمل في الحياة والجزاء عليه بعد الموت، وذلك ما تضمنه قوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُنَّ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فإن معنى الابتلاء مشعر بترتب أثر له وهو الجزاء على العمل للتذكير بحكمة جعل هذين الناموسين البديعين في الحيوان لتظهر حكمة خلق الإنسان ويُفضيا به إلى الوجود الخالد، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [115] [المؤمنون: 115].

وهذا التعليل من قبيل الإدماج.

وفيه استدلال على الوحداية بدلالة في أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21].

والمعنى: أنه خلق الموت والحياة ليكون منكم أحياء يعملون الصالحات والسيئات، ثم أَمْوَاتًا يَخْلُصُونَ إلى يوم الجزاء فيُجزون على أعمالهم بما يناسبها.

فالتعريف في ﴿الْمَوْتِ﴾ و﴿الْحَيَاةِ﴾ تعريف الجنس. وفي الكلام تقدير: هو الذي خلق الموت والحياة لتحيا فيبلوكم أيكم أحسن عملاً، وتموتوا فتُجزوا على حسب تلك البلوى، ولكون هذا هو المقصود الأهم من هذا الكلام قدّم الموت على الحياة.

وجملة: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ إلى آخرها معترضة بين الموصولين.

واللام في: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ لام التعليل، أي: في خلق الموت والحياة حكمة أن يبلوكم. الخ.

وتعليل فعل بعلة لا يقتضي انحصار علله في العلة المذكورة، فإن الفعل الواحد تكون له علل متعددة فيذكر منها ما يستدعيه المقام، فقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُنَّ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ تعليل لفعل ﴿خَلَقَ﴾ باعتبار المعطوف على مفعوله، وهو ﴿وَالْحَيَاةِ﴾ لأن حياة الإنسان حياة خاصة تصحح للموصوف بمن قامت به الإدراك الخاص الذي يندفع به إلى العمل باختياره، وذلك العمل هو الذي يوصف بالحسن والقبح، وهو ما دل عليه بالمنطوق والمفهوم قوله تعالى: ﴿أَيَكُنَّ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: وأيكم أقبح عملاً.

ولذلك فذكر خلق الموت إتماماً للاستدلال على دقيق الصنع الإلهي وهو المسوق له الكلام، وذكر خلق الحياة إدماجاً للتذكير، وهو من أغراض السورة.
ولا أشك في أن بناء هذا العالم على ناموس الموت والحياة له حكمة عظيمة يعسر على الأفهام الاطلاع عليها.

والبلوى: الاختبار، وهي هنا مستعارة للعلم أي: ليعلم علم ظهور، أو مستعارة لإظهار الأمر الخفي، فجعل إظهار الشيء الخفي شيئاً بالاختبار.
وجملة: ﴿أَتَكُونُ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ مرتبطة بـ ﴿لِيُبْلُوَكُمْ﴾.

و«أي» اسم استفهام ورفعه يعين أنه مبتدأ وأنه غير معمول للفظ قبله، فوجب بيان موقع هذه الجملة، وفيه وجهان:

أحدهما: قول الفراء والزجاج والزمخشري في تفسير أول سورة هود أن جملة الاستفهام سادة المفعول الثاني، وأن فعل ﴿يُبْلُوَكُمْ﴾ المضمّن معني «يَعْلَمُكُمْ» معلق عن العمل في المفعول الثاني، وليس وجود المفعول الأول مانعاً من تعليق الفعل عن العمل في المفعول الثاني وإن لم يكن كثيراً في الكلام.

الوجه الثاني: أن تكون الجملة واقعة في محل المفعول الثاني ﴿لِيُبْلُوَكُمْ﴾ أي: تؤول الجملة بمعنى مفرد تقديره: ليعلمكم أهذا الفريق أحسن عملاً أم الفريق الآخر.

وهذا مختار صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية. ومبناه على أن تعليق أفعال العلم عن العمل لا يستقيم إلا إذا لم يذكر للفعل مفعول، فإذا ذكر مفعول لم يصح تعليق الفعل عن المفعول الثاني، وحاصله: أن التقدير ليعلم الذين يقال في حقهم: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ على نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا﴾ [مريم: 69]، أي: لنزعم الذين يقال فيهم: أيهم أشد.

وجوّز صاحب التقريب أن يكون التقدير: ليعلم جواب سؤال سائل: أيكم أحسن عملاً.

قلت: ولك أن تجعل جملة: ﴿أَتَكُونُ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ مستأنفة وتجعل الوقف على قوله: ﴿لِيُبْلُوَكُمْ﴾ ويكون الاستفهام مستعملاً في التحضيض على حسن العمل كما هو في قول طرفة:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني غنيت فلم أكسل ولم أتبلد
فجعل الاستفهام تحضيضاً.

﴿أَحْسَنُ﴾ تفضيل، أي: أحسن عملاً من غيره، فالأعمال الحسنة متفاوتة في الحسن إلى أدناها، فأما الأعمال السيئة فإنها مفهومة بدلالة الفحوى لأن البلوى في أحسن الأعمال تقتضي البلوى في السيئات بالأولى، لأن إحصاءها والإحاطة بها أولى في الجزاء لما يترتب عليها من الاجترار على الشارع، ومن الفساد في النفس، وفي نظام العالم، وذلك أولى بالعقاب عليه، ففي قوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إيجاز.

وجملة: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾ تذييل لجملة: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إشارة إلى أن صفاته تعالى تقتضي تعلقاً بمتعلقاتها لثلاث تكون معطلة في بعض الأحوال والأزمان فيفضي ذلك إلى نقائصها. فأما «العزیز» فهو الغالب الذي لا يعجز عن شيء، وذكره مناسب للجزاء المستفاد من قوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ كما تقدم آنفاً، أي: ليجزيكم جزاء العزيز، فعلم أن المراد الجزاء على المخالفات والنكول عن الطاعة. وهذا حظ المشركين الذين شملهم ضمير الخطاب في قوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾.

وأما ﴿الْعَفُورُ﴾ فهو الذي يكرم أوليائه ويصفح عن فلتاتهم، فهو مناسب للجزاء على الطاعات وكناية عنه، قال تعالى: ﴿وَلِيَّ لَغْفَارٍ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَكَمَلَ صُلِحًا ثُمَّ إِنَّهُدَىٰ﴾ [طه: 82] فهو إشارة إلى حظ أهل الصلاح من المخاطبين.

[3، 4] ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4).

صفة ثانية للذي بيده الملك، أعقب التذكير بتصرف الله بخلق الإنسان وأهم أعراضه بذكر خلق أعظم الموجودات غير الإنسان وهي السماوات، ومفيدة وصفاً من عظيم صفات الأفعال الإلهية ولذلك أعيد فيها اسم الموصول لتكون الجمل الثلاث جارية على طريقة واحدة.

والسماوات تكرر ذكرها في القرآن. والظاهر أن المراد بها الكواكب التي هي مجموع النظام الشمسي ما عدا الأرض. كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ في سورة البقرة [29] فإنها هي المشاهدة بأعين المخاطبين، فلا استدلال بها استدلال بالمحسوس.

والطباق يجوز أن يكون مصدر طابق وُصفت به السماوات للمبالغة، أي: شديدة المطابقة، أي: مناسبة بعضها لبعض في النظام.

ويجوز أن تكون ﴿طِبَاقًا﴾ جمع طَبَق، والطبق المساوي في حالة ما، ومنهم قولهم في المثل: وافق شئ طَبَقَةً.

والمعنى: أنها مرتفع بعضها فوق بعض في الفضاء السحيق، أو المعنى: أنها متماثلة في بعض الصفات مثل التكوير والتحرك المنتظم في أنفسها، وفي تحرك كل واحدة منها بالنسبة إلى تحرك بقيتها بحيث لا ترتطم ولا يتداخل سيرها.

وليس في قوله: ﴿طَبَاقًا﴾ ما يقتضي أن بعضها مظروف لبعض، لأن ذلك ليس من مفاد مادة الطباق (فلا تكن طَبَاقًا).

وجاءت جملة: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ تقريراً لقوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا﴾.

فإن نفي التفاوت يحقق معنى التطابق، أي: التماثل. والمعنى: ما ترى في خلق الله السماوات تفاوتاً. وأصل الكلام: ما ترى فيهن ولا في خلق الرحمن من تفاوت، فعبّر بخلق الرحمن لتكون الجملة تذيلاً لمضمون جملة: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا﴾، لأن انتفاء التفاوت عما خلقه الله متحقق في خلق السماوات وغيرها، أي: كانت السماوات طباقاً لأنها من خلق الرحمن، وليس فيما خلق الرحمن من تفاوت، ومن ذلك نظام السماوات.

والتفاوت بوزن التفاعل: شدة الفوت، والفوت: البعد، وليست صيغة التفاعل فيه لحصول فعل من جانبيين ولكنها مفيدة للمبالغة.

ويقال: تفوّت الأمر أيضاً، وقيل: إن تفوت، بمعنى حصل فيه عيب.

وقرأ الجمهور: ﴿مِن تَفَوُّتٍ﴾، وقرأه حمزة والكسائي وخلف ﴿مِن تَفَوُّتٍ﴾ بتشديد الواو دون ألف بعد الفاء، وهي مرسومة في المصحف بدون ألف كما هو كثير في رسم الفتحات المشبعة.

وهو هنا مستعار للتخالف وانعدام التناسق، لأن عدم المناسبة يشبه البعد بين الشيئين تشبيه معقولٍ بمحسوس.

والخطاب لغير معيّن، أي: لا ترى أيها الرائي تفاوتاً.

والمقصود منه التعريض بأهل الشرك إذ أضاعوا النظر والاستدلال بما يدل على وحدانية الله تعالى بما تشاهده أبصارهم من نظام الكواكب، وذلك ممكن لكل من يبصر، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: 6]، فكأنه قال: ما ترون في خلق الرحمن من تفاوت، فيجوز أن يكون ﴿خَلَقَ الرَّحْمَنِ﴾ بمعنى المفعول كما في قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: 11]، ويراد منه السماوات، والمعنى: ما ترى في السماوات من تفاوت، فيكون العدول

عن الضمير لتتأتى الإضافة إلى اسمه ﴿الرَّحْمَنُ﴾ المُشعر بأن تلك المخلوقات فيها رحمة بالناس كما سيأتي.

ويجوز أن يكون ﴿خَلَقَ﴾ مصدراً فيشمل خَلَقَ السماوات وَخَلَقَ غيرها، فإن صنع الله رحمة للناس لو استقاموا كما صنع لهم وأوصاهم، فتفيد هذه الجملة مفاد التذليل في أثناء الكلام على وجه الاعتراض ولا يكون إظهاراً في مقام الإضمار.

والتعبير بوصف ﴿الرَّحْمَنُ﴾ دون اسم الجلالة إيماء إلى أن هذا النظام مما اقتضته رحمته بالناس لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام عيشهم، لأنه لو كان فيما خلق الله تفاوت لكان ذلك التفاوت سبباً لاختلال النظام فيتعرض الناس بذلك لأهوال ومشاق، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 97]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْجَسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5].

وأيضاً في ذلك الوصف تورك على المشركين إذ أنكروا اسمه تعالى: ﴿الرحمن﴾، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: 60].

وفرّع عليه قوله: ﴿فَإِنِجِبِ الْبَصَرَ﴾... إلخ. والتفريع للتسبب، أي: انتفاء رؤية التفاوت، جعل سبباً للأمر بالنظر ليكون نفي التفاوت معلوماً عن يقين دون تقليد للمخبر.

ورجع البصر: تكريره، والرجع: العود إلى الموضع الذي يجاء منه، وفعل: رجع يكون قاصراً ومتعدياً إلى مفعول بمعنى: أرجع، فأرجع هنا فعل أمر من رجع المتعدي.

والرَّجَع يقتضي سبق حلول بالموضع، فالمعنى: أعد النظر، وهو النظر الذي دلّ عليه قوله: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾، أي: أعد رؤية السماوات وأنها لا تفاوت فيها إعادة تحقيق وتبصّر، كما يقال: أعد نظراً.

والخطاب في قوله: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾، وقوله: ﴿فَإِنِجِبِ الْبَصَرَ﴾... إلخ. خطاب لغير معين.

وصيغة الأمر مستعملة في الإرشاد للمشرّكين مع دلالته على الوجوب للمسلمين، فإن النظر في أدلة الصفات واجب لمن عرض له داع إلى الاستدلال. والبصر مستعمل في حقيقته. والمراد به البصر المصحوب بالتفكير والاعتبار بدلالة الموجودات على موجدّها.

وهذا يتصل بمسألة إيمان المقلّد وما اختلف فيه من الرواية عن الشيخ أبي الحسن الأشعري.

والاستفهام في ﴿هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾ تقريرى ووقع بـ ﴿هَلْ﴾ لأن ﴿هَلْ﴾ تفيد تأكيد الاستفهام إذ هي بمعنى «قد» في الاستفهام، وفي ذلك تأكيد وحث على التبصر والتأمل، أي: لا تقتنع بنظرة ونظرتين، فتقول: لم أجد فطوراً، بل كرر النظر وعاوده باحثاً عن مصادفة فطور لعلك تجده.

والفطور: جمع فَطَرَ بفتح الفاء وسكون الطاء، وهو الشَّق والصدع، أي: لا يسعك إلا أن تعترف بانتفاء الفطور في نظام السماوات فتراها ملتئمة محبوبة لا ترى في خلالها انشقاقاً، ولذلك كان انفطار السماء وانشقاقها علامة على انقراض هذا العالم ونظامه الشمسي، قال تعالى: ﴿وَوُضِّحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: 19]، وقال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1].

وعطف ﴿ثُمَّ إِنْجِعَ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ دالاً على التراخي الرتبي كما هو شأن ﴿ثُمَّ﴾ في عطف الجمل، فإن مضمون الجملة المعطوفة بـ ﴿ثُمَّ﴾ هنا أهم وأدخل في الغرض من مضمون الجملة المعطوف عليها، لأن إعادة النظر تزيد العلم بانتفاء التفاوت في الخلق رسوخاً و يقيناً. و﴿كَرَّتَيْنِ﴾ تشنية كَرَّة وهي المرة، وعبرَ عنها هنا بالكَرَّة مشتقة من الكر وهو العود لأنها عود إلى شيء بعد الانفصال عنه ككَرَّة المُقاتل يحمل على العدو بعد أن يفر فراراً مصنوعاً. وإيثار لفظ كَرَّتَيْنِ في هذه الآية دون مرادفه نحو مرتين وتارتين لأن كلمة كَرَّة لم يغلب إطلاقها على عدد الاثنتين، فكان إيثارها في مقام لا يراد فيه اثنتين أظهر في أنها مستعملة في مطلق التكرير دون عدد اثنتين أو زوج وهذا من خصائص الإعجاز، ألا ترى أن مقام إرادة عدد الزوج كان مقتضياً تشنية (مرة) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُرَىٰ مَرَّتَيْنِ﴾ [البقرة: 229] لأنه أظهر في إرادة العدد إذ لفظ مرة أكثر تداولاً.

وتشنية ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ ليس المراد بها عدد الاثنتين الذي هو ضعف الواحد إذ لا يتعلَّق غرض بخصوص هذا العدد، وإنما التشنية مستعملة كناية عن مطلق التكرير فإن من استعملات صيغة التشنية في الكلام أن يراد بها التكرير وذلك كما في قولهم: «لبَّيك وسعديك»، يريدون تلبيات كثيرة وإسعاداً كثيراً، وقولهم: دَوَالِيكَ، ومنه المثل: «دُهِدْرَيْن، سَعْدُ الْقَيْن» الدُّهُدْرُ الباطل، أي: باطلاً على باطل، أي: أتيت يا سعدُ القَيْن دَهِدْرَيْن، (وهو تشنية دَهِدْر الدال مهملة في أوله مضمومة فهاء ساكنة فдал مهملة مضمومة فراء مشددة).

وأصله كلمة فارسية نقلها العرب وجعلوها بمعنى الباطل. وسبب النقل مختلف فيه وتشنيته مكنى بها عن مضاعفة الباطل، وكانوا يقولون هذا المثل عند تكذيب الرجل صاحبه، وأما سعد القَيْن فهو اسم رجل كان قيناً وكان يمر على الأحياء لصقل سيوفهم

وإصلاح أسلحتهم فكان يُشيع أنه راحل غداً ليسرع أهل الحي بجلب ما يحتاج للإصلاح فإذا أتوه بها أقام ولم يرحل فُضرب به المثل في الكذب، فكان هذا المثل جامعاً لمثلين، وقد ذكره الزمخشري في المستقصى، والميداني في مجمع الأمثال وأطال.

وأصل استعمال التثنية في معنى التكرير أنهم اختصروا بالتثنية تعداد ذكر الاسم تعداداً مشيراً إلى التكرير.

وقريب من هذا القليل قولهم: وقع كذا غير مرة، أي: مرات عديدة.

فمعنى: ﴿ثُمَّ إِنِّجَ أَبْصَرَ كَرَيْنَ﴾ عاود التأمل في خلق السماوات وغيرها غير مرة. والانقلاب: الرجوع يقال: انقلب إلى أهله، أي: رجع إلى منزله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [31] [المطففين: 31]، وإيثار فعل ﴿يَنْقَلِبُ﴾ هنا دون: يرجع، لئلا يلتبس فعل ﴿إِنِّجَ﴾ المذكور قبله. وهذا من خصائص الإعجاز نظير إيثار كلمة ﴿كَرَيْنَ﴾ كما ذكرناه آنفاً.

والخاسئ: الخائب، أي: الذي لم يجد ما يطلبه. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿إخْشَوْا فِيهَا﴾ في سورة المؤمنين [108].

والحسير: الكليل، وهو كل ناشئ عن قوة التأمل والتحديق مع التكرير، أي: يرجع البصر غير واحد ما أغري بالحرص على رؤيته بعد أن أدام التأمل والفحص حتى عَيِيَ وكلَّ، أي: لا تجد بعد اللاي فطوراً في خلق الله.

[5] ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ

السَّعِيرِ﴾.

انتقل من دلائل انتفاء الخلل عن خلقة السماوات، إلى بيان ما في إحدى السماوات من إتقان الصنع، فهو مما شمله عموم الإتقان في خلق السماوات السبع وذكره من ذكر بعض أفراد العام كذكر المثال بعد القاعدة الكلية، فدقائق السماء الدنيا أوضح دلالة على إتقان الصنع لكنها نصب أعين المخاطبين، ولأن من بعضها يحصل تخلص إلى التحذير من حيل الشياطين وسوء عواقب أتباعهم. وتأكيد الخبر بـ«قد» لأنه إلى أنه نتيجة الاستفهام التقريري المؤكد بـ«هل» أخت «قد» في الاستفهام.

والكلام على السماء الدنيا ولماذا وصفت بالدنيا وعن الكواكب تقدم في أول سورة الصافات.

وسميت النجوم هنا مصابيح على التشبيه في حسن المنظر فهو تشبيه بليغ.

وذكر التزيين إدماج للامتنان في أثناء الاستدلال، أي: زيناها لكم مثل الامتنان في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ في سورة النحل [6].

والمقصد: التخلص إلى ذكر رجم الشياطين ليتخلص منه إلى وعيدهم ووعيد متبعيهم.

وعدل عن تعريف «مصاييح» باللام إلى تنكيه لما يفيد التذكير من التعظيم.

والرجوم: جمع رجم وهو اسم لما يُرجم به، أي: ما يرمي به الرامي من حجر ونحوه تسمية للمفعول بالمصدر مثل الخلق بمعنى المخلوق في قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: 11].

والذي جعل رجوماً للشياطين هو بعض النجوم التي تبدو مضيئة ثم تلوح منقضة، وتسمى الشهب، ومضى القول عليها في سورة الصافات.

وضمير الغائبة في ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ المتبادر أنه عائد إلى المصاييح، أي: أن المصاييح رجوم للشياطين.

ومعنى جعل المصاييح رجوماً جار على طريقة إسناد عمل بعض الشيء إلى جميعه مثل إسناد الأعمال إلى القبائل لأن العاملين من أفراد القبيلة كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنفُسُكُمْ﴾ [البقرة: 85]، وقول العرب: قتلت هذيل رضيع بني ليث تمام بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب.

وجعل بعض المفسرين الضمير المنصوب في ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد إلى ﴿الْأَسْمَاءِ الدُّنْيَا﴾ على تقدير: وجعلنا منها رجوماً، إما على حذف حرف الجر، وإما على تنزيل المكان الذي صدر منه الرجوم منزلة نفس الرجوم فهو مجاز عقلي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ في سورة البقرة [66] ولكنها على جعل الضمير المنصوب راجعاً إلى القرية وإن لم تذكر في تلك الآية ولكنها ذكرت في آية سورة الأعراف: ﴿وَسَلَّمْهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ وقصتها هي المشار إليها بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ إِعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: 65]، فالتقدير: فجعلنا منها، أي: من القرية نكالا، وهم القوم الذين قيل لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: 65].

والشياطين هي التي تسترق السمع فتطردوها الشهب كما تقدم في سورة الصافات.

وأصل ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أعدنا، أي: هيأنا، قُلبت الدال الأولى تاء لتقارب مخرجيهما ليتأتى الإدغام طلباً للخفة.

و﴿السَّعِيرَ﴾: اسم صيغ على مثال فاعيل بمعنى مفعول من: سَعَرَ النار، إذا أوقدها، وهو لهب النار، أي: أعددنا للشياطين عذاب طبقة أشد طبقات النار حرارة وتوقداً، فإن جهنم طبقات.

وكان السعير عذاباً للشياطين الجن مع كونهم من عنصر النار لأن نار جهنم أشد من نار طبعهم، فإذا أصابتهم صارت لهم عذاباً.

وتسمية عذابهم ﴿السَّعِيرَ﴾ دون النار، أو جهنم مراد لهذا المعنى، ومثله قوله تعالى في عذاب الجن: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: 12]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حَرِبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6] يعني الشيطان.

ومعنى الإعداد يحتمل أنه إعداد تقدير وإيجاد فلا يقتضي أن تكون جهنم مخلوقة قبل يوم القيامة ويحتمل أنه إعداد استعمال، فتكون جهنم مخلوقة حين نزول الآية، وقد اختلف علماؤنا في أن النار موجودة أو توجد يوم الجزاء إذ لا دليل في الكتاب والسنة على أحد الاحتمالين، وإنما دعاهم إلى فرض هذه المسألة تأويل بعض الآيات والأحاديث.

[6] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾

هذا تتميم لثلاثتهم أن العذاب أعد للشياطين خاصة، والمعنى: ولجميع الذين كفروا بالله عذاب جهنم، فالمراد عامة المشركين. ولأجل ما في الجملة من زيادة الفائدة غايرت الجملة التي قبلها فلذلك عطف عليها.

وتقديم المجرور للاهتمام بتعلقه بالمسند إليه والمبادرة به.

وجملة: ﴿وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ حال أو معترضة لإنشاء الذم وحذف المخصوص بالذم لدلالة ما قبل ﴿بئس﴾ عليه. والتقدير: وبئس المصير عذاب جهنم.

والمعنى: بئس جهنم مصيراً للذين كفروا.

[7، 8] ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۖ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾

الجملة مستأنفة استئنافاً بياناً لبيان ذم مصيرهم في جهنم، أي: من جملة مذام مصيرهم مذمة ما يسمعونها فيها من أصوات مؤلمة مخيفة.

و﴿إِذَا﴾ ظرف متعلق بـ ﴿سَمِعُوا﴾ يدل على الاقتران بين زمن الإلقاء وزمن سماع الشهيق.

والشهيق: تردد الأنفاس في الصدر لا تستطيع الصعود لبكاء ونحوه، أطلق على

صوت التهاب نار جهنم الشهيق تفضيعاً له لأن قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ يقتضي أن الشهيق شهيقاً لأن أصل اللام أن تكون لشبه الملك.

وجملة: ﴿وَهِيَ تَقُورُ﴾ حال من ضمير ﴿فِيهَا﴾، وتفور: تغلي وترتفع السنة لهيها.

و﴿الْغَيْظُ﴾ أشد الغضب. وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ خبر ثان عن ضمير ﴿وَهِيَ﴾ مثلت حالة فورانها وتساعد السنة لهيها ورطمها ما فيها والتهام من يُلقون إليها، بحال مغتاظ شديد الغيظ لا يترك شيئاً مما غاظه إلا سلط عليه ما يستطيع من الإضرار.

واستعمل المركب الدال على الهيئة المشبه بها مع مرادفاته كقولهم: يكاد فلان يتميز غيظاً ويتقصف غضباً، أي: يكاد تتفرق أجزاؤه فيتميز بعضها عن بعض، وهذا من التمثيلية المكنية وقد وضحناها في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ في سورة البقرة [5].

ونظير هذه الاستعارة قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَّ﴾ في سورة الكهف [77] إذ مثل الجدار بشخص له إرادة.

و﴿تَمَيَّزَ﴾ أصله تميز، أي: تنفصل، أي: تتجزأ أجزاء تخيلاً لشدة الاضطراب بأن أجزائها قاربت أن تتقطع، وهذا كقولهم: غضب فلان فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء.

[8، 9] ﴿كَلَّمَ الْأُلَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (8) ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ (9).

أتبع وصف ما يجده أهل النار عند إلقاءهم فيها من فظائع أهوالها بوصف ما يتلقاهم به خزنة النار.

فالجمل استئناف بياني أثاره وصف النار عند إلقاء أهل النار فيها إذ يتساءل السامع عن سبب وقوع أهل النار فيها فجاء بيانه بأنه تكذيبهم رسل الله الذين أرسل إليهم، مع ما انضم إلى ذلك من وصف ندامة أهل النار على ما فرط منهم من تكذيب رسل الله وعلى إهمالهم النظر في دعوة الرسل والتدبر فيما جاءوهم به.

و﴿كَلَّمَ﴾ مركب من «كل» اسم دال على الشمول، ومن «ما» الظرفية المصدرية وهو حرف يؤول مع الفعل الذي بعده بمصدره.

والتقدير: في كل وقت إلقاء فوج يسألهم خزنتها الفوج.

وباتصال «كل» بحرف «ما» المصدرية الظرفية اكتسب التركيب معنى الشرط وشابه أدوات الشرط في الاحتياج إلى جملتين مرتبة إحداهما على الأخرى.

وجيء بفعلي ﴿أَلْقَى﴾ و﴿سَأَلَهُمْ﴾ ماضيين لأن أكثر ما يقع الفعل بعد ﴿كُلَّمَا﴾ أن يكون بصيغة المضى بأنها لما شابته الشرط استوى الماضي والمضارع معها لظهور أنه للزمن المستقبل فأوثر فعل المضى لأنه أخف.

والفوج: الجماعة، أي: جماعة ممن حق عليهم الخلود، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ في سورة النمل [83].

وجيء بالضمائر العائدة إلى الفوج ضمائر جمع في قوله: ﴿سَأَلَهُمْ﴾... إلخ. لتأويل الفوج بجماعة أفراد كما في قوله: ﴿وَلَمَّا طِفَّيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِفْتَلَوْا﴾ [الحجرات: 9].

وخزنة النار: الملائكة الموكل إليهم أمر جهنم وهو جمع خازن للموكل بالحفظ. وأصل الخازن: الذي يخزن شيئاً، أي: يحفظه في مكان حصين، فإطلاقه على الموكلين مجاز مرسل.

وجملة: ﴿أَلَّا يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ بيان لجملة سألهم كقوله: ﴿فَوَسَّوْا إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّبِعُ هَلْ أَتُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ [طه: 120].

والاستفهام في ﴿أَلَّا يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ للتوبيخ والتنديد ليزيدهم حسرة.

والنذير: المنذر، أي: رسول منذر بعقاب الله، وهو مصوغ على غير قياس كما صيغ بمعنى المسمع السميع في قول عمرو بن معد يكرب:

أمن ربحانة الداعي السميع

والمراد أفواج أهل النار من جميع الأمم التي أرسلت إليهم الرسل، فتكون جملة: ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ﴾... إلخ بمعنى التذييل.

وجملة: ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ معترضة بين كلام خزنة جهنم اعتراضاً يشير إلى أن الفوج قاطع كلام الخزنة بتعجيل الاعتراف بما وبَّخوهم عليه وذلك من شدة الخوف.

وفُصِّلَت الجملة لوجهين لأنها اعتراض، ولوقوعها في سياق المحاوراة كما تقدم غير مرة كقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ في سورة البقرة [30]. وكان جوابهم جواب المتحسر المتندم، فابتدأوا الجواب دفعة بحرف ﴿بَلَىٰ﴾ المفيد نقيض النفي في الاستفهام، فهو مفيد معنى: جاءنا نذير. ولذلك كان قولهم: ﴿قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ مؤكداً لما دلت عليه ﴿بَلَىٰ﴾، وهو من تكرير الكلام عند التحسر، مع زيادة التحقيق بـ ﴿قَدْ﴾ وذلك التأكيد هو مناط الندامة والاعتراف بالخطأ.

وجملة: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ الأظهر أنها بقية كلام خزنة جهنم فصل بينها وبين ما سبقها من كلامهم اعتراض جواب الفوج الموجه إليهم الاستفهام التوبيخي كما ذكرناه آنفاً، ويؤيد هذا إعادة فعل القول في حكاية بقية كلام الفوج في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ [الملك: 10]... إلخ، لانقطاعه بالاعتراض الواقع خلال حكايته.

ويجوز أن تكون جملة: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ من تمام كلام كل فوج لنذيرهم. وأوتي بضمير جمع المخاطبين مع إن لكل قوم رسولاً واحداً في الغالب باستثناء موسى وهارون وباستثناء رسل أصحاب القرية المذكورة في سورة يس، أما على اعتبار الحكاية بالمعنى بأن جمع كلام جميع الأفواج في عبارة واحدة فجيء بضمير الجمع والمراد التوزيع على الأفواج، أي: قال جميع الأفواج: ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾، على طريقة المثال المشهور: ركب القوم دوابهم، وإما على إرادة شمول الضمير للنذير وأتباعه الذين يؤمنون بما جاء به.

وعموم ﴿شَرٍّ﴾ في قوله: ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ مِنْ شَرٍّ﴾ المراد منه شيء من التنزيل، يدل على أنهم كانوا يحيلون أن ينزل الله وحياً على بشر، وهذه شنشنة أهل الكفر، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَرٍّ﴾، وقد تقدم في آخر الأنعام [91].

ووصف الضلال بـ ﴿كَبِيرٍ﴾ معناه شديد بالغ غاية ما يبلغ إليه جنسه حتى كأنه جسم كبير.

ومعنى القصر لمستفاد من النفي والاستثناء في ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ قصر قلب، أي: ما حالكم التي أنتم متلبسون بها إلا الضلال، وليس الوحي الإلهي والهدى كما تزعمون.

والظرفية مجازية تشبيههم تمحضهم للضلال بإحاطة الظرف بالمظروف.

[10] ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

أعيد فعل القول للإشارة إلى أن هذا كلام آخر غير الذي وقع جواباً على سؤال خزنة جهنم، وإنما هذا قول قالوه في مجامعهم في النار تحسراً وتندماً، أي: وقال بعضهم لبعض في النار، فهو من قبيل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا إِدْرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُكُمْ﴾ إلخ [الأعراف: 38]. لتأكيد الإخبار على حسب الوجهين المتقدمين في موقع جملة: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: 9].

وذكروا ما يدل على انتفاء السمع والعقل عنهم في الدنيا، وهم يريدون سمعاً

خاصًا وعقلًا خاصًا، فانتفاء السمع بإعراضهم عن تلقي دعوة الرسل مثل ما حكى الله عن المشركين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ [فصلت: 26]، وانتفاء العقل بترك التدبر في آيات الرسل ودلائل صدقهم فيما يدعون إليه.

ولا شك أن أقل الناس عقلًا المشركون لأنهم طرحوا ما هو سبب نجاتهم لغير معارض يعارضه في دينهم، إذ ليس في دين أهل الشرك وعيد على ما يخالف الشرك من معتقدات، ولا على ما يخالف أعمال أهله من الأعمال، فكان حكم العقل قاضياً بأن يتلقوا ما يدعوهم إليه الرسل من الإنذار بالامتنال إذ لا معارض له في دينهم لولا الإلف والتكبر بخلاف حال أهل الأديان اتباع الرسل الذين كانوا على دين فهم يخشون إن أهملوه أن لا يغني عنهم الدين الجديد شيئاً، فكانوا إلى المعذرة أقرب لولا أن الأدلة بعضها أقوى من بعض.

وذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُهُمْ بِهَذَا﴾ من سورة الطور [32] عن كتاب الحكيم الترمذي أنه أخرج حديثاً: أن رجلاً قال: يا رسول الله ما أعقل فلاناً النصراني، فقال النبي ﷺ: «مه، إن الكافر لا عقل له، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (10)»، قال: وفي حديث ابن عمر فزجره النبي ﷺ وقال: «مه، إن العاقل من يعمل بطاعة الله»، ولم أقف عليه فيما رأيت من كتب التفسير ولم يذكره السيوطي في التفسير بالمأثور في سورة الطور ولا في سورة الملك.

ويؤخذ من هذه الآية أن قوام الصلاح في حسن التلقي وحسن النظر، وأن الأثر والنظر - أي: القياس - هما أصلاً الهدى، ومن العجيب ما ذكره صاحب الكشف: أن من المفسرين من قال: إن المراد من الآية لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي. ولم أقف على تعيين من فسر الآية بهذا ولا أحسبه إلا من قبيل الاسترواح.

و﴿أو﴾ للتقسيم، وهو تقسيم باعتبار نوعي الأحوال التي تقتضي حسن الاستماع تارة إذا ألقى إليها إرشاد، وحسن التفهم والنظر تارة إذا دعيت إلى النظر من داع غير أنفسها، أو من دواعي أنفسها، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ الْأَوَّلُونَ (18) [الزمر: 17 - 18].

ووجه تقديم السمع على العقل أن العقل بمنزلة الكلي والسمع بمنزلة الجزئي، ورعياً للترتيب الطبيعي، لأن سمع دعوة النذير هو أول ما يتلقاه المنذرون، ثم يعملون عقولهم في التدبير فيها.

[11] ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

الفاء الأولى فصيحة، والتقدير: إذ قالوا ذلك فقد تبين أنهم اعترفوا هنالك بذنبهم، أي: فهم محققون بما هم فيه من العذاب.

والسُّحِق: اسم مصدر معناه البعد، وهو هنا نائب عن الإسحاق لأنه دعاء بالإبعاد فهو مفعول مطلق نائب عن فعله، أي: أسحقهم الله إسحاقاً، ويجوز أن يراد من هذا الدعاء التعجب من حالهم كما يقال: قاتله الله، وويل له، في مقام التعجب.

والفاء الثانية للتسبب، أي: فهم جديرون بالدعاء عليهم بالإبعاد أو جديرون بالتعجب من بعدهم عن الحق، أو عن رحمة الله تعالى. ويحتمل أيضاً أن يقال لهم يوم الحساب عقب اعترافهم، تنديماً يزيدهم ألماً في نفوسهم فوق ألم الحريق في جلودهم.

واللام الداخلة على «سحِّقاً» لام التقوية إن جعل «سحِّقاً» دعاء عليهم بالإبعاد، لأن المصدر فرع في العمل في الفعل، ويجوز أن يكون اللام لام التبيين لآياته تعلق العامل بمعموله كقولهم: شكراً لك، فكل من «سحِّقاً» واللام المتعلقة به مستعمل في معنييه.

﴿أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يعم المخاطبين بالقرآن وغيرهم، فكان هذا الدعاء بمنزلة التذليل لما فيه من العموم تبعاً للجمل التي قبله.

وقرأ الجمهور: ﴿فَسُحِّقًا﴾ بسكون الحاء. وقرأه الكسائي وأبو جعفر بضم الحاء، وهو لغة فيه وذلك لاتباع ضمة السين.

[12] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

اعتراض يفيد استثناءً بياناً جاء على سنن أساليب القرآن من تعقيب الرهبة بالرغبة، فلما ذكر ما أعد للكافرين المعرضين عن خشية الله أعقبه بما أعد للذين يخشون ربهم بالغيب من المغفرة والثواب للعلم بأنهم يترقبون ما يميزهم عن أحوال المشركين.

وقدّم المغفرة تطميناً لقلوبهم لأنهم يخشون المؤاخذة على ما فرط منهم من الكفر قبل الإسلام ومن اللوم ونحوه، ثم أعقب بالبشارة بالأجر العظيم، فكان الكلام جارياً على قانون تقديم التخلية على التحلية، أو تقديم دفع الضر على جلب النفع، والوصف بالكبير بمعنى العظيم نظير ما تقدم آنفاً في قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: 9].

وتنكير ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ للتعظيم بقرينة مقارنته بـ ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وبقريّة التقديم.

وتقديم المسند على المسند إليه في جملة: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ليأتي تنكير المبتدأ، ولإفادة الاهتمام، وللرعاية على الفاصلة وهي نكت كثيرة.

[13، 14] ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ 13 ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ 14 .

عطف على الجملة السابقة عطف غرض على غرض، وهو انتقال إلى غرض آخر لمناسبة حكاية أقوالهم في الآخرة بذكر أقوالهم في الدنيا، وهي الأقوال التي كانت تصدر منهم بالنيل من رسول الله ﷺ، فكان الله يطلعهم على أقوالهم فيخبرهم النبي ﷺ بأنكم قلتم كذا وكذا، فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم كيلا يسمعه رب محمد، فأنزل الله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ كذا روي عن ابن عباس.

وصيغة الأمر في ﴿أَسِرُّوا﴾ و﴿اجْهَرُوا﴾ مستعملة في التسوية كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ [الطور: 16]، وهذا غالب أحوال صيغة افعل إذا جاءت معها ﴿أَوْ﴾ عاطفة نقيض أحد الفعلين على نقيضه.

فنقول: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل للتسوية المستفادة من صيغة الأمر بقرينة المقام وسبب النزول، أي: فسواء في علم الله الإسرار والإجهار، لأن علمه محيط بما يختلج في صدور الناس بله ما يسرون به من الكلام، ولذلك جيء بوصف عليم إذ العليم من أمثلة المبالغة وهو القوي علمه.

وضمير ﴿إِنَّهُ﴾ عائد إلى الله تعالى المعلوم من المقام، ولا معاد في الكلام يعود إليه الضمير، لأن الاسم الذي في جملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الملك: 12] لا يكون معاداً لكلام آخر.

و﴿ذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ما يتردد في النفس من الخواطر والتقادير والنوايا على الأعمال. وهو مركب من «ذات» التي هي مؤنث «ذو» بمعنى صاحب، و﴿الصُّدُورِ﴾ بمعنى العقول، وشأن «ذو» أن يضاف إلى ما فيه رفعة.

وجملة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ استئناف بياني ناشئ عن قوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بأن يسأل سائل منهم: كيف يعلم ذات الصدور، والمعروف أن ما في نفس المرء لا يعلمه غير نفسه؟ فأجيبوا بإنكار انتفاء علمه تعالى بما في الصدور، فإنه خالق أصحاب تلك الصدور، فكما خلقهم وخلق نفوسهم جعل اتصالاً لتعلق علمه بما يختلج فيها، وليس ذلك بأعجب من علم أصحاب الصدور بما يدور في خلدتها، فالإتيان بـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة لإفادة التعليل بالصلة.

فيجوز أن يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾، فيكون ﴿يَعْلَمُ﴾ و﴿خَلَقَ﴾ رافعين ضميرين عائدين إلى ما عاد إليه ضمير: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فيكون ﴿مَنْ﴾

الموصولة صادقة على المخلوقين، وحُذِفَ العائد من الصلة لأنه ضمير نصب يكثر حذفه. والتقدير: من خلقهم.

ويجوز أن يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾ والمراد الله تعالى، وحُذِفَ مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ لدلالة قوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾. والتقدير: ألا يعلم خالقكم سرهم وجهركم، وهو الموصوف بلطيف خبير.

والعلق يتعلق بذوات الناس وأحوالهم لأن الخلق إيجاد وإيجاد الذوات على نظام مخصوص دالٌّ على إرادة ما أودع فيه من النظام وما ينشأ عن قوى ذلك النظام، فالآية دليل على عموم علمه تعالى ولا دلالة فيها على أنه تعالى خالق أفعال العباد للانفكاك الظاهر بين تعلق العلم وتعلق القدرة.

وجملة: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الأحسن أن تجعل عطفاً على جملة: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ لتفيد تعليمًا للناس بأن علم الله محيط بذوات الكائنات وأحوالها، فبعد أن أنكر ظنهم انتفاء علم الله بما يسرون، أعلمهم أنه يعلم ما هو أعم من ذلك وما هو أخفى من الإسرار من الأحوال.

و﴿اللَّطِيفُ﴾: العالمُ خبايا الأمور والمدير لها برفق وحكمة.

و﴿الْخَبِيرُ﴾: العليم الذي لا تعزب عنه الحوادث الخفية التي من شأنها أن يخبر الناس بعضهم بعضاً بحدوثها، فلذلك اشتق هذا الوصف من مادة الخبر، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (103) في الأنعام [103]، وعند قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ في سورة لقمان [16].

[15] ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ

النُّشُورُ﴾ (15)

استئناف فيه عود إلى الاستدلال، وإدماج للامتنان، فإنَّ خلق الأرض التي تحوي الناس على وجهها أدل على قدرة الله تعالى وعلمه من خلق الإنسان، إذ ما الإنسان إلا جزء من الأرض أو كجزء منها، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [طه: 55]، فلما ضرب لهم بخلق أنفسهم دليلاً على علمه الدال على وحدانيته شفعه بدليل خلق الأرض التي هم عليها، مع المنة بأنه خلقها هيئة لهم صالحة للسير فيها مخرجة لأرزاقهم، وذيل ذلك بأن النشور منها، وأن النشور إليه لا إلى غيره.

والذلُّول من الدواب المنقادة المطاوعة، مشتق من الذل وهو الهوان والانقياد، فعول بمعنى فاعل يستوي فيه المذكر والمؤنث، وتقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا

ذُلُّ ﴿الآية في سورة البقرة [71]، فاستعير الذلول للأرض في تذييل الانتفاع بها مع صلابة خلقتها تشبيهاً بالدابة المسوسة المتراضة بعد الصعوبة على طريقة المصراحة.

والمناكب: تخييل للاستعارة لزيادة بيان تسخير الأرض للناس، فإن المنكب هو ملتقى الكتف مع العضد، جعل المناكب استعارة لأطراف الأرض أو لسعتها.

وفرَّع على هذه الاستعارة الأمر في ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾، فصيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة تذكيراً بما سَخَّرَ الله لهم من المشي في الأرض امتناناً بذلك.

ومناسبة ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ أن الرزق من الأرض. والأمر مستعمل في الإدامة أيضاً للامتنان، وبذلك تمت استعارة الذلول للأرض لأن فائدة تذييل الذلول ركوبها والأكل منها. فالمشي على الأرض شبيه بركوب الذلول، والأكل مما تنبت الأرض شبيه بأكل الألبان والسمن وأكل العجول والخرفان ونحو ذلك. وجمع المناكب تجريد للاستعارة لأن الذلول لها منكبان والأرض ذات متسعَات كثيرة.

وكل هذا تذكير بشواهد الربوبية والإنعام ليتدبروا فيتركوا العناد، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ رِزْقَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ [النحل: 81].

وأما عطف ﴿وَالِيهِ النُّشُورُ﴾ فهو تميم وزيادة عبر استطراد لمناسبة ذكر الأرض فإنها ماثوى الناس بعد الموت.

والمعنى: إليه النشور منها، وذلك يقتضي حذفاً، أي: وفيها تعودون.

وتعريف ﴿النُّشُورُ﴾ تعريف الجنس فيعم، أي: كل نشور، ومنه نشور المخاطبين، فكان قوله: ﴿وَالِيهِ النُّشُورُ﴾ بمنزلة التذييل.

والقصر المستفاد من تعريف جزأي ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ قصر قلب بتنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد أن الأصنام خلقت الأرض، لأن اعتقادهم إلهيتها يقتضي إلزامهم بهذا الظن الفاسد وإن لم يقولوه.

وتقديم المجرور في جملة: ﴿وَالِيهِ النُّشُورُ﴾ للاهتمام.

ومناسبة ذكر النشور هو ذكر خلق الأرض، فإن البعث يكون من الأرض.

[16] ﴿ءَأَمِنُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ ﴿١٦﴾.

انتقال من الاستدلال إلى التخويف، لأنه لما تقرر أنه خالق الأرض ومذلُّها للناس، وتقرر أنهم ما رعوا خالقها حق رعايته، فقد استحقوا غضبه وتسليط عقابه بأن

يصير مشيهم في مناكب الأرض إلى تجلجل في طبقات الأرض. فالجملة معترضة والاستفهام إنكار وتوبيخ وتحذير.

﴿مَنْ﴾ اسم موصول وصلته صادق على موجود ذي إدراك كائن في السماء. وظاهر وقوع هذا الموصول عقب جمل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ إلى قوله: ﴿وَالِيَهُ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15] أن الإتيان بالموصول من قبيل الإظهار في مقام الإضمار، وأن مقتضى الظاهر أن يقال: أأمنتهموه أن يخسف بكم الأرض؛ فيتأتى أن الإتيان بالموصول لما تؤذن به الصلة من عظيم تصرفه في العالم العلوي الذي هو مصدر القوى والعناصر وعجائب الكائنات، فيصير قوله: ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ في الموضعين من قبيل المتشابه الذي يعطي ظاهره معنى الحلول في مكان وذلك لا يليق بالله، ويجيء فيه ما في أمثاله من طريقتي التفويض للسلف والتأويل للخلف رحمهم الله أجمعين.

وقد أولوه بمعنى: من في السماء عذابه أو قدرته أو سلطانه على نحو تأويل قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22] وأمثاله، وخص ذلك بالسماء لأن إثباته لله تعالى ينفيه عن أصنامهم.

ولكن هذا الموصول غير مكين في باب المتشابه لأنه مجمل قابل للتأويل بما يحتمله ﴿مَنْ﴾ أن يكون ماصدقه مخلوقات ذات إدراك مقرها السماء وهي الملائكة، فيصح أن تصدق ﴿مَنْ﴾ على طوائف من الملائكة الموكلين بالأمر التكويني في السماء والأرض، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْأَمْرَ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: 12]، ويصح أن يراد باسم الموصول ملك واحد معين وظيفته فعل هذا الخسف، فقد قيل: إن جبريل هو الملك الموكّل بالعذاب.

وإسناد فعل ﴿يَخْسِفُ﴾ إلى «الملائكة» أو إلى واحد منهم حقيقة لأنه فاعل الخسف قال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت: 31 - 34].

وإفراد ضمير ﴿يَخْسِفُ﴾ مراعاة للفظ ﴿مَنْ﴾ إذا أريد طائفة من الملائكة، أو مراعاة للفظ والمعنى إذا كان ماصدق ﴿مَنْ﴾ ملكاً واحداً.

والمعنى: توبيخهم على سوء معاملتهم ربهم كأنهم آمنون من أن يأمر الله ملائكته بأن يخسفوا الأرض بالمشرّكين.

والخسف: انقلاب ظاهر السطح من بعض الأرض باطناً وباطنه ظاهراً، وهو شدة الزلزال.

وفعل خسف يستعمل قاصراً ومتعدياً وهو من باب ضرب، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ [النحل: 45].

والباء في قوله: ﴿يَكُمُ﴾ للمصاحبة، أي: يخسف الأرض مصاحبة لذواتكم. وفي الجمع بين السماء والأرض محسن الطباق.

والمصدر المنسبك من ﴿أَنْ يَخْسِفَ﴾ يجوز أن يكون بدل اشتمال من اسم الموصول، لأن الخسف من شأن مَنْ في السماء، ويجوز أن يكون منصوباً على نزع الخافض وهو مَطْرَد مع «أَنْ»، والخافض المحذوف حرف «مِنْ».

وفرّع على الخسف المتوقع المهدد به أن تمور الأرض تفريع الأثر على المؤثر لأن الخسف يُحدث المَور، فإذا خسفت الأرض فاجأها المَور لا محالة، لكن نظم الكلام جرى على ما يناسبُ جعل التهديد بمنزلة حادث وقع، فلذلك جيء بعده بالحرف الدال على المفاجأة لأن حق المفاجأة أن تكون حاصلة زمن الحال لا الاستقبال كما في مغني اللبيب، فإذا أريد تحقيق حصول الفعل المستقبل نُزِلَ منزلة الواقع في الحال كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: 25]، وإذا أريد استحضار حالة فعل حصل فيما مضى نُزِلَ كذلك منزلة المشاهد في الحال كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِيْءَايَاتِنَا﴾ [يونس: 21]، فكان قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ مؤذناً بتشبيه حالة الخسف المتوقع المهدد به بحالة خسف حصل بجامع التحقق كما قالوا في التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وحُذِفَ المركب الدال على الحالة المشبه بها ورمز إليه بما هو من آثاره ويتفرع عنه، فكان في الكلام تمثيلية مكنية.

والمَور: الارتجاج والاضطراب، وتقدم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ في سورة الطور [9].

[17] ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [17].

﴿أَمْ﴾ لإضراب الانتقال من غرض إلى غرض، وهو انتقال من الاستفهام الإنكاري التعجيبى إلى آخر مثله باعتبار اختلاف الأثرين الصادرين عن مفعول الفعل المستفهم عنه اختلافاً يوجب تفاوتاً بين كنهى الفعلين وإن كانا متّحدين في الغاية، فالاستفهام الأول إنكار على أمنهم الذي في السماء من أن يفعل فعلاً أرضياً.

والاستفهام الواقع من ﴿أَمْ﴾ إنكار عليهم أن يأمنوا من أن يرسل عليهم من السماء

حاصب، وذلك أمكن لمن في السماء وأشد وقعاً على أهل الأرض. والكلام على قوله: ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ تقدم في الآية قبلها ما يغني عنه.

وتفريع جملة: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ على الاستفهام الإنكاري كتفريع جملة: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ [الملك: 16]، أي: فحين يُخسف بكم أو يرسل عليهم حاصب تعلمون كيف نذيري، وحرف التنفيس حقه الدخول على الأخبار التي ستقع في المستقبل، وإرسال الحاصب غير مخبر بحصوله وإلا لما تخلف لأن خبر الله لا يتخلف، وإنما هو تهديد وتحذير فإنهم ربما آمنوا وأقلعوا فسلموا من إرسال الحاصب عليهم، ولكن لما أريد تحقيق هذا التهديد شبه بالأمر الذي وقع فكان تفريع صيغة الإخبار على هذا مؤذناً بتشبيه المهدد به بالأمر الواقع على طريقة التمثيلية الممكنية، وجملة: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ قرينتها لأنها من روادف المشبه به كما تقدم.

و﴿كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ استفهام معلق فعل «تعلمون» عن العمل، وهو استفهام للتهديد والتهويل، والجملة مستأنفة.

وحذفت ياء المتكلم من ﴿نذيري﴾ تخفيفاً وللرعي على الفاصلة.

والنذير مصدر بمعنى الإنذار مثل النكير بمعنى الإنكار.

وقدم التهديد بالخسف على التهديد بالحاصب لأن الخسف من أحوال الأرض، والكلام على أحوالها أقرب هنا فسلك شبه طريق النشر المعكوس، ولأن إرسال الحاصب عليهم جزاء على كفرهم بنعمة الله التي منها رزقهم في الأرض المشار إليه بقوله: ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: 15]، فإن منشأ الأرزاق الأرضية من غيوث السماء، قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: 22].

[18] ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾.

بعد أن وجه الله إليهم الخطاب تذكيراً واستدلالاً وامتناناً وتهديداً وتهويلاً ابتداءً من قوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ [الملك: 13]، التفت عن خطابهم إلى الإخبار عنهم بحالة الغيبة، تعريضاً بالغضب عليهم بما أتوه من كل تكذيب الرسول ﷺ، فكانوا جديرين بإبعادهم عز الحضور للخطاب، فلذلك لم يقل: (ولقد كذب الذين من قبلكم) ولم يقطع توجيه التذكير إليهم والوعيد لعلهم يتدبرون في أن الله لم يذخرهم نصحاً.

فالجملة عطف على جملة: ﴿أَمْ آمَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك:

17] لمناسبة أن مما عوقب به بعض الأمم المكذبين من خسف أو إرسال حجارة من السماء وهم قوم لوط، ومنهم من خُسف بهم مثل أصحاب الرس.

ولك أن تجعل الواو للحال، أي: كيف تأمنون ذلك عندما تكذبون الرسول في حال أنه قد كذب الذين من قبلكم، فهل علمتم ما أصابهم على تكذيبهم الرسل.

ضرب الله لهم مثلاً بأمم من قبلهم كذبوا الرسل فأصابهم من الاستئصال ما قد علموا أخباره لعلهم أن يتعظوا بقياس التمثيل إن كانت عقولهم لم تبلغ درجة الانتفاع بأقيسة الاستنتاج، فإن المشركين من العرب عرفوا آثار عاد وثمود وتناقلوا أخبار قوم نوح وقوم لوط وأصحاب الرس، وفرّع ﴿كَفَّ كَانَ نَكِيرٌ﴾ استفهاماً تقريرياً وتنكيرياً وهو كناية عن تحقيق وقوعه وأنه وقع في حال فظاعة.

وقد أكد الخبر باللام و«قد» لتنزيل المعرّض بهم منزلة من يظن أن الله عاقب الذين من قبلهم لغير جرم أو لجرم غير التكذيب. فهو مفرّع على المؤكد، فالمعنى: لقد كذب الذين من قبلهم، ولقد كان نكيري عليهم بتلك الكيفية.

و﴿نَكِيرٌ﴾: أصله نكيري بالإضافة إلى ياء المتكلم المحذوفة تخفيفاً، كما في قوله: ﴿فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: 17]، والمعنى: كيف رأيتم أثر نكيري عليهم، فاعلموا أن نكيري عليكم صائر بكم إلى مثل ما صار بهم نكيري عليهم.

والمراد بالنكير المنظر بنكير الله على الذين من قبلهم، ما أفاده استفهام الإنكار في قوله: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ [الملك: 16]، وقوله: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: 17]

[19] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتٍ وَيَقِظْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾

عطف على جملة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ [الملك: 15] استرسالاً في الدلائل على انفراد الله تعالى بالتصرف في الموجودات، وقد انتقل من دلالة أحوال البشر وعالمهم، إلى دلالة أعجب أحوال العجماوات وهي أحوال الطير في نظام حركاتها في حال طيرانها إذ لا تمشي على الأرض كما هو في حركات غيرها على الأرض، فحالها أقوى دلالة على عجب صنع الله المنفرد به.

واشتمل التذكير بعجيب خلقه الطير في طيرانها على ضرب من الإطناب لأن الأوصاف الثلاثة المستفادة من قوله: ﴿فَوْقَهُمْ صَفَقَتٍ وَيَقِظْنَ﴾ تصوّر صورة حركات الطيران للسامعين فتنبههم لدقائق ربما أغفلهم عن تدقيق النظر فيها نشأتهم بينها من وقت ذهول الإدراك في زمن الصبا، فإن المرء التونسي أو المغربي مثلاً إذا سافر إلى بلاد الهند أو إلى بلاد السودان فرأى الفيلة وهو مكتمل العقل دقيق التمييز أدرك من دقائق

خلقة الفيل ما لا يدركه الرجل من أهل الهند الناشئ بين الفيلة، وكم غفل الناس عن دقائق في المخلوقات من الحيوان والجماد ما لو تتبعوه لتجلى لهم منها ما يملأ وصفه الصحف، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: 17 - 20]، وقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: 21].

وقد رأيت بعض من شاهد البحر وهو كبير، ولم يكن شاهده من قبل، كيف امتلكه من العجب ما ليس لأحد ممن ألفوه معشاره.

وهذا الإطناب في هذه السورة مخالف لما في نظير هذه الآية من سورة النحل [79] في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾. وذلك بحسب ما اقتضاه اختلاف المقامين، فسورة النحل رابعة قبل سورة الملك، فلما أوقظت عقولهم فيها للنظر إلى ما في خلقه الطير من الدلائل فلم يتفطنوا وسلك في هذه السورة مسلك الإطناب بزيادة ذكر أوصاف ثلاثة:

فالوصف الأول: ما أفاده قوله: ﴿فَوَقَّهْمُ﴾، فإن جميع الدواب تمشي على الأرض والطير كذلك، فإذا طار الطائر انتقل إلى حالة عجيبة مخالفة لبقية المخلوقات وهي السير في الجو بواسطة تحريك جناحيه، وذلك سر قوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38] بعد قوله: ﴿وَلَا ظَنَرُ﴾ في سورة الأنعام [38] لقصد تصوير تلك الحالة.

الوصف الثاني: ﴿صَفَّنَتْ﴾ وهو وصف بوزن اسم الفاعل مشتق من الصف، وهو كون أشياء متعددة متقاربة الأمكنة وباستواء، وهو قاصر ومتعدّد، يقال: صَفُّوا بمعنى اصطفوا كما حكى الله عن الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الصفافات: 165]، وقال تعالى في البُدن: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ [الحج: 36]. ويقال: صفهم إذا جعلهم مستوين في الموقف، وفي حديث ابن عباس في الجنائز: «مرّ رسول الله ﷺ بقبر منبوذ... إلى قوله: فصَفَّنَا خلفه وكبّر».

والمراد هنا أن الطير صافّة أجنتها فحذف المفعول لعلمه من الوصف الجاري على الطير إذ لا تجعل الطير أشياء مصفوفة إلا ريش أجنتها عند الطيران، فالطائر إذا طار بسط جناحيه، أي: مدها فصاف ريش الجناح، فإذا تمدد الجناح ظهر ريشه مصطفاً فكان ذلك الاصطفاف من أثر فعل الطير فوصفت به، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَفَّنَتْ﴾ في سورة النور [41]. وبسط الجناحين يُمكن الطائر من الطيران فهو كمدّ اليدين للسباح في الماء.

الوصف الثالث: ﴿وَيَقْضِضْنَ﴾ وهو عطف على ﴿صَفَّنَتْ﴾ من عطف الفعل على

الاسم الشبيه بالفعل في الاشتقاق وإفادة الاتصاف بحدوث المصدر في فاعله، فلم يفت بعطفه تماثل المعطوفين في الاسمية والفعلية الذي هو من محسنات الوصل.

والقبض: ضد البسط. والمراد به هنا ضد الصف المذكور قبله، إذ كان ذلك الصف صادقاً على معنى البسط ومفعوله المحذوف هنا هو عين المحذوف في المعطوف عليه، أي: قابضات أجنحتهن حين يديننها من جنوبهن للازدياد من تحريك الهواء للاستمرار في الطيران.

وأوثر الفعل المضارع في (يقبضن) لاستحضار تلك الحالة العجيبة وهي حالة عكس بسط الجناحين، إذ بذلك العكس يزداد الطيران قوة امتداد زمان.

وجيء في وصف الطير بـ ﴿صَفَّتْ﴾ بصيغة الاسم لأن الصف هو أكثر أحوالها عند الطيران فناسبه الاسم الدال على الثبات، وجيء في وصفهن بالقبض بصيغة المضارع لدلالة الفعل على التجدد، أي: ويجددن القبض أجنحتهن في خلال الطيران للاستعانة بقبض الأجنحة على زيادة التحرك عندما يحسسن بتغلب جاذبية الأرض على حركات الطيران، ونظيره قوله تعالى في الجبال والطير: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝ ١٨﴾ وَالطَّيْرَ مُحْشُورَةً [ص: 18 - 19] لأن التسيب في وقتين والطير محشورة دوماً.

وانتصب ﴿فَوَهَّهٗ﴾ على الحال من ﴿الطَّيْرِ﴾ وكذلك انتصب ﴿صَفَّتْ﴾.

وجملة: ﴿وَقَبِضْنَ﴾ في موضع نصب على الحال لعطفها على الوصف الذي هو حال، فالرؤية بصرية مضمَّنة معنى النظر، ولذلك عُذِّيت إلى المرئي بـ «إلى». والاستفهام في ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ إنكاري، نزلوا منزلة من لم ير هاته الأحوال في الطير لأنهم لم يعتبروا بها ولم يهتدوا إلى دلالتها على انفراد خالقها بالإلهية.

وجملة: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ مبيَّنة لجملة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ وما فيها من استفهام إنكار، أي: كان حقهم أن يعلموا أنهم ما يمسكهن إلا الرحمن إذ لا ممسك لها ترونها، كقوله تعالى: ﴿وَيُؤَمِّسُكَ أَلَسَمَّا أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ [الحج: 65].

وفي هذا إيماء إلى أن الذي أمسك الطير عن الهوي المفضي إلى الهلاك هو الذي أهلك الأمم الذين من قبل هؤلاء، فلو لم يشركوا به ولو استعصموا بطاعته لأنجاهم من الهلاك كما أنجى الطير من الهوي.

ومعنى إمساك الله إياها: حفظها من السقوط على الأرض بما أودع في خلقها من الخصائص في خفة عظامها وقوة حركة الجوانح وما جعل لهن من القوادم، وهي ريشات عشر هي مقادير ريش الجناح، وفي الخوافي وهي ما دونها من الجناح إلى منتهى ريشه،

وما خلقه من شكل أجسادها المُعين على نفوذها في الهواء، فإن ذلك كله بخلق الله إياها مانعاً لها من السقوط، وليس ذلك بمعاليق يعلقها بها أحد كما يعلق المشعوذ بعض الصور بخيوط دقيقة لا تبدو للناظرين.

وإِثَار اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ هنا دون الاسم العَلَم بخلاف ما في سورة النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ لعله للوجه الذي ذكرناه آنفاً في خطابهم بطريقة الإطناب من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِتٍ﴾ الآية.

فمن جملة عنادهم إنكارهم اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾، فلما لم يرفعوا عما هم عليه ذكر وصف «الرحمان» في هذه السورة أربع مرات.

وجملة: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ تعليل لمضمون: ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾، أي: أمسكهن الرحمن لعموم علمه وحكمته، ولا يمسكهن غيره لقصور علمهم أو انتفائه.

والبصير: العليم، مشتق من البصيرة، فهو هنا غير الوصف الذي هو من الأسماء الحسنى في نحو: السميع البصير، وإنما هو هنا من باب قولهم: فلان بصير بالأمر. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: 44]، فهو خبر لا وصف ولا مُنْزَل منزلة الاسم. وتقديم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ على متعلقه لإفادة القصر الإضافي وهو قصر قلب رداً على من يزعمون أنه لا يعلم كل شيء كالذين قيل لهم: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ [الملك: 13].

[20] ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَونَ إِلَّا فِي

عُرُورٍ ۝۲۰﴾

«أم» منقطعة وهي للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض، فبعد استيفاء غرض إثبات الإلهية الحق لله تعالى بالوحدانية وتذكيرهم بأنهم مفتقرون إليه، انتقل إلى إبطال أن يكون أحد يدفع عنهم العذاب الذي توعدهم الله به فوجه إليهم استفهام أن يدلّوا على أحد من أصنامهم أو غيرها يقال فيه: هذا هو الذي ينصر من دون الله، فإنهم غير مستطيعين تعيين أحد لذلك إلا إذا سلكوا طريق البهتان وما هم بسالكيه في مثل هذا لافتضاح أمره.

وهذا الكلام ناشئ عن قوله: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: 16] الآية، فهو مثله معترض بين حجج الاستدلال.

و«أم» المنقطعة لا يفارقها معنى الاستفهام، والأكثر أن يكون مقدراً، فإذا صرّح به

كما هنا فأوضح ولا يتوهم أن الاستفهام يقدر بعدها ولو كان يليها استفهام مصرح به فيشكل اجتماع استفهامين.

والاستفهام مستعمل في التعجيز عن التعيين فيؤول إلى الانتفاء، والإشارة مشار بها إلى مفهوم ﴿جُنْدٌ﴾ مفروض في الأذهان استُحضر للمخاطبين، فجعل كأنه حاضر في الخارج يشاهده المخاطبون، فيطلب المتكلم منهم تعيين قبيله بأن يقولوا بنو فلان. ولما كان الاستفهام مستعملاً في التعجيز استلزم ذلك أن هذا الجند المفروض غير كائن.

وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255]

ونحوه.

و«من» في موضع مبتدأ واسم الإشارة خبر عن المبتدأ.

وكتب في المصحف ﴿أَمَّنْ﴾ بميم واحدة بعد الهمزة وهما ميم «أم» وميم «من» المدغمتين بجعلهما كالكلمة الواحدة كما كُتِبَ ﴿عَمَّ يَسَاءَلُونَ﴾ [النبا: 1] بميم واحدة بعد العين، ولا تقرأ إلا بميم مشددة إذ المُعْتَبَر في قراءة القرآن الرواية دون الكتابة، وإنما يكتب القرآن للإعانة على مراجعته.

و﴿الَّذِي هُوَ جُنْدٌ﴾ صفة لاسم الإشارة، و﴿لَكُمْ﴾ صفة لـ ﴿جُنْدٌ﴾ و﴿يَنْصُرُكُمْ﴾ جملة في موضع الحال من ﴿جُنْدٌ﴾ أو صفة ثانية لـ ﴿جُنْدٌ﴾.

ويجوز أن يكون اسم الإشارة مشاراً به إلى جماعة الأصنام المعروفة عندهم الموضوع في الكعبة وحولها الذي اتخذتموه جنداً، فمن هو حتى ينصركم من دون الله.

فتكون «من» استفهامية مستعملة في التحقير مثل قوله: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان: 31]

في قراءة فتح ميم «مَنْ» ورفع فرعون، أي: من هذا الجند فإنه أحقر من أن يعرف، واسم الإشارة صفة لاسم الاستفهام مبينة له، و﴿الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾ صفة لاسم الإشارة. وجملة ﴿يَنْصُرُكُمْ﴾ خبر عن اسم الاستفهام، أي: هو أقل من أن ينصركم من دون الرحمن.

وجيء بالجملة الاسمية ﴿الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾ لدلالاتها على الدوام والثبوت، لأن الجند يكون على استعداد للنصر إذا دُعي إليه سواء قاتل أم لم يقاتل، لأن النصر يحتاج إلى استعداد وتهيؤ كما قال النبي ﷺ: «خير الناس رجلٌ مُمسك بعنان فرسه كلما سمع هيلة طار إليها» أي: هيلة جهاد.

فالمعنى: ينصركم عند احتياجكم إلى نصره، فهذا وجه الجمع بين جملة: ﴿هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾، وجملة: ﴿يَنْصُرُكُمْ﴾ ولم يُستغن بالثانية عن الأولى.

و﴿دُون﴾ أصله ظرف للمكان الأسفل ضد (فوق)، ويطلق على المغاير فيكون بمعنى (غير) على طريقة المجاز المرسل.

فقوله: ﴿مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً مستقراً في موضع الحال من الضمير المستتر في ﴿يَضْرُكُ﴾. أي: حالة كون الناصر من جانب غير جانب الله، أي: مَنْ مستطيع غير الله يدفع عنكم السوء على نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ [الأنبياء: 43]، فتكون ﴿مِنْ﴾ زائدة مؤكدة للظرف، وهي تزداد مع الظروف غير المتصرفة، ولا تجر تلك الظروف بغير ﴿مِنْ﴾، قال الحريري في المقامة الرابعة والعشرين: «وما منصوب على الظرف لا يخفضه سوى حرف»، وفسره بظرف (عند) ولا خصوصية لـ(عند) بل ذلك في جميع الظروف غير المتصرفة.

وتكرير وصف ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عقب الآية السابقة للوجه الذي ذكرنا في إثارة هذا الوصف في الآية السابقة.

وذيل هذا الاعتراض بقوله: ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾، أي: ذلك شأن الكافرين كلهم وهم أهل الشرك من المخاطبين وغيرهم، أي: في غرور من الغفلة عن توقع بأس الله تعالى، أو في غرور من اعتمادهم على الأصنام، فكما غر الأمم السالفة دينهم بأن الأوثان تنفعهم وتدفع عنهم العذاب فلم يجدوا ذلك منهم وقت الحاجة، فكذلك سيقع لأمثالهم، قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ أَهْمَلْنَا﴾ [محمد: 10]، وقال: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ [القمر: 43].

فتعريف ﴿الْكَافِرُونَ﴾ للاستغراق، وليس المراد به كافرون معهودون حتى يكون من وضع المظهر موضع الضمير.

والغرور: ظن النفس وقوع أمر نافع لها بمخائل تتوهمها، وهو بخلاف ذلك أو هو غير واقع.

وتقدم في قوله تعالى: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ (196) في آخر سورة آل عمران [196]، وقوله: ﴿يُوجِصُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ في سورة الأنعام [112]، وقوله: ﴿فَلَا تَغْرِكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ في سورة فاطر [5].

والظرفية مجازية مستعملة في شدة التلبس بالغرور حتى كأن الغرور محيط بهم إحاطة الظرف.

والمعنى: ما الكافرون في حال من الأحوال إلا في حال الغرور، وهذا قصر إضافي لقلب اعتقادهم أنهم في مأمن من الكوارث بحماية آلهتهم.

[21] ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾.

انتقال آخر والكلام على أسلوب قوله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ﴾ [الملك: 20]، وهذا الكلام ناظر إلى قوله: ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: 15] على طريقة اللف والنشر المعكوس.

والرزق: ما ينتفع به الناس، ويطلق على المطر، وعلى الطعام، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: 37].

وضمير ﴿أَمْسَكَ﴾ وضمير ﴿رِزْقَهُ﴾ عائدان إلى لفظ: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الواقع في قوله: ﴿مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: 20].

وجيء بالصلة فعلاً مضارعاً لدلالته على التجدد لأن الرزق يقتضي التكرار إذ حاجة البشر إليه مستمرة. وكتب ﴿أَمَّنْ﴾ في المصحف بصورة كلمة واحدة كما كتبت نظيرتها المتقدمة آنفاً.

[21] ﴿بَلْ لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

استئناف بياني وقع جواباً عن سؤال ناشئ عن الدلائل والقوارع والزواجر والعظات والعبر المتقدمة ابتداء من قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: 2] إلى هنا، فيتجه للسائل أن يقول: لعلهم نفعت عندهم الآيات والنذر، واعتبروا بالآيات والعبر، فأجيب بإبطال ظنه بأنهم لجؤا في عتو ونفور.

و﴿بَلْ﴾ للاضطراب أو الإبطال عما تضمنته الاستفهامان السابقان، أو للانتقال من غرض التعجيز إلى الإخبار عن عنادهم.

يقال: لجَّ في الخصومة من باب سمع، أي: اشتد في النزاع والخصام، أي: استمروا على العناد يكتنفهم العتو والنفور، أي: لا يترك مخلصاً للحق إليهم، فالظرفية مجازية، والعتو: التكبر والطغيان.

والنفور: هو الاشمئزاز من الشيء والهروب منه.

والمعنى: اشتدوا في الخصام متلبس بالكبر عن اتباع الرسول حرصاً على بقاء سيادتهم وبالنفور عن الحق لكرهية ما يخالف أهواءهم وما ألفوه من الباطل.

[22] ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

هذا مثل ضربه الله للكافرين والمؤمنين أو لرجلين: كافر ومؤمن، لأنه جاء مفرعاً على قوله: ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: 20]، وقوله: ﴿بَلْ لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: 21] وما اتصل ذلك به من الكلام الذي سيق مساق الحجة عليهم بقوله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ

لَكُمْ ﴿[الملك: 20]، ﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَزُفُّكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: 21]، وذلك مما اتفق عليه المفسرون على اختلاف مناحيهم ولكن لم يعرج أحد منهم على بيان كيف يتعين التمثيل الأول للكافرين والثاني للمؤمنين حتى يظهر وجه إلزام الله المشركين بأنهم أهل المثل الأول مثل السوء، فإذا لم يتعين ذلك من الهيئة المشبهة لم يتضح إلزام المشركين بأن حالهم حال التمثيل الأول، فيخال كل من الفريقين أن خصمه هو مضرب المثل السوء.

ويتوهم أن الكلام ورد على طريقة الكلام المنصف نحو: ﴿وَلِئَا أَوْ يَتَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 24] بذلك ينبو عنه المقام هنا لأن الكلام هنا وارد في مقام المحاجة والاستدلال، وهنالك في مقام المتاركة أو الاستنزال.

والذي انقذ لي: أن التمثيل جرى على تشبيه حال الكافر والمؤمن بحالة مشي إنسان مختلفة وعلى تشبيه الدين بالطريق المسلوكة كما يقتضيه قوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (4)، فلا بد من اعتبار مشي المُكِب على وجهه مشياً على صراط مُعْجٍ، وتعيّن أن يكون في قوله: ﴿مُكِبًا عَلَى وَجْهِهِ﴾ استعارة أخرى بتشبيه حال السالك صراطاً معوجاً في تأمله وترسمه آثار السير في الطريق غير المستقيم خشية أن يضل فيه، بحال المُكِب على وجهه يتوسم حال الطريق، وقرينة ذلك مقابلته بقوله: ﴿سَوِيًّا﴾ المشعر بأن ﴿مُكِبًا﴾ أطلق على غير السوي وهو المنحني المطأطى يتوسم الآثار اللائحة من آثار السائرين لعله يعرف الطريق الموصلة إلى المقصود.

فالمشرك يتوجه بعبادته إلى آلهة كثيرة لا يدري لعل بعضها أقوى من بعض، وأعطف على بعض القبائل من بعض، فقد كانت ثقيف يعبدون اللات، وكان الأوس والخزرج يعبدون مناة، ولكل قبيلة إله أو آلهة فتقسموا الحاجات عندها واستنصر كل قوم بآلهتهم وطمعوا في غنائها عنهم، وهذه حالة يعرفونها فلا يمترون في أنهم مضرب المثل الأول، وكذلك حال أهل الإشراك في كل زمان.

ألا تسمع ما حكاه الله عن يوسف عليه السلام من قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39].

وينور هذا التفسير أنه يفسره قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153]، وقوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (108) [يوسف: 108]، فقابل في الآية الأولى الصراط المستقيم المشبه به الإسلام بالسُّبُل المتفرقة المشبه بها تعداد الأصنام، وجعل في الآية الثانية الإسلام مشبهاً بالسبيل وسالكة يدعو ببصيرة ثم قابل بينه وبين المشركين بقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108].

فالأية تشتمل على ثلاث استعارات تمثيلية، فقوله: ﴿يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ تشبيه لحال المشرك في تقسُّم أمره بين الآلهة طلباً للذي ينفعه منها الشاك في انتفاعه بها، بحال السائر قاصداً أرضاً معينة ليست لها طريق جادة فهو يتتبع بَنِيَّات الطريق الملتوية وتلتبس عليه ولا يوقن بالطريقة التي تبلغ إلى مقصده فيبقى حائراً متوسماً يتعرف آثار أقدام الناس وأخفاف الإبل فيعلم بها أن الطريق مسلوكة أو متروكة.

وفي ضمن هذه التمثيلية تمثيلية أخرى مبنية عليه بقوله: ﴿مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ بتشبيه حال المتحير المتطلب للآثار في الأرض بحال المكب على وجهه في شدة اقترابه من الأرض.

وقوله: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ تشبيه لحال الذي آمن برَّب واحد الواثق بنصر ربه وتأنيده وبأنه مصادف للحق، بحال الماشي في طريق جادة واضحة لا ينظر إلا إلى اتجاه وجهه فهو مستو في سيره.

وقد حصل في الآية إيجاز حذف إذ استغني عن وصف الطريق بالالتواء في التمثيل الأول لدلالة مقابله بالاستقامة في التمثيل الثاني.

والفاء التي في صدر الجملة للتفريع على جميع ما تقدم من الدلائل والعبر من أول السورة إلى هنا، والاستفهام تقرير.

والمُكِب: اسم فاعل من أكب، إذا صار ذا كَبٍّ، فالهمزة فيه أصلها لإفادة المصير في الشيء مثل همزة: أقشع السحاب، إذا دخل في حالة القشع، ومنه قولهم: أنفض القوم إذا هلكت مواشيهم، وأرملوا إذا فني زادهم، وهي أفعال قليلة فيما جاء فيه المجرد متعدياً والمهموز قاصراً.

و﴿أَهْدَى﴾ مشتق من الهدى، وهو معرفة الطريق، وهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة لأن الذي يمشي مكباً على وجهه لا شيء عنده من الاهتداء فهو من باب قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ الْمَسِيحُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: 33] في قول كثير من الأئمة. ومثل هذا لا يخلو من تهكم أو تمليح بحسب المقام.

والسوي: الشديد الاستواء، فعيل بمعنى فاعل، قال تعالى: ﴿أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 43]. و«أم» في قوله: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ حرف عطف وهي «أم» المعادلة لهمزة الاستفهام. و«من» الأولى والثانية في قوله: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي مُكِبًّا﴾ أو قوله: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ موصولتان ومحملهما أن المراد منهما فريق المؤمنين وفريق المشركين وقيل: أريد شخص معين، أريد بالأولى أبو جهل، وبالثانية النبي ﷺ وأبو بكر أو حمزة رضي الله عنهما.

[23] ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

هذا انتقال من توجيه الله تعالى الخطاب إلى المشركين للتبصير بالحجج والدلائل وما تخلل ذلك من الوعيد أو التهديد إلى خطابهم على لسان رسوله ﷺ بأن يقول لهم ما سيذكر تفنناً في البيان وتنشيطاً للأذهان حتى كأن الكلام صدر من قائلين وترفعاً لقدر نبيّه ﷺ بإعطائه حظاً من التذكير معه كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [الدخان: 58].

والانتقال هنا إلى الاستدلال بفروع المخلوقات بعد الاستدلال بأصولها، ومن الاستدلال بفروع أعراض الإنسان بعد أصلها، فمن الاستدلال بخلق السماوات والأرض والموت والحياة، إلى الاستدلال بخلق الإنسان ومداركه، وقد أتبع الأمر بالقول بخمسة مثله بطريقة التكرير بدون عاطف اهتماماً بما بعد كل أمر من مقالة يبلّغها إليهم الرسول ﷺ، قال: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ... إلخ. والضمير ﴿هُوَ﴾ إلى الرحمان من قوله: ﴿مَنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: 20]. والإنشاء: الإيجاد.

وإفراد ﴿السَّمْعَ﴾ لأن أصله مصدر، أي: جعل لكم حاسة السمع، وأما ﴿الْأَبْصَرَ﴾ فهو جمع البصر بمعنى العين، وقد تقدم وجه ذلك عند قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً﴾ في سورة البقرة [7]. و﴿الْأَفْئِدَةَ﴾ القلوب، والمراد بها العقول، وهو إطلاق شائع في استعمال العرب.

والقصر المستفاد من تعريف المسند إليه والمسند في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ إلى آخره قصر أفراد بتنزيل المخاطبين لشركهم منزلة من يعتقد أن الأصنام شاركت الله في الإنشاء وإعطاء الإحساس والإدراك.

و﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ حال من ضمير المخاطبين، أي: أنعم عليكم بهذه النعم في حال إهمالكم شكرها.

و﴿مَّا﴾ مصدرية والمصدر المنسبك في موضع فاعل ﴿قَلِيلًا﴾ لاعتماد ﴿قَلِيلًا﴾ على صاحب حال. و﴿قَلِيلًا﴾ صفة مشبهة.

وقد استعمل ﴿قَلِيلًا﴾ في معنى النفي والعدم. وهذا الإطلاق من ضروب الكناية والاقتصاد في الحكم على طريقة التلميح، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في البقرة [88]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في النساء [46]، وتقول العرب: هذه أرض قلما تُنبِت.

[24] ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [24]

إعادة فعل ﴿قُلْ﴾ من قبيل التكرير المُشعر بالاهتمام بالغرض المسوقة فيه تلك الأقوال.

والذرة: الإكثار من الوجود، فهذا أخص من قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ [الملك: 23]، أي: هو الذي كثركم على الأرض كقوله: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]، أي: أعمركم إياها.

والقول في صيغة القصر في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ مثل القول في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ [الملك: 23] الآية.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: بعد أن أكثركم في الأرض فهو يزيلكم بموت الأجيال، فكُنِّي عن الموت بالحشر لأنهم قد علموا أن الحشر الذي أُندروا به لا يكون إلا بعد البعث والبعث بعد الموت، فالكناية عن الموت بالحشر بمرتبين من الملازمة، وقد أدمج في ذلك تذكيرهم بالموت الذي قد علموا أنه لا بد منه، وإنذارهم بالبعث والحشر.

فتقديم المعمول في ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للاهتمام والرعاية على الفاصلة، وليس للاختصاص لأنهم لم يكونوا يدعون الحشر أصلاً فضلاً عن أن يدعوه لغير الله.

[25، 26] ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [25] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [26].

لما لم تكن لهم معارضة للحجة التي في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الملك: 23، 24] انحصر عنادهم في مضمون قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: 24] فإنهم قد جحدوا البعث وأعلنوا بجحده وتعجبوا من إنذار القرآن، وقال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّنْكُمْ إِنِّكُمْ لَمَّا خُلِقْتُمْ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: 7، 8]، وكانوا يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ: 29] واستمروا على قوله، فلذلك حكاها الله عنهم بصيغة المضارع المقتضية للتكرير.

و﴿الْوَعْدُ﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: متى هذا الوعد، فيجوز أن يراد به الحشر المستفاد من قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: 24]، فالإشارة إليه بقوله: ﴿هَذَا﴾ ظاهرة، ويجوز أن يراد به وعد آخر بنصر المسلمين، فالإشارة إلى وعيد سمعوه.

والاستفهام بقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ مستعمل في التهكم لأن من عادتهم أن

يستهزئوا بذلك، قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يَعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ [الإسراء: 51].

وأتوا بلفظ: ﴿الْوَعْدُ﴾ استنجازاً له لأن شأن الوعد الوفاء.

وضمير الخطاب في ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ للنبي ﷺ والمسلمين لأنهم يلهجون بإنذارهم بيوم الحشر، وتقدم نظيره في سورة سبأ.

وأمر الله رسوله بأن يجيب سؤالهم بجملة على خلاف مرادهم بل على ظاهر الاستفهام عن وقت الوعد على طريقة الأسلوب الحكيم، بأن وقت هذا الوعد لا يعلمه إلا الله، فقلوه: ﴿قُلْ﴾ هنا أمر بقول يختص بجواب كلامهم، وفُصِّل دون عطف بجريان المقول في سياق المحاوراة، ولم يعطف فعل ﴿قُلْ﴾ بالفاء جرياً على سنن أمثاله الواقعة في المجاورة والمحاوراة، كما تقدم في نظائره الكثيرة، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ في سورة البقرة [30].

ولام التعريف في ﴿الْعَالَمُ﴾ للعهد، أي: العلم بوقت هذا الوعد. وهذه هي اللام التي تسمى عوضاً عن المضاف إليه. وهذا قصر حقيقي.

﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ قصر إضافي، أي: ما أنا إلا نذير بوقوع هذا الوعد لا أتجاوز ذلك إلى كوني عالماً بوقته.

والمبين: اسم فاعل من أبان المتعدي، أي: مبين لما أمرت بتبليغه.

[27] ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ

نَدَّعُونَ﴾ ﴿27﴾.

«لما» حرف توقيت، أي: سيئت وجوههم في وقت رؤيتهم الوعد.

والفاء فصيحة لأنها اقتضت جملة محذوفة تقديرها: فحل بهم الوعد فلما رأوه...

إلخ، أي: رأوا الموعد به.

وفعل ﴿رَأَوْهُ﴾ مستعمل في المستقبل، وجيء به بصيغة الماضي لشبهه بالماضي في تحقق الوقوع مثل ﴿إِنَّمَا أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: 1]، لأنه صادر عمن لا إخال في أخباره، فإن هذا الوعد لم يكن قد حصل حين نزول الآية بمكة سواء أريد بالوعد بالبعث كما هو مقتضى السياق، أم أريد به وعد النصر، بقرينة قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ [الملك: 25] فإنه يقتضي أنهم يقولونه في الحال وأن الوعد غير حاصل حين قولهم لأنهم يسألون عنه بـ ﴿مَتَى﴾.

ونظير هذا الاستعمال قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (41) في سورة النساء [41]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ في سورة النحل [89]، إذ جمع في الآيتين بين فعل ﴿نَبْعَثُ﴾ مضارعاً وفعل ﴿وَجِئْنَا﴾ ماضياً.

وأصل المعنى: فإذا يروونه تساء وجوه الذين كفروا... إلخ، فعدل عن ذلك إلى صوغ الوعيد في صورة الإخبار عن أمر وقع فجيء بالأفعال الماضية.

وضمير ﴿رَأَوْهُ﴾ عائد إلى ﴿الْوَعْدُ﴾ بمعنى: رأوا الموعد به.

والزُّلْفَةُ بضم الزاي: اسم مصدر زلف إذا قرب، وهو من باب تعب. وهذا إخبار بالمصدر للمبالغة، أي: رأوه شديد القرب منهم، أي: أخذ ينالهم.

و﴿سَيِّئٌ﴾ بُني للنائب، أي: ساء وجوههم ذلك الوعد بمعنى الموعد. وأسند حصول السوء إلى الوجوه لتضمينه معنى كلحت، أي: لأنه سوء شديد تظهر آثار الانفعال منه على الوجوه، كما أسند الخوف إلى الأعين في قول الأعشى:

وأقدم إذا ما أعين الناس تَفَرَّقُ

﴿وَقِيلَ﴾ أي: لهم.

و﴿تَدْعُونَ﴾ بتشديد الدال مضارع أدعى. وقد حُذف مفعوله لظهوره من قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (25) [الملك: 25]، أي: تدعون أنه لا يكون.

و﴿بِهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَدْعُونَ﴾ لأنه ضَمَّنَ معنى (تكذبون) فإنه إذا ضَمَّنَ عاملٌ معنى عاملٍ آخر يُحذف معمول العامل المذكور ويذكر معمول ضمنه ليدل المذكور على المحذوف. وذلك ضرب من الإيجاز.

وتقديم المجرور على العامل للاهتمام بإخطاره وللرعاية على الفاصلة. والقائل لهم: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ ملائكة المحشر أو خزنة جهنم، فعدل عن تعيين القائل، إذ المقصود المقول دون القائل فحذف القائل من الإيجاز.

والقصر المستفاد من تعريف جزأي الإسناد تعريض بهم بأنهم من شدة جحودهم بمنزلة من إذا رأوا الوعد حسبوه شيئاً آخر على نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرُنَا﴾ [الأحقاف: 24].

وقرأ الجمهور: ﴿سَيِّئٌ﴾ بكسرة السين خالصة. وقرأ ابن عامر والكسائي ونافع بإشمام الكسرة ضمة، وهما لغتان في فاء كل ثلاثي معتل العين إذا بني للمجهول.

وقرأ الجمهور: ﴿نَدْعُوتُ﴾ بفتح الدال المشددة. وقرأه يعقوب بسكون الدال من الدعاء، أي: الذي كنتم تدعون الله أن يصيبكم به تهكماً وعناداً كما قالوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ إِثْنَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32].

[28] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُحْيِي الْكَافِرِينَ مَنْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (28).

هذا تكرير ثان لفعل ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ [الملك: 23].

كان من بذاة المشركين أن يجهروا بتمني هلاك رسول الله ﷺ وهلاك من معه من المسلمين، وقد حكى القرآن عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرَّيْصُ بِهِ رَبِّهِمْ أَلْمُؤِنُونَ﴾ (30) [الطور: 30]، وحكى عن بعضهم: ﴿وَيَبْرَيْصُ يُكْرِ الدَّوَابَّ﴾ [التوبة: 98]، وكانوا يتآمرون على قتله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ [الأنفال: 30] فأمره الله بأن يعرفهم حقيقة تدحض أمانيتهم، وهي أن موت أحد أو حياته لا يغني عن غيره ما جرّه إليه عمله، وقد جرّت إليهم أعمالهم غضب الله ووعيدة فهو نائلهم حيي الرسول ﷺ أو بادره المنون، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ (41) أو نُرَيْتَكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ (42) [الزخرف: 41 - 42]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشِّرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (34) [الأنبياء: 34]، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (30) [الزمر: 30] أي: المشركين، وقد تكرر هذا المعنى وما يقاربه في القرآن وينسب إلى الشافعي:

تمنئى رجالاً أن أموت فإن أمُت فتلک سبیل لست فیها بأوحد

فقد يكون نزول هذه الآيات السابقة صادف مقالة من مقالاتهم هذه فنزلت الآية في أثنائها، وقد يكون نزولها لمناسبة حكاية قولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ [الملك: 25] بأن قارنه كلام بذيء، مثل أن يقولوا: أبعد هلاكك يأتي الوعد.

والإهلاك: الإماتة، ومقابلة ﴿أَهْلَكْنِي﴾ بـ ﴿رَحِمْنَا﴾ يدل على أن المراد: أو رحمنا بالحياة، فيفيد أن الحياة رحمة، وأن تأخير الأجل من النعم، وإنما لم يؤخر الله أجل نبيه ﷺ مع أنه أشرف الرسل لحكم أرادها كما دل عليه قوله: «حياتي خير لكم وموتي خير لكم».

ولعل حكمة ذلك أن الله أكمل الدين الذي أراد إبلاغه فكان إكماله يوم الحج الأكبر من سنة ثلاث وعشرين من البعثة، وكان استمرار نزول الوحي على النبي ﷺ خِصِيصَةً خَصَّهُ اللهُ بها من بين الأنبياء، فلما أتم الله دينه رباً برسوله ﷺ أن يبقى غير متصل بنزول الوحي فنقله الله إلى الاتصال بالرفيق الأعلى مباشرة بلا واسطة، وقد

أشارت إلى هذا سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ من قوله: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ٢ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: 2، 3]، ولله در عبد بني الحسحاس في عبرته بقوله:

رَأَيْتَ الْمَنِيَا لَمْ يَدْعَنَّ مُحَمَّدًا وَلَا بَاقِيًا إِلَّا لَهُ الْمَوْتُ مُرْصَدًا
وقد عوّضه الله تعالى بحياة أعلى وأجل، إذ قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ٤ [الشرح: 4]، وبالحياة الأبدية العاجلة وهي أنه يردّ عليه روحه الزكية كلما سلم عليه أحد فيرد عليه السلام كما ثبت بالحديث الصحيح.

وإنما سمّى الحياة رحمة له ولمن معه، لأن في حياته نعمة له وللناس ما دام الله مقدرًا حياته، وحياة المؤمن رحمة لأنه تكثر له فيها بركة الإيمان والأعمال الصالحة.

والاستفهام في ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ إنكاري، أنكر اندفاعهم إلى أمنيات ورغائب لا يجتنون منها نفعاً ولكنها مما تمليه عليهم النفوس الخبيثة من الحقد والحسد.

والرؤيا علمية، وفعلها معلق عن العمل فلذلك لم يرد بعده مفعولاه، وهو معلق بالاستفهام الذي في جملة جواب الشرط، فتقدير الكلام: أرايتم أنفسكم ناجين من عذاب أليم إن هلكت وهلك من معي، فهاكنا لا يدفع عنكم العذاب المُعد للكافرين. وأقحم الشرط بين فعل الرؤيا وما سد مسد مفعوليه.

والفاء في قوله: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ﴾ [الملك: 30] رابطة الجواب الشرط لأنه لما وقع بعد ما أصله المبتدأ والخبر وهو المفعولان المقدّران رُجِحَ جانب الشرط.

والمعية في قوله: ﴿وَمَنْ مَعِيَ﴾ معية مجازية، وهي الموافقة والمشاركة في الاعتقاد والدين، كما في قوله تعالى: ﴿يُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: 29] الآية، أي: الذين آمنوا معه، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: 8]، كما أطلقت الموافقة على الرأي والفهم في قول أبي هريرة: «أنا مع ابن أخي» يعني موافق لأبي سلمة بن عبد الرحمن، وذلك حين اختلف أبو سلمة وابن عباس في المتوفى عنها الحامل إذا وضعت حملها قبل مضي عدة الوفاة.

والاستفهام بقوله: ﴿فَمَنْ يُخَيِّرُ الْكَافِرِينَ﴾ [الملك: 28] إلخ، إنكاري، أي: لا يجيرهم منه مُجِير، أي: أظننتم أن تجدوا مجيراً لكم إذا هلكنا فذلك متعذر، فماذا ينفعكم هلاكنا.

والعذاب المذكور هنا ما عبّر عنه بالوعد في الآية قبلها.

وتنكير ﴿عَذَابٍ﴾ للتحويل.

والمراد بـ ﴿الْكَافِرِينَ﴾ جميع الكافرين فيشمل المخاطبين.
والكلام بمنزلة التذليل، وفيه حذف، تقديره: من يجيركم من عذاب، فإنكم كافرون ولا مجير للكافرين.
وذكر وصف ﴿الْكَافِرِينَ﴾ لما فيه من الإيماء إلى علة الحكم لأنه وصف إذا علّق به حكم أفاد تعليل ما منه اشتقاق الوصف.
وقرأ الجمهور بفتحة على ياء ﴿أَهْلَكِي﴾، وقرأها حمزة بإسكان الياء.
وقرأ الجمهور ياء ﴿مَعِيَ﴾ بفتحة. وقرأها أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي بسكون الياء.

[29] ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [29].

هذا تكرير ثالث لفعل ﴿قُلْ﴾ من قوله: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ [الملك: 23] الآية.
وجاء هذا الأمر بقول يقوله لهم بمناسبة قوله: ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ [الملك: 28]، فإنه بعد أن سوى بين فرض إهلاك المسلمين وإحيائهم في أن أي الحالين فرض لا يجيرهم معه أحد من العذاب، أعقبه بأن المسلمين آمنوا بالرحمن، فهم مظنة أن تتعلق بهم هذه الصفة فيرحمهم الله في الدنيا والآخرة، فيعلم المشركون علم اليقين أي الفريقين في ضلال حين يرون أثر الرحمة على المسلمين وانتفاء عن المشركين في الدنيا وخاصة في الآخرة.
وضمير ﴿هُوَ﴾ عائد إلى الله تعالى الواقع في الجملة قبله، أي: الله هو الذي وصّفه ﴿الرَّحْمَنُ﴾ فهو يرحمنا، وأنكم أنكرتم هذا الاسم فأنتم أحرىء بأن تُحرموا آثار رحمته.
ونحن توكلنا عليه دون غيره وأنتم غرّكم غرّكم وجعلتم الأصنام معتمدكم ووكلاءكم.
وبهذه التوطئة يقع الإيماء إلى الجانب المهتدي والجانب الضال من قوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لأنه يظهر بادئ تأمل أن الذين في ضلال مبين هم الذين جحدوا وصف ﴿الرَّحْمَنُ﴾ وتوكلوا على الأوثان.

و﴿مَنْ﴾ موصولة، وما صدق ﴿مَنْ﴾ فريق مبهم متردد من فريقين تضمنها قوله: ﴿إِنَّ أَهْلَكِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾ [الملك: 28]، وقوله: ﴿فَمَنْ يُخِيرُ الْكَافِرِينَ﴾ [الملك: 28]، فأحد الفريقين فريق النبي ﷺ ومن معه، والآخر فريق الكافرين، أي: فستعلمون اتضاح الفريق الذي هو في ضلال مبين.

وتقديم معمول ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ عليه لإفادة الاختصاص، أي: توكلنا عليه دون غيره تعريضاً بمخالفة حال المشركين إذ توكلوا على أصنامهم وأشركوها في التوكل مع الله، أو نسوا التوكل على الله باشتغال فكرتهم بالتوجه إلى الأصنام.

وإنما لم يقدم معمول ﴿ءَامَنَّا﴾ عليه فلم يقل: به آمنا، لمجرد الاهتمام إلى الإخبار عن إيمانهم بالله لوقوعه عقب وصف الآخرين بالكفر في قوله: ﴿فَمَنْ يُحْيِرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ آلِ يَسْرَ﴾ [الملك: 28]، فإن هذا جواب آخر على تمنيه لهم الهلاك وسلك به طريق التبكي، أي: هو الرحمن يجيرنا من سوء ترومونه لنا لأننا آمنا به ولم نكفر به كما كفرتم، فلم يكن المقصود في إيراده نفي الإشراف وإثبات التوحيد، إذ الكلام في الإهلاك والإنجاء المعبر عنه بـ ﴿رَحْمَنَا﴾، فجاء بجملة ﴿ءَامَنَّا﴾ على أصل مجرد معناها دون قصد الاختصاص، بخلاف قوله: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لأن التوكل يقتضي منجياً وناصراً، والمشركون متوكلون على أصنامهم وقوتهم وأموالهم، فقيل: نحن لا نتكل على ما أنتم متوكلون عليه، بل على الرحمن وحده توكلنا.

وفعل ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ معلق عن العمل لمجيء الاستفهام بعده.

وقرأ الجمهور: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ بقاء الخطاب على أنه مما أمر بقوله الرسول ﷺ. وقرأه الكسائي بياء الغائب على أن يكون إخباراً من الله لرسوله بأنه سيعاقبهم عقاب الضالين.

[30] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (30).

إيماء إلى أنهم يترقبهم عذاب الجوع بالقحط والجفاف، فإن مكة قليلة المياه ولم تكن بها عيون ولا آبار قبل زمزم، كما دل عليه خبر تعجب القافلة من (جرهم) التي مرت بموضع مكة حين أسكنها إبراهيم عليه السلام هاجر بابنه إسماعيل ففجر الله لها زمزم ولمحت القافلة الطير تحوم حول مكانها فقالوا: ما عهدنا بهذه الأرض ماء، ثم حفر ميمون بن خالد الحضرمي بأعلاها بئراً تسمى بئر ميمون في عهد الجاهلية قبيل البعثة، وكانت بها بئر أخرى تسمى الجفر (بالجيم) لبني تيم بن مرة، وبئر تسمى الجم ذكرها ابن عطية وأهملها القاموس وتاجه، ولعل هاتين البئرين الأخيرتين لم تكونا في عهد النبي ﷺ.

فماء هذه الآبار هو الماء الذي أنذروا بأنه يصبح غوراً، وهذا الإنذار نظير الواقع في سورة القلم [17 - 33]: ﴿إِنَّا بَلَوْتُمُوهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

والغور: مصدر غارت البئر، إذا نزع ماؤها فلم تنله الدلاء.

والمراد: ماء البئر كما في قوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ في ذكر جنة سورة الكهف.

[41].

وأصل الغور: ذهاب الماء في الأرض، مصدر غار الماء إذا ذهب في الأرض. والإخبار به عن الماء من باب الوصف بالمصدر للمبالغة مثل: عدل، ورضى. والمعين:

الظاهر على وجه الأرض، والبئر المَعِينَة: القرية الماء على وجه التشبيه.

والاستفهام في قوله: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ﴾ استفهام إنكاري، أي: لا يأتيكم أحد بماء معين، أي: غير الله، واكتفي عن ذكره لظهوره من سياق الكلام ومن قوله قبله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: 20] الآيتين.

وقد أصيبوا بقحط شديد بعد خروج النبي ﷺ إلى المدينة وهو المشار إليه في سورة الدخان. ومن المعلوم أن انحباس المطر يتبعه غور مياه الآبار لأن استمدادها من الماء النازل على الأرض، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: 21]، وقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْجَبَارَةِ لِمَا يُنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَسْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ [البقرة: 74].

ومن النوادر المتعلقة بهذه الآية ما أشار إليه في الكشف مع ما نقل عنه في بيانه، قال: وعن بعض الشُّطَّار (هو محمد بن زكرياء الطبيب كما بيَّنه المصنف فيما نقل عنه) أنها (أي: هذه الآية) تُلِيَتْ عنده فقال: تجيء به (أي: الماء) الفؤوس والمعاول، فذهب ماء عينيه.

نعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته. والله أعلم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القلم

سُمِّيَتْ هذه السورة في معظم التفاسير وفي «صحيح البخاري»: «سورة ﴿وَالْقَلَمِ﴾» على حكاية اللفظين الواقعين في أولها، أي: سورة هذا اللفظ.

وترجمها الترمذي في جامعه وبعض المفسرين سورة (ن) بالاختصار على الحرف المفرد الذي افتتحت به مثل ما سُمِّيَتْ سورة (ص) وسورة (ق).

وفي بعض المصاحف سُمِّيَتْ «سورة وَالْقَلَمِ»، وكذلك رأيت تسميتها في مصحف مخطوط بالخط الكوفي في القرن الخامس.

وهي مكية، قال ابن عطية: لا خلاف في ذلك بين أهل التأويل.

وذكر القرطبي عن الماوردي: أن ابن عباس وقتادة قالوا: أولها مكي، إلى قوله: ﴿عَلَّ الْخُطُومَ﴾ [القلم: 16]، ومن قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: 17 - 33] مدني، ومن قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمَ﴾ (34) إلى قوله: ﴿فَهُمْ يَكْتُوبُونَ﴾ [القلم: 34 - 47] مكي، ومن قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: 48 - 50] مدني، ومن قوله: ﴿وَإِنَّ بِكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [القلم: 51] إلى آخر السورة مكي.

وفي الإتيان عن السخاوي: أن المدني منها من قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: 17 - 33]، ومن قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: 48 - 50]، فلم يجعل قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ يَكْتُوبُونَ﴾ [القلم: 34 - 41] مدنياً خلافاً لما نسبته الماوردي إلى ابن عباس.

وهذه السورة عدّها جابر بن زيد ثانية السور نزولاً قال: نزلت بعد سورة: ﴿إِذَا قَرَأْتَ﴾ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴿وَبَعْدَهَا سورة المزمّل ثم سورة المدثر، والأصح حديث عائشة: «أن أول ما أنزل سورة اقرأ باسم ربك ثم فتر الوحي ثم نزلت سورة المدثر».

وما في حديث جابر بن عبد الله: «أن سورة المدثر نزلت بعد فترة الوحي»، يُحمل على أنها نزلت بعد سورة ﴿إِذَا قَرَأْتَ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ جمعاً بينه وبين حديث عائشة رضي الله عنها. وفي «تفسير القرطبي»: أن معظم السورة نزل في الوليد بن المغيرة وأبي جهل. واتفق العادون على عدّها اثنتين وخمسين.



أغراضها

جاء في هذه السورة الإيماء بالحرف الذي في أولها إلى تحدي المعاندين بالتعجيز عن الإتيان بمثل سور القرآن، وهذا أول التحدي الواقع في القرآن إذ ليس في سورة العلق ولا في المزمّل ولا في المدثر إشارة إلى التحدي ولا تصريح.

وفيها إشارة إلى التحدي بمعجزة الأمية بقوله: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 1].

وابتدئت بخطاب النبي ﷺ تأنيساً له وتسليّة عمّا لقيه من أذى المشركين.

وإبطال مطاعن المشركين في النبي ﷺ.

وإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة وهديه وضلال معانديه وتثبيته.

وأكد ذلك بالقسم بما هو من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان الكتابة فتضمّن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم لتهيئة الأمة لخلع دثار الأمية عنهم وإقبالهم على الكتابة والعلم لتكون الكتابة والعلم سبباً لحفظ القرآن.

ثم أنحى على زعماء المشركين مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة بمذمات كثيرة وتوعّدهم بعذاب الآخرة وببلايا في الدنيا بأن ضرب لهم مثلاً بمن غرّهم عزّهم وثراؤهم، فأزال الله ذلك عنهم وأباد نعمتهم.

وقابل ذلك بحال المؤمنين المتقين وأن الله اجتباهم بالإسلام، وأن ألهتهم لا يغنون عنهم شيئاً من العذاب في الدنيا ولا في الآخرة.

ووعظهم بأن ما هم فيه من النعمة استدراج وإملاء جزاء كيدهم. وأنهم لا معذرة لهم فيما قبلوا به دعوة النبي ﷺ من طغيانهم ولا حرج عليهم في الإنصات إليها.

وأمر رسوله ﷺ بالصبر في تبليغ الدعوة وتلقي أذى قومه، وأن لا يضجر في ذلك ضجراً عاتب الله عليه نبيه يونس عليه السلام.

[1] ﴿رَبِّ﴾.

افتتاح هذه السورة بأحد حروف الهجاء جار على طريقة أمثالها من فواتح السور ذوات الحروف المقطعة المبينة في سورة البقرة، وهذه أول سورة نزلت مفتتحة بحرف مقطع من حروف الهجاء.

ورسموا حرف ﴿رَبِّ﴾ بصورته التي يُرسم بها في الخط، وهي مسمًى اسمه الذي هو «نون» (بنون بعدها واو ثم نون)، وكان القياس أن تكتب الحروف الثلاثة لأن الكتابة تبع للنطق والمنطوق به هو اسم الحرف لا ذاته، لأنك إذا أردت كتابة سيف مثلاً فإنما ترسم سيناً، وياء، وفاء، ولا ترسم صورة سيف.

وإنما يُقرأ باسم الحرف لا بهجائه كما تقدم في أول سورة البقرة.

ويُنطق باسم نون ساكن الآخر سكونَ الكلمات قبل دخول العوامل عليها. وكذلك قرئ في القراءات المتواترة.

[1 - 4] ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۚ ① مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۚ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ۚ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۚ ④﴾.

يجري القَسَمُ هنا على سَنَنِ الأقسام الصادرة في كلام الله تعالى أن تكون بأشياء معظمة دالة على آثار صفات الله تعالى.

﴿وَالْقَلَمِ﴾ المقسم به، قيل: هو ما يكنى عنه بالقلم من تعلق علم الله بالموجودات الكائنة والتي ستكون، أو هو كائن غيبي لا يعلمه إلا الله. وعن مجاهد وقتادة: أنه القلم الذي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِالقَلَمِ ۚ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: 4، 5].

قلت: وهذا هو المناسب لقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ في الظاهر، وهو الذي يقتضيه حال المشركين المقصودين بالخطاب الذين لا يعرفون إلا القلم الذي هو آلة الكتابة عند أهل الكتاب وعند الذين يعرفون الكتابة من العرب.

ومن فوائد هذا القَسَم أن هذا القرآن كتاب الإسلام، وأنه سيكون مكتوباً مقروءاً

بين المسلمين، ولهذا كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بكتابة ما يوحى به إليه. وتعريف ﴿الْقَلَمِ﴾ تعريف الجنس.

فالقَسَمُ بالقلم لشرفه بأنه يُكتب به القرآن وكُتبت به الكتب المقدسة، وتكتب به كتب التربية ومكارم الأخلاق والعلوم، وكل ذلك مما له حظ شرف عند الله تعالى.

وهذا يرجحه أن الله نَوَّه بالقلم في أول سورة نزلت من القرآن بقوله: ﴿إِنَّا وَرَدُّكَ الْأَكْرَمُ ③﴾ ③ أَلَمْ يَعْلَم بِالْقَلَمِ ④ أَلَمْ يَعْلَم بِالْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: 3 - 5].

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ هي السطور المكتوبة بالقلم، و﴿وَمَا﴾ يجوز أن تكون موصولة، أي: وما يكتبونه من الصحف، ويجوز أن تكون مصدرية. والمعنى: وسَطَّرَهم الكتابة سطوراً.

ويجوز أن يكون قَسَمًا بالأقلام التي يكتب بها كُتِّبَ الوحي القرآن، ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قَسَمًا بكتابتهم، فيكون قَسَمًا بالقرآن على أن القرآن ما هو بكلام مجنون كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ②﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ في سورة الزخرف [2، 3]، وتنظيره بقول أبي تمام:

وثنناياك إنها أغريض

البيت.

﴿يَسْطُرُونَ﴾: مضارع سَطَرَ، يقال: سَطَرَ من باب نصر، إذا كتب كلمات عدة تحصل منها صفوف من الكتابة. وأصله مشتق من السطر وهو القطع، لأن صفوف الكتابة تبدو كأنها قطع.

وضمير ﴿يَسْطُرُونَ﴾ راجع إلى غير مذكور في الكلام وهو معلوم للسامعين، لأن ذكر القلم ينبئ بكتابة يكتبون به فكان لفظ القَسَم متعلقاً بآلة الكتابة والكتابة، والمقصود: المكتوب في إطلاق المصدر على المفعول. فهو بمنزلة الفعل المبني للمجهول، لأن الساطرين غير معلومين، فكأنه قيل: والمسطور، نظير قوله تعالى: ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ②﴾ في رَقٍّ مَسْشُورٍ ③﴾ [الطور: 2، 3].

ومن فسر ﴿الْقَلَمِ﴾ بمعنى تعلق علم الله تعالى بما سيكون، جعلَ ضمير ﴿يَسْطُرُونَ﴾ راجعاً إلى الملائكة فيكون السطر رمزاً لتنفيذ الملائكة ما أمر الله بتنفيذه حين تلقى ذلك، أي: يكتبون ذلك للعمل به أو لإبلاغه من بعضهم إلى بعض على وجه لا يقبل الزيادة ولا النقصان، فشبّه ذلك الضبط بضبط الكاتب ما يريد إبلاغه بدون تغيير.

وأوثر القَسَم بالقلم والكتابة للإيماء إلى أن باعث الطاعنين على الرسول ﷺ واللامزين له بالجنون، إنما هو ما أتاهم به من الكتاب. والمُقَسَّم عليه نفْي أن يكون النبي ﷺ مجنوناً، والخطاب له بهذا تسلية له لئلا يحزنه قول المشركين لما دعاهم إلى الإسلام: هو مجنون، وذلك ما شافهوا به النبي ﷺ وحكاه الله عنهم في آخر السورة [51]: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَنْ سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُوا إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾. وهكذا كل ما ورد فيه نفْي صفة الجنون عنه فإنما هو رد على أقوال المشركين كقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: 22]. وقد زل فيه صاحب الكشف زلة لا تليق بعلمه.

والمقصود من نفْي الجنون عنه إثبات ما قصد المشركون نفْيهِ وهو أن يكون رسولاً من الله لأنهم لما نفّوا عنه صفة الرسالة وضعوا موضعها صفة الجنون، فإذا نفْي ما زعموه فقد ثبت ما ادّعاه.

وقد أجيب قولهم وتأكيدهم ذلك بحرف «إن» ولام الابتداء إذ قالوا ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: 51] بمؤكدات أقوى مما في كلامهم إذ أقسم عليه، وجيء بعد النفْي بالباء التي تزداد بعد النفْي لتأكيده، وبالجمله الاسمية منفية لدلالة الجمله الاسمية على ثبات الخبر، أي: تحققه، فهذه ثلاثة مؤكداث.

وقوله: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ جعله في «الكشاف» حالاً من الضمير الذي في مجنون المنفي. والتقدير: انتفى وصف المجنون بنعمة ربك عليك. والباء للملابسة أو السببية، أي: بسبب إنعام الله إذ برأك من النقائص. والذي أرى أن تكون جملة معترضة وأن الباء متعلقة بمحذوف يدل عليه المقام وتقديره: أن ذلك بنعمة ربك، على نحو ما قيل في تعلّق الباء في قوله: ﴿يَسْمِ اللَّهَ﴾ [هود: 41] وهو الذي يقتضيه استعمالهم كقول الحماسي الفضل بن عباس اللّهي:

كل له نيةٌ في بغض صاحبه بنعمة الله نقليكم وتقلونا
وذهب ابن الحاجب في «أماليه» أن ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ متعلق ما يتضمنه حرف (ما) النافية من معنى الفعل وقدره: انتفى أن تكون مجنوناً بنعمة ربك. ولا يصح تعلقه بقوله: «مجنون» إذ لو علّق به لأوهم نفْي جنون خاص وهو الجنون الذي يكون من نعمة الله وليس ذلك بمستقيم.

واستحسن هذا ابن هشام في «مغني اللبيب» في الباب الثالث لولا أنه مخالف لاتفاق النحاة على عدم صحة تعلق الظرف بالحرف، ولم يخالفهم في ذلك إلا أبو علي وأبو الفتح في خصوص تعلق المجرور والظرف بمعنى الحرف النائب عن فعل مثل حرف

النداء في قولك: يا لزيد (يريد في الاستغاثة)، وتقدم نظيره في قوله: ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ في سورة الطور [29].

ولما ثبت الله رسوله ﷺ فدفع بهتان أعدائه، أعقبه بإكرامه بأجر عظيم على ما لقيه من المشركين من أذى بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٣﴾ بقرينة وقوعه عقب قوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ﴿٢﴾، مؤكداً ذلك بحرف ﴿إِنَّ﴾ وبلاد الابتداء وبتقديم المجرور وهو في قوله: ﴿لَكَ﴾.

وهذا الأجر هو ثواب الله في الآخرة وعناية الله به ونصره في الدنيا. و﴿مَمْنُونٍ﴾ يجوز أن يكون مشتقاً من مَنَّ المعطي على المُعْطَى إذا عدَّ عليه عطاءه وذكره له، أو افتخر عليه به، فإن ذلك يسوء المُعْطَى، قال النابغة:

عليّ لعمرِو نعمةٌ بعد نعمةٍ لوالده ليست بذات عقارب
أي ليس فيها أذى، والامن من الأذى، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوا صِدْقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: 264].

وقد انتزع من هذه الآية عبدالله بن الزبير «بكسر الموحدة» أو غيره في قوله:
أيادي لم تُمنن وإن هي جلت
قبله:

سأشكرُ عَمراً إن تراخت منيَّتي

ومراده عمرو بن سعيد المعروف بالأشديق.

ويجوز أن يكون ﴿مَمْنُونٍ﴾ مشتقاً من قولهم: منَّ الحبل، إذا قَطَعَهُ، أي: أجراً غير مقطوع عنك، وهو الثواب المتزايد كل يوم، أو أجراً أبدياً في الآخرة، ولهذا كان لإيثار كلمة ﴿مَمْنُونٍ﴾ هنا من الإيجاز بجمع معنيين بخلاف قوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ في سورة [هود: 108]، لأن ما هنا تكرمة للرسول ﷺ.

وبعد أن آتس نفس رسوله ﷺ بالوعد عاد إلى تسفيه قول الأعداء فحقق أنه متلبس بخُلق عظيم وذلك ضد الجنون، مؤكداً ذلك بثلاثة مؤكدات مثل ما في الجملة قبله.

والخُلق: طباع النفس، وأكثر إطلاقه على طباع الخير إذا لم يُتبع بنعت، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ في سورة الشعراء [137].

والعظيم: الرفيع القدر وهو مستعار من ضخامة الجسم، وشاعت هذه الاستعارة حتى ساوت الحقيقة.

و(على) للاستعلاء المجازي المراد به التمكن كقوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: 79]، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: 43]، ﴿إِنَّكَ لَعَلَّ هَٰذَا مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحج: 67].

وفي حديث عائشة: «أنها سئلت عن خُلُقِ رسول الله ﷺ فقالت: كان خُلُقُه القرآن»، أي: ما تَضَمَّنَه القرآن من إيقاع الفضائل والمكارم والنهي عن أضرارها. والخُلُق العظيم: هو الخُلُق الأكرم في نوع الأخلاق وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان لاجتماع مكارم الأخلاق في النبي ﷺ، فهو حَسُنَ معاملته الناس على اختلاف الأحوال المقتضية لحسن المعاملة، فالخُلُق العظيم أرفع من مطلق الخُلُق الحسن.

ولهذا قالت عائشة: «كان خُلُقُه القرآن»، ألسنت تقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1] الآيات العشر.

وعن عليٍّ الخُلُق العظيم: هو أدب القرآن، ويشمل ذلك كل ما وصف به القرآن محامد الأخلاق وما وُصف به النبي ﷺ من نحو قوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِالْعِفْوِ وَأُمَرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199] وغير ذلك من آيات القرآن. وما أخذ به من الأدب بطريق الوحي غير القرآن، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»، فجعل أصل شريعته إكمال ما يحتاجه البشر من مكارم الأخلاق في نفوسهم، ولا شك أن الرسول ﷺ أكبر مظهر لما في شرعه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: 18]، وأمره أن يقول: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 163].

فكما جعل الله ﷻ رسوله ﷺ على خُلُقٍ عظيم جعل شريعته لحمل الناس على التخلُّق بالخُلُق العظيم بمنتهى الاستطاعة.

وبهذا يزداد وضوحاً معنى التمكن الذي أفاده حرف الاستعلاء في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (4)، فهو متمكن منه الخُلُق العظيم في نفسه، ومتمكن منه في دعوته الدينية.

واعلم أن جُماع الخُلُق العظيم الذي هو أعلى الخُلُق الحسن هو التدين، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتاعب، والاعتراف للمُحسن، والتواضع، والزهد، والعفة، والعفو، والجود، والحياء، والشجاعة، وحسن الصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن المعاملة والمعاشرة.

والأخلاق كامنة في النفس ومظاهرها تصرفات صاحبها في كلامه، وطلاقة وجهه،

وثباته، وحُكمه، وحركته وسكونه، وطعامه وشرابه، وتأديب أهله ومَن لنظره، وما يترتب على ذلك من حرمة عند الناس وحسن الثناء عليه والسمعة.

وأما مظاهرها في رسول الله ﷺ ففي ذلك كله وفي سياسته أمته، وفيما خُصَّ به من فصاحة كلامه وجوامع كلمه.

[5، 6] ﴿فَسَبِّحْ وَبِصِّرْ﴾ بِأَيِّكُمْ الْمُفْتُونَ ﴿6﴾

الفاء للتفريع على قوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: 2] باعتبار ما اقتضاه قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ من إبطال مقالة قيلت في شأنه قالها أعداؤه في الدين، ابتداءً بإبطال بهتانهم، وفتح عليه أنهم إذا نظروا الدلائل وتوسَّموا الشمائل علموا أي الفريقين المفتون: أُمُّ مفتونون بالانصراف عن الحق والرشد، أم هو باختلال العقل كما اختلقوا.

والمقصود هو ما في قوله: ﴿وَبِصِّرْ﴾ ولكن أدمج فيه قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ ليأتي بذكر الجانبيين إيقاعُ كلام منصف (أي: داع إلى الإنصاف) على طريقة قوله: ﴿وَأَنَا أَوْ إِنَّا كُفُّ لَعَلِّي هُدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: 24]، لأن القرآن يبلغ مسامعهم ويتلى عليهم.

وفعلاً «تبصر ويبصرون»، بمعنى البصر الحسي. وروى عن ابن عباس: أن معناه فتعلم ويعلمون، فجعله مثل استعمال فعل الرؤية في معنى الظن، فلعله أراد تفسير حاصل المعنى إذ قد قيل إن الفعل المشتق من «أبصر» لا يستعمل بمعنى الظن والاعتقاد عند جمهور اللغويين والنحاة خلافاً لهشام، كذا في «التسهيل»⁽¹⁾، فالمعنى: سترى ويرون رأي العين أيكم المفتون، فإذا كان بمعنى العلم فإن النبي ﷺ قد رأى ذلك، فالسين في قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ للتأكيد، وأما المشركون فسيرون ذلك، أي: يعلمون آثار فتونهم وذلك فيما يروونه يوم بدر ويوم الفتح.

وإن كان بمعنى البصر الحسي، فالسين والتاء في كلا الفعلين للاستقبال.

وضمير ﴿وَبِصِّرْ﴾ عائد إلى معلوم مقدر عند السامع وهم المشركون القائلون: هو مجنون.

و«أي» اسم مبهم يتعرف بما يضاف هو إليه، ويظهر أن مدلول «أي» فرد أو طائفة متميز عن مشارك في طائفته من جنس أو وصف بمميِّز واقعي أو جعلي. فهذا مدلول «أي» في جميع مواقعه. وله مواقع كثيرة في الكلام، فقد يُشرب «أي» معنى الموصول، ومعنى الشرط، ومعنى الاستفهام، ومعنى التنويه بكامل، ومعنى المعرف بـ«ال» إذا وُصِّل

(1) هو: هشام بن معاوية الكوفي من أصحاب الكسائي، توفي سنة 209.

بندائه. وهو في جميع ذلك يفيد شيئاً متميزاً عما يشاركه في طائفته المدلولة بما أضيف هو إليه، فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَفْتُونُ﴾ (6) معناه: أيُّ رجل، أو أيُّ فريق منكم المفتون، ف«أي» في موقعه هنا اسم في موقع المفعول لـ«تبصر ويبصرون»، أو متعلق به تعلق المجرور.

وقد تقدم استعمال «أي» في الاستفهام عند قوله تعالى: ﴿فَيَا أَيُّ حَديثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (50) في سورة الأعراف [185].

و﴿الْمَفْتُونُ﴾: اسم مفعول، وهو الذي أصابته فتنة، فيجوز أن يراد بها الجنون، فإن الجنون يعد في كلام العرب من قبيل الفتنة (يقولون للمجنون: فتنته الجن)، ويجوز أن يراد ما يصدق على المضطرب في أمره المفتون في عقله حيرة وتقلقل، بإيثار هذا اللفظ، دون لفظ المجنون من الكلام الموجه أو التورية ليصح فرضه للجانيين.

فإن لم يكن بعض المشركين بمنزلة المجانين الذين يندفعون إلى مقاومة النبي ﷺ بدون تبصّر يكن في فتنة اضطراب أقواله وأفعاله كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضربهما الذين أغروا العامة بالطعن في النبي ﷺ بأقوال مختلفة.

والباء على هذا الوجه مزيدة لتأكيد تعلق الفعل بمفعوله. والأصل: أيكم المفتون، فهي كالباء في قوله: ﴿وَأَمْسَحُوا رُءُوسَكُمْ﴾ [المائدة: 6].

ويجوز أن تكون الباء للظرفية. والمعنى: في أي الفريقين منكم يوجد المجنون، أي: من يصدق عليه هذا الوصف، فيكون تعريضاً بأبي جهل والوليد بن المغيرة وغيرهما من مدبري السوء على دهماء قریش بهذه الأقوال الشبيهة بأقوال المجانين، ذلك أنهم وصفوا رجلاً معروفاً بين العقلاء مذكوراً برجاحة العقل والأمانة في الجاهلية فوصفوه بأنه مجنون، فكانوا كمن زعم أن النهار ليل، ومن وصف اليوم الشديد البرد بالحرارة، فهذا شبه بالمجنون، ولذلك يجعل ﴿الْمَفْتُونُ﴾ في الآية وصفا ادعائياً على طريقة التشبيه البليغ كما جعل المتنبي القوم الذين تركوا نزيلهم يرحل عنهم مع قدرتهم على إمساكه راحلين عن نزيلهم في قوله:

إذا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أن لا تفارقهم فالرَّاحِلُونَ هُمُ

ويجوز أن يكون ﴿الْمَفْتُونُ﴾ مصدراً على وزن المفعول مثل المعقول بمعنى العقل، والمجلود بمعنى الجلد: والميسور لليسر، والمعسور لضده، وفي المثل: «خذ من ميسوره ودع معسوره».

والباء على هذا للملاسة في محل خبر مقدم على ﴿الْمَفْتُونُ﴾ وهو مبتدأ.

يُضْمَنُ فعل «تبصر ويبصرون» معنى: توقن ويوقنون، على طريق الكناية بفعل

الإبصار عن التحقق، لأن أقوى طرق الحس حاسة البصر ويكون الإتيان بالباء للإشارة إلى هذا التضمنين.

والمعنى: فستعلم يقيناً ويعلمون يقيناً بأيكم المفتون، فالباء على أصلها من التعدية متعلقة بـ«يبصر ويبصرون».

[7] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [7].

تعليل لجملة: ﴿فَسَتَّبِعُ وَيُصِرُّونَ﴾ [5] ﴿يَا أَيُّكُمُ الْمَقْتُولُ﴾ [6] [القلم: 5، 6] باعتبار ما تضمنته من التعريض بأن الجانب المفتون هو الجانب القائل له: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: 6]، وأن ضده بضده هو الراجح العقل، أي: الذي أخبرك بما كنى عنه قوله: ﴿فَسَتَّبِعُ وَيُصِرُّونَ﴾ [5] من أنهم المجانين، هو الأعلم بالفريقين وهو الذي أنبأك بأن سيتضح الحق لأبصارهم، فتعين أن المفتون هو الفريق الذين وسموا النبي ﷺ بأنه مجنون المردود عليهم بقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [2] [القلم: 2] إذ هم الضالون عن سبيل رب النبي ﷺ لا محالة.

وينتظم بالتدرج من أول السورة إلى هنا أقيسة مساواة مندرج بعضها في بعض تقتضي مساواة حقيقة من ضل عن سبل رب النبي ﷺ بحقيقة المفتون. ومساواة حقيقة المفتون بحقيقة المجنون، فنتج أن فريق المشركين هم المتصفون بالمجنون بقاعدة قياس المساواة أن مساوي المساوي لشيء، مساو لذلك الشيء.

وهذا الانتقال تضمن وعداً ووعداً، بإضافة السبيل إلى الله ومقابلة من ضل عنه بالمهتدين.

وعوموم من ضل عن سبيله وعموم المهتدين يجعل هذه الجملة مع كونها كالدليل هي أيضاً من التذييل.

وهو بعد هذا كله تمهيد وتوطئة لقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [8] [القلم: 8].

[8، 9] ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [8] وَدُّوا لَوْ نُدُّهُمْ فَيَذْهَبُونَ [9].

تفريع على جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [النحل: 125] إلى آخرها، باعتبار ما تضمنته من أنه على هدى، وأن الجانب الآخر في ضلال السبيل، فإن ذلك يقتضي المشادة معهم وأن لا يلين لهم في شيء، فإن أذاهم إياه آل إلى محاربة الحق والهدى، وتصلب فيما هم عليه من الضلال عن سبيل الله فلا يستأهلون به لينا ولكن يستأهلون إغلاظاً.

روي عن الكلبي وزيد بن أسلم والحسن بألفاظ متقاربة تحوم حول أن المشركين ودُّوا أن يمسك النبي ﷺ عن مجاهرهم بالتضليل والتحقير فيمسكوا عن أذاه، ويصانع بعضهم بعضاً، فهاه الله عن إجابتهم لما ودُّوا.

ومعنى ﴿وَدُّوْا﴾: أحبوا.

وليس المراد أنهم ودُّوا ذلك في نفوسهم فأطاع الله عليه رسوله ﷺ، لعدم مناسبته لقوله: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (8).

وورد في كتب السيرة أن المشركين تقدموا للنبي ﷺ بمثل هذا العرض ووسَّطوا في ذلك عمَّه أبا طالب وعتبة بن ربيعة.

فينتظم في هذا أن قوله: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (8) نهى عن إجابتهم إلى شيء عرضوه عليه عندما قرعهم بأول هذه السورة وبخاصة من وقع معنى التعريض البديع الممزوج بالوعيد بسوء المستقبل من قوله: ﴿فَسَبِّحْ وَبُصِّرْ﴾ (5) بِأَيْتِكُمُ الْمَقْتُونُ (6) إلى قوله: ﴿يَا مُهْتَدِينَ﴾، فلعلهم تحدثوا أو أوعزوا إلى من يخبر الرسول ﷺ أو صارحوه بأنفسهم بأنه إن ساءه قولهم فيه ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: 51] فقد ساءهم منه تحقيرهم بصفات الذم وتحقير أصنامهم وآبائهم من جانب الكفر، فإن أمسك عن ذلك أمسكوا عن أذاه وكان الحال صلحاً بينهم ويترك كل فريق فريقاً وما عبده.

والطاعة: قبول ما يبتغى عمله، ووقوع فعل ﴿تُطِيعُ﴾ في حيز النهي يقتضي النهي عن جنس الطاعة لهم فيعم كل إجابة لطلب منهم، فالطاعة مراد بها هنا المصالحة والملاينة كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (52) [الفرقان: 52]، أي: لا تلن لهم.

واختير تعريفهم بوصف المكذِّبين دون غيره من طرق التعريف لأنه بمنزلة الموصول في الإيماء إلى وجه بناء الحكم، وهو حكم النهي عن طاعتهم، فإن النهي عن طاعتهم لأنهم كذبوا رسالته.

ومن هنا يتضح أن جملة: ﴿وَدُّوْا لَوْ تَدَّهْنُ فَيُدَّهِنُونَ﴾ (9) بيان لمتعلِّق الطاعة المنهي عنها، ولذلك فُصِّلَتْ ولم تعطف.

وفعل ﴿تُدَّهِنُ﴾ مشتق من الإدهان وهو الملاينة والمصانعة، وحقيقة هذا الفعل أن يُجعل لشيء دهناً إما لتليينه وإما لتلويته، ومن هذين المعنيين تفرَّعت معاني الإدهان كما أشار إليه الراغب، أي: ودُّوا منك أن تُدهن لهم فيُدَّهِنُوا لك، أي: لو تواجهم بحسن المعاملة فيواجهونك بمثلها.

والفاء في ﴿فَيُدَّهِنُونَ﴾ للعطف، والتسبب عن جملة: ﴿لَوْ تَدَّهْنُ﴾ جواباً لمعنى التمني المدلول عليه بفعل ﴿وَدُّوْا﴾، بل قصد بيان سبب ودادتهم ذلك، فلذلك لم ينصب الفعل بعد الفاء بإضمار «أن» لأن فاء المتسبب كافية في إفادة ذلك، فالكلام بتقدير مبتدأ محذوف تقديره: فهم يدهنون.

وسُلك هذا الأسلوب ليكون الاسم المقدر مقدماً على الخبر الفعلي فيفيد معنى الاختصاص، أي: فالإدهان منهم لا منك، أي: فاترك الإدهان لهم ولا تتخلّق أنت به. وهذه طريقة في الاستعمال إذا أريد بالترتبات أنه ليس تعليق جواب كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: 13]، أي: فهو لا يخاف بخساً ولا رهقاً. وحرف ﴿لَوْ﴾ يُحتمل أن يكون شرطياً ويكونَ فعل ﴿تُذْهِنُ﴾ شرطاً، وأن يكون جواب الشرط محذوفاً ويكون التقدير: لو تذهن لحصل لهم ما يودون. ويحتمل أن يكون ﴿لَوْ﴾ حرفاً مصدرياً على رأي طائفة من علماء العربية أن ﴿لَوْ﴾ يأتي حرفاً مصدرياً مثل «أن»، فقد قال بذلك الفراء والفارسي والتبريزي وابن مالك، فيكون التقدير: ودّوا إدهانك.

ومفعول ﴿وَدَّوْا﴾ محذوف دل عليه ﴿لَوْ تُذْهِنُ﴾، أو هو المصدر بناءً على أن ﴿لَوْ﴾ تقع حرفاً مصدرياً، وتقدم في قوله تعالى: ﴿يُودُّ أَحَدَهُمْ لَوْ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ في سورة البقرة. وقد يفيد موقع الفاء تعليلاً لمودتهم منه أن يذهن، أي: ودوا ذلك منك لأنهم مدهنون، وصاحب النية السيئة يود أن يكون الناس مثله. [10] ﴿وَلَا تُطْعَ كُلُّ حَلْفٍ﴾.

إعادة فعل النهي عن الطاعة لمن هذه صفاتهم للاهتمام بهذا الأدب، فلم يُكتف بدخول أصحاب هذه الأوصاف في عموم المكذبين، ولا بتخصيصهم بالذكر بمجرد عطف الخاص على العام بأن يقال: ولا كلّ حلف، بل جيء في جانبهم بصيغة نهى أخرى مماثلة للأولى.

وليفيد تسليط الوعيد الخاص وهو في مضمون قوله: ﴿سَنَسِئُهُ عَلَى الْمُرْطُورِ﴾ [16] [القلم: 16] على أصحاب هذه الصفات الخاصة زيادة على وعيد المكذبين.

وقريب منه قول الحارث بن همام الشيباني:

أيا ابن زِيَابَةَ إن تَلَقَّني لا تَلَقَّني في النعم العازب
وتلقني يشتدُّ بي أجرد مُستَقْدِمُ البِرْكة كالراكب

فلم يكتف بعطف: بـ«بل» أو «لكن» بأن يقول: بل تلقني يشتد بي أجرد، أو لكن تلقني يشتد بي أجرد، وعدل عن ذلك فأعاد فعل «تلقني».

وكلمة ﴿كُلِّ﴾ موضوعة لإفادة الشمول والإحاطة لأفراد الاسم التي تضاف هي إليه، فهي هنا تفيد النهي العام عن طاعة كل فرد من أفراد أصحاب هذه الصفات التي أضيف إليها ﴿كُلِّ﴾ بالمباشرة وبالنعوت.

وقد وقعت كلمة ﴿كُلَّ﴾ معمولة للفعل الداخلة عليه أداة النهي ولا يفهم منه أن النهي منصب إلى طاعة من اجتمعت فيه هذه الصفات بحيث لو أطاع بعض أصحاب هذه الصفات لم يكن مخالفاً للنهي، إذ لا يخطر ذلك بالبال ولا يجري على أساليب الاستعمال، بل المراد النهي عن طاعة كل موصوف بخصلة من هذه الخصال بَلَّه من اجتمع له عدة منها.

وفي هذا ما يبطل ما أصَّله الشيخ عبدالقاهر في «دلائل الإعجاز» من الفرق بين أن تقع ﴿كُلَّ﴾ في حيز النفي، أي: أو النهي، فتفيد ثبوت الفعل أو الوصف لبعض مما أضيفت إليه ﴿كُلَّ﴾ إن كانت ﴿كُلَّ﴾ مسنداً إليها، أو تفيد تعلق الفعل أو الوصف ببعض ما أضيفت إليه ﴿كُلَّ﴾ إن كانت معمولة للمنفي أو المنهي عنه، وبين أن تقع ﴿كُلَّ﴾ في غير حيز النفي، وجَعَلَ رفع لفظ «كله» في قول أبي النجم:

قد أصبحت أمَّ الخيار تدَّعي عليَّ ذنباً كُلُّه لم أضنع
متعيناً، لأنه لو نصبه لأفاد تنصُّله من أن يكون صنع مجموع ما ادعته عليه من الذنوب، فيصدق بأنه صنع بعض تلك الذنوب وهو لم يقصد ذلك كما صرح بإبطاله العلامة التفتازاني في المطول، واستشهد للإبطال بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُجِبُ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276]، وقوله: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ حَلْفٍ مَّهِينٍ﴾ (10).

وأجريت على المنهي عن الإطاعة بهذه الصفات الذميمة لأن أصحابها ليسوا أهلاً لأن يطاعوا إذ لا ثقة بهم ولا يأمرؤن إلا بسوء.

قال جمع من المفسرين: المراد بالحَلَّاف المَهِين: الوليد بن المغيرة، وقال بعضهم: الأخنس بن شريق، وقال آخرون: الأسود بن عبد يغوث، ومن المفسرين من قال: المراد: أبو جهل، وإنما عنوا أن المراد التعريض بواحد من هؤلاء، وإلا فإن لفظ: ﴿كُلَّ﴾ المفيد للعموم لا يسمح بأن يراد النهي عن واحد معين، وأما هؤلاء فلعل أربعتهم اشتركوا في معظم هذه الأوصاف فهم ممن أريد بالنهي عن إطاعته ومن كان على شاكلتهم من أمثالهم.

وليس المراد من جَمَعَ هذه الخلال، بل من كانت له واحدة منها، والصفة الكبيرة منها هي التكذيب بالقرآن التي ختم بها قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (15) [القلم: 15]، لكن الذي قال في القرآن إنه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ هو الوليد بن المغيرة، فهو الذي اختلق هذا البهتان في قصة معلومة، فلما تلقف الآخرون

منه هذا البهتان وأعجبوا به أخذوا يقولونه، فكان جميعهم ممن يقوله، ولذلك أسند الله إليهم هذا القول في آية: ﴿وَقَالُوا أَتُحَدِّثُ بِالْأَوَّلِ﴾ [الفرقان: 5].

وذكرت عشر خلال من مذامهم التي تخلقوا بها:

الأولى: ﴿حَلْفٍ﴾، والحلاف: المكثّر من الأيمان على عودته وأخباره، وأحسب أنه أريد به الكناية عن عدم المبالاة بالكذب وبالأيمان الفاجرة، فجعلت صيغة المبالغة كناية عن تعمّد الحث، وإلا لم يكن ذمه بهذه المثابة، ومن المفسرين من جعل ﴿مَهِينٍ﴾ قيداً لـ ﴿حَلْفٍ﴾ على جعل النهي عن طاعة صاحب الوصف مجتمعين.

[10] ﴿مَهِينٍ﴾

هذه خصلة ثانية وليست قيداً لصفة ﴿حَلْفٍ﴾.

والمهين: بفتح الميم فعيل من مَهَنَ بمعنى حَقَرَ وَذَلَّ، فهو صفة مشبهة، وفعله مَهَنَ بضم الهاء، وميمه أصلية وياؤه زائدة، وهو فعيل بمعنى فاعل، أي: لا تطع الفاجر الحقير. وقد يكون ﴿مَهِينٍ﴾ هنا بمعنى ضعيف الرأي والتمييز، وكل ذلك من المهانة.

و﴿مَهِينٍ﴾: نعت لـ ﴿حَلْفٍ﴾، وكذلك بقية الصفات إلى ﴿زَنِيمٍ﴾ [القلم: 13]، فهو نعت مستقل. وبعضهم جعله قيداً لـ ﴿حَلْفٍ﴾ وفسّر المهين بالكذاب، أي: في حلفه.

[11] ﴿هَمَّازٍ﴾

الهَمَّاز كثير الهمزة. وأصل الهمز: الطعن بعود أو يد، وأطلق على الأذى بالقول في الغيبة على وجه الاستعارة، وشاع ذلك حتى صار كالحقيقة. وفي التنزيل: ﴿وَلَيْكُلٍ هَمْزَةٍ﴾ [الهمزة: 1].

وصيغة المبالغة راجعة إلى قوة الصفة، فإذا كان أذى شديداً فصاحبه ﴿هَمَّازٍ﴾، وإذا تكرر الأذى فصاحبه ﴿هَمَّازٍ﴾.

[11] ﴿مَسَاءٍ يَنْمِيهِ﴾

المشاء بالنميم: الذي يَنْمُ بين الناس، ووصفه بالمشاء للمبالغة. والقول في هذه المبالغة مثل القول في: ﴿هَمَّازٍ﴾ وهذه رابعة المدام.

والمشي: استعارة لتشويه حاله بأنه يتجشّم المشقة لأجل النميمة مثل ذكر السعي في قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: 33]. ذلك أن أسماء الأشياء المحسوسة أشد وقعاً في تصور السامع من أسماء المعقولات، فذكر المشي بالنميمة فيه تصوير لحال

النمام، ألا ترى أن قولك: قُطِعَ رأسه أوقع في النفس من قولك: قُتِلَ. ويدل لذلك أنه وقع مثله في قول النبي ﷺ: «وَأَمَّا الْآخِرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ».

والنميم: اسم مرادف للنميمة، وقيل: النميم جمع نميمة، أي: اسم جمع لنميمة إذا أريد بها الواحدة وصيرورتها اسماً.

[12] مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ.

هذه مذمة خامسة.

﴿مَنَاعٌ﴾: شديد المنع. والخير: المال، أي: شحيح، والخير من أسماء المال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: 8]، وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: 180]، وقد روعي تماثل الصيغة في هذه الصفات الأربع وهي: حَلَّافٌ، هَمَّازٌ، مَشَّاءٌ، مَنَاعٌ، وهو ضرب من محسِّن الموازنة.

والمراد بمنع الخير: منعه عَمَّنْ أسلم من ذويهم وأقاربهم، يقول الواحد منهم لمن أسلم من أهله أو مواليه: من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً، وهذه شنشنة عُرفوا بها من بعد، قال الله تعالى في شأن المنافقين: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: 7].

وأيضاً فَمِنْ منع الخير ما كان أهل الجاهلية يعطون العطاء للفخر والسمعة فلا يعطون الضعفاء وإنما يعطون في المجامع والقبائل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْضُوتْ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ ۝١٨﴾ [الفجر: 18].

قيل: كان الوليد بن المغيرة ينفق في الحج في كل حجة عشرين ألفاً يطعم أهل منى، ولا يعطي المسكين درهماً واحداً.

[12] مُعْتَدٍ أَثِيمٍ.

هما مَذْمَتَانِ سادسة وسابعة قُرن بينهما لمناسبة الخصوص والعموم.

والاعتداء: مبالغة في العدوان، فالافتعال فيه للدلالة على الشدة.

والأثيم: كثير الإثم، وهو فاعل من أمثلة المبالغة، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقْوِمِ ۝٤٣ طَعَامٌ لِلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدخان: 43، 44]. والمراد بالإثم هنا ما يعد خطيئة وفساداً عند أهل العقول والمروءة وفي الأديان المعروفة.

قال أبو حيان: وجاءت هذه الصفات صفات مبالغة ونوسب فيها، فجاء: ﴿حَلَّافٌ﴾ [القلم: 10]، وبعده: ﴿مَهِينٌ﴾ [القلم: 10] لأن النون فيها تواخ مع الميم، أي: ميم ﴿أَثِيمٌ﴾، ثم جاء: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ﴾ [القلم: 11] بصفتي المبالغة، ثم جاء: ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾ صفات مبالغة اهـ. يرد أن الافتعال في ﴿مُعْتَدٍ﴾ للمبالغة.

[13] ﴿عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾.

ثامنة وتاسعة.

والعتل: بضمين وتشديد اللام اسم وليس بوصف، لكنه يتضمّن معنى صفة لأنه مشتق من العُتْل بفتح فسكون، وهو الدفع بقوة، قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [47] [الدخان: 47] ولم يُسمع عاتل. ومما يدل على أنه من قبيل الأسماء دون الأوصاف مركب من وصفين في أحوال مختلفة أو من مركب أوصاف في حالين مختلفين.

وفسّر العُتْل بالشديد الخلقة الرحيب الجوف، وبالأكل الشروب، وبالغشوم الظلوم، وبالكثير اللحم المختال. روى الماوردي عن شهر بن حوشب هذا التفسير عن ابن مسعود وعن شداد بن أوس وعن عبدالرحمن بن غنم، يزيد بعضهم على بعض عن النبي ﷺ بسند غير قوي، وهو على هذا التفسير إتباع لصفة ﴿مَنَاعٌ لِلْحَيْرِ﴾ [القلم: 12]، أي: يمنع السائل ويدفعه ويُغلظ له على نحو قوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: 2].

ومعنى ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ علاوة على ما عُدّ له من الأوصاف هو سيئ الخلقة سيئ المعاملة، فالبعدية هنا بعدية في الارتقاء في درجات التوصيف المذكور، فمفادها مفاد التراخي الرتبي كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [30] [النازعات: 30] على أحد الوجهين فيه.

وعلى تفسير العُتْل بالشديد الخلقة والرحيب الجوف يكون وجه ذكره أن قباحة ذاته مكملة لمعائبه، لأن العيب المشاهد أجلب إلى الاشتزاز وأوغل في النفرة من صاحبه. وموقع ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ موقع الجملة المعترضة، والظرف خبر لمحذوف تقديره: هو بعد ذلك.

ويجوز اتصال ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بقوله: ﴿زَنِيمٌ﴾ على أنه حال من ﴿زَنِيمٌ﴾.

والزним: اللصيق، وهو من يكون دعياً في قومه ليس من صريح نسبهم: إما بمغمز في نسبه، وإما بكونه حليفاً في قوم أو مولى، مأخوذ من الزنمة بالتحريك وهي قطعة من أذن البعير لا تنزع بل تبقى معلقة بالأذن علامة على كرم البعير. والزنمتان بُضعتان في رقاب المعز.

قيل: أريد بالزنيم الوليد بن المغيرة لأنه ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة من مولده. وقيل: أريد الخنس بن شريق لأنه كان من ثقيف محالف قريشاً وحلّ بينهم، وأياً ما كان

المراد به، فإن المراد به خاص فدخله في المعطوف على ما أضيف إليه ﴿كُلَّ﴾ [القلم: 10] إنما هو على فرض وجود أمثال هذا الخاص، وهو ضرب من الرمز كما يقال: ما بال أقوام يعملون كذا، ويراد واحد معيّن. قال الخطيم التميمي جاهلي، أو حسام بن ثابت:

زَئِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً كَمَا زِيدَ فِي عَرَضِ الْأَدِيمِ الْأَكَارِعِ
ويطلق الزئيم على من في نسبه غضاضة من قبل الأمهات، ومن ذلك قول حسان في هجاء أبي سفيان بن حرب، قبل إسلام أبي سفيان، وكانت أمه مولاة خلافاً لسائر بني هاشم إذ كانت أمهاتهم من صريح نسب قومهن:

وَأَنْتَ زَئِيمٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطٌ خَلْفَ الرَّكَّابِ الْقَدْحُ الْقَرْدُ
وَإِنَّ سَنَامَ الْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ بَنُو بَنْتٍ مَخْزُومٍ وَوَالِدُكَ الْعَبْدُ
يريد جده أبا أمه وهو موهب غلام عبد مناف، وكانت أم أبي سفيان سُمَيَّة بنت موهب هذا.

والقول في هذا الإطلاق والمراد به مماثل للقول في الإطلاق الذي قبله.

[14، 15] ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ

الْأَوَّلِينَ ﴿15﴾.

يتعلّق قوله: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (14) بفعل: ﴿قَالَ﴾ بتقدير لام التعليل محذوفة قبل ﴿أَنْ﴾، وهو حذف مطّرد تعلّق بذلك الفعل ظرف هو: ﴿إِذَا تُتْلَى﴾ ومجرور هو: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ﴾، ولا يدع في ذلك. وليست ﴿إِذَا﴾ بشرطية هنا فلا يهولنك قولهم: إن «ما» بعد الشرط لا يعمل فيما قبله، على أنها لو جعلت شرطية لما امتنع ذلك لأنهم يتوسّعون في المجرورات ما لا يتوسّعون في غيرها، وهذا مجرور باللام المحذوفة.

والمراد: كل من كان ذا مال وبنتين من كبراء المشركين كقوله تعالى: ﴿وَدَرَجَاتٍ وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ [المزمل: 11].

وقيل: أريد به الوليد بن المغيرة إذ هو الذي اختلق أن يقول في القرآن: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وقد علمت ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَفٍ مَّهِينٍ﴾ (10) [القلم: 10].

وكان الوليد بن المغيرة ذا سعة من المال كثير الأبناء، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَدَرَجَاتٍ وَمَنْ خَلَقَتْ وَحِيدًا﴾ (11) وَجَعَلَتْ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَيْنَ شُهُودًا (13) إلى قوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (25) [المدرثر: 11 - 25]. والوجه أن لا يختص هذا الوصف به، وأن يكون تعريضاً به.

والأساطير: جمع أسطورة وهي القصة، والأسطورة كلمة معربة عن الرومية كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ في الأنعام [25]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ في سورة النحل [24].

وُحُتِمَت الأوصاف المحذر عن إطاعة أصحابها بوصف التكذيب ليرجع إلى صفة التكذيب التي انتقل الأسلوب منها من قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [8]. [القلم: 8].

وقرأ الجمهور: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ﴾ بهمزة واحدة على أنه خبر. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر بهمزتين مخففتين فهو استفهام إنكاري. وقرأ ابن عامر بهمزة ومدة بجعل الهمزة الثانية ألفاً للتخفيف.

[16] ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾.

استئناف بياني جواباً لسؤال ينشأ عن الصفات الذميمة التي وصفوا بها أن يسأل السامع: ما جزاء أصحاب هذه الأوصاف من الله على ما أتوه من القبائح والاجترأ على ربهم.

وضمير المفرد الغائب في قوله: ﴿سَنَسِمُهُ﴾ عائد إلى كل حَلَّافٍ باعتبار لفظه وإن كان معناه الجماعات، فإفراد ضميره كإفراد ما أضيف إليه ﴿كُلِّ﴾ [القلم: 10] من الصفات التي جاءت بحالة الأفراد.

والمعنى: سنسم كل هؤلاء على الخراطيم، وقد علمت آنفاً أن ذلك تعريض بمعين بصفة قوله: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: 15] وبأنه ذو مال وبنين.

و﴿الْخُرُطُومُ﴾: أريد به الأنف. والظاهر أن حقيقة الخرطوم الأنف المستطيل كأنف الفيل والخنزير ونحوهما من كل أنف مستطيل. وقد خلط أصحاب اللغة في ذكر معانيه خلطاً لم تتبين منه حقيقته من مجازه.

وذكر الزمخشري في الأساس معانيه المجازية ولم يذكر معناه الحقيقي، وانبهم كلامه في الكشف إلا أن قوله فيه: وفي لفظ: ﴿الْخُرُطُومُ﴾ استخفاف وإهانة، يقتضي أن إطلاقه على أنف الإنسان مجاز مرسل. وجزم ابن عطية: أن حقيقة الخرطوم مَخْطُمُ السَّبُعِ، أي: أنف مثل الأسد، فإطلاق الخرطوم على أنف الإنسان هنا استعارة كإطلاق المشفر وهو شفة البعير على شفة الإنسان في قول الفرزدق:

فلو كنت ضبيّاً عرفت قرابتي ولكن زنجي غليظ المشافر

وكإطلاق الجحفة على شفة الإنسان (وهي للخليل والبغال والحمير) في قول النابغة يهجو لبيد بن ربيعة:

أَلَا مَنْ مَبْلَغُ عَنِي لَبِيدَا أبا الورداء جَحْفَلَةَ الْأَتَانِ
والوسم للإبل ونحوها، جُعِلَ سِمَةً لَهَا أَنَّهَا مِنْ مَمْلُوكَاتِ الْقَبِيلَةِ أَوْ الْمَالِكِ الْمَعْيَنِ.
فالمعنى: سنعامله معاملة يُعرف بها أَنَّهُ عَبْدُنَا وَأَنَّهُ لَا يَغْنِي عَنْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ مِنْ شَيْئًا.
فالوسم: تمثيل تتبعه كناية عن التمكن منه وإظهار عجزه.
وأصل «نسمه» نَوَسِمَهُ مِثْلُ: يَعِدُ وَيَصِلُ.

وذكر الخرطوم فيه جمع بين التشويه والإهانة، فإن الوسم يقتضي التمكن وكونه في الوجه إذلاً وإهانة، وكونه على الأنف أشد إذلاً. والتعبير عن الأنف بالخرطوم تشويه، والضرب والوسم ونحوهما على الأنف كناية عن قوة التمكن وتمايم الغلبة وعجز صاحب الأنف عن المقاومة، لأن الأنف أبرز ما في الوجه وهو مجرى النفس، ولذلك غلب ذكر الأنف في التعبير عن إظهار العزة في قولهم: شَمَخَ بِأَنْفِهِ، وَهُوَ أَشَمُّ الْأَنْفِ، وَهُمْ شَمَّ الْعَرَانِينَ. وعبر عن ظهور الذلة والاستكانة بكسر الأنف، وجدعه، ووقوعه في التراب في قولهم: رَغِمَ أَنْفُهُ، وَعَلَى رَغَمِ أَنْفِهِ، قَالَ جَرِيرُ:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفِرْزَدَقِ مِيسَمِي وَعَلَى الْبُعَيْثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ
ومعظم المفسرين على أن المعنى بهذا الوعيد هو الوليد بن المغيرة، وقال أبو مسلم الأصفهاني في تفسيره قوله: ﴿سَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (16): «هُوَ مَا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ مِنْ سُوءٍ وَذَلٍّ وَصَغَارٍ. يُرِيدُ: مَا نَالَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ وَمَا بَعْدَهُ إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَى: ﴿سَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (16): سَنَخَطُمُهُ بِالسَّيْفِ، قَالَ: وَقَدْ خُطِمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ بِالسَّيْفِ يَوْمَ بَدْرٍ فَلَمْ يَزَلْ مَخْطُومًا إِلَى أَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعَيِّنْ ابْنُ عَبَّاسٍ مَنْ هُوَ.

وقد كانوا إذا ضربوا ضربوا بالسيف قصدوا الوجوه والرؤوس. قال النبي ﷺ يوم بدر لعمر بن الخطاب لما بلغه قول أبي حذيفة لئن لقيتُ العباس لألجمنه السيف، فقال رسول الله: «يَا أَبَا حَفْصٍ أَيُضْرَبُ وَجْهَ عَمِ رَسُولِ اللَّهِ بِالسَّيْفِ؟».

وقيل: هذا وعيد بتشويه أنفه يوم القيامة مثل قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: 106] وجعل تشويهه يومئذ في أنفه لأنه إنما بالغ في عداوة الرسول والظعن في الدين بسبب الأنفة والكبرياء، وقد كان الأنف مظهر الكبر ولذلك سُمِّيَ الْكِبَرُ أَنْفَةً اشتقاقاً من اسم الأنف، فجعلت شوّهته في مظهر آثار كبريائه.

[17 - 25] ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿17﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿18﴾ فَلَمَّا عَلِمَهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿19﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿20﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿21﴾ أَنِ انْضُدُّوا عَلَىٰ حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰرِمِينَ ﴿22﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿23﴾ أَن لَّا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿24﴾ وَعَدُوا عَلَىٰ حَرٍِّ قٰدِرِينَ ﴿25﴾﴾.

ضمير الغائبين في قوله: ﴿بَلَوْنَهُمْ﴾ يعود إلى ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: 8].

والجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً دعت إليه مناسبة قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [14، 15]، فإن الازدهار والغرور بسعة الرزق المفضيين إلى الاستخفاف بدعوة الحق وإهمال النظر في كنهها ودلائلها قد أوقعا من قديم الزمان أصحابهما في بטר النعمة وإهمال الشكر، فجزَّ ذلك عليهم شرَّ العواقب، فضرب الله للمشركين مثلاً بحال أصحاب هذه الجنة لعلهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم. كما ضرب المثل بقريب منه في سورة الكهف، وضرب مثلاً بقارون في سورة القصص.

والبلوى حقيقتها: الاختبار وهي هنا تمثيل بحال المبتلى في إرخاء الحبل له بالنعمة ليشكر أو يكفر، فالبلوى المذكورة هنا بلوى بالخير، فإن الله أمداً أهل مكة بنعمة الأمن، ونعمة الرزق، وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة، ويسر لهم سبل التجارة في الآفاق بنعمة الإيلاف برحلة الشتاء ورحلة الصيف، فلما أكمل لهم النعمة بإرسال رسول منهم ليكمل لهم صلاح أحوالهم ويهديهم إلى ما فيه النعيم الدائم فدعاهم وذكَّره بنعم الله أعرضوا وطغوا ولم يتوجَّهوا إلى النظر في النعم السالفة ولا في النعمة الكاملة التي أكملت لهم النعم.

ووجه المشابهة بين حالهم وحال أصحاب الجنة المذكورة هنا هو الإعراض عن طلب مرضاة الله وعن شكر نعمته.

وهذا التمثيل تعريض بالتهديد بأن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنة من البؤس بعد النعم والقحط بعد الخصب، وإن اختلف السبب في نوعه فقد اتحد جنسه. وقد حصل ذلك بعد سنين إذ أخذهم الله بسبع سنين بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

وهذه القصة المضروب بها المثل قصة معروفة بينهم وهي أنه كانت ببلد يقال له: صَرَوَان (بضاد معجمة وراء وواو مفتوحات وألف ونون) من بلاد اليمن بقرب صنعاء. وقيل: ضروان اسم هذه الجنة، وكانت جنة عظيمة غرسها رجل من أهل الصلاح والإيمان من أهل الكتاب، قاله ابن عباس. ولم يبين من أي أهل الكتاب هو: أمن

اليهود أم من النصارى؟ فقيل: كان يهودياً، أي: لأن أهل اليمن كانوا تدينوا باليهودية من عهد بلقيس كما قيل أو بعدها بهجرة بعض جنود سليمان، وكانت زكاة الثمار من شريعة التوراة كما في الإصحاح السادس والعشرين من سفر اللاويين.

وقال بعض المفسرين: كان أصحاب هذه الجنة بعد عيسى بقليل، أي: قبل انتشار النصرانية في اليمن لأنها ما دخلت اليمن إلا بعد دخول الأحباش إلى اليمن في قصة القليس، وكان ذلك زمان عام الفيل.

وعن عكرمة: كانوا من الحبشة كانت لأبيهم جنة وجعل في ثمرها حقاً للمساكين وكان يدخل معه المساكين ليأخذوا من ثمرها فكان يعيش منها اليتامى والأرامل والمساكين، وكان له ثلاثة بنين، فلما توفي صاحب الجنة وصارت لأولاده أصبحوا ذوي ثروة وكانوا أشحة أو كان بعضهم شحيحاً وبعضهم دونه، فتمالؤوا على حرمان اليتامى والمساكين والأرامل وقالوا: لنغدون إلى الجنة في سدفة من الليل قبل انبلاج الصباح مثل وقت خروج الناس إلى جناتهم للجداذ فلنجدنها قبل أن يأتي المساكين. فبيئوا ذلك وأقسموا أيماناً على ذلك، ولعلمهم أقسموا ليلزموا أنفسهم بتنفيذ ما تداعوا إليه.

وهذا يقتضي أن بعضهم كان متردداً في موافقتهم على ما عزموا عليه وأنهم أجموه بالقسم، وهذا الذي يلتزم مع قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَرَأَيْتُ لَكُمْ لَوْلَا سُبْحُونَ﴾ [28] [القلم: 28]، قيل: كان يقول لهم: اتقوا الله واعدلوا عن خبث نيتكم من منع المساكين، وذكّرهم انتقام الله من المجرمين، أي: فغلبوه ومضوا إلى ما عزموا عليه، ولعلمهم أقسموا على أن يفعلوا وأقسموا عليه أن يفعل معهم ذلك فأقسم معهم أو وافقهم على ما أقسموا عليه، ولهذا الاعتبار أسند القسم إلى جميع أصحاب الجنة.

فلما جاؤوا جنتهم وجدوها مسودة قد أصابها ما يشبه الاحتراق، فلما رأوها بتلك الحالة علموا أن ذلك أصابهم دون غيرهم لعزمهم على قطع ما كان ينتفع به الضعفاء من قومهم وأنبأوا إلى الله رجاء أن يعطيهم خيراً منها.

قيل: كانت هذه الجنة من أعناب.

والصرم: قطع الثمرة وجذاذها.

ومعنى: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح، أي: في أوائل الفجر.

ومعنى: ﴿وَلَا يَسْتَوُونَ﴾: أنهم لا يستنون من الثمرة شيئاً للمساكين، أي: أقسموا ليصرم جميع الثمر ولا يتركون منه شيئاً. وهذا التعميم مستفاد مما في الصرم من معنى الخزن والانتفاع بالثمرة، وإلا فإن الصرم لا ينافي إعطاء شيء من المجذوذ لمن يريدون. وأجمل ذلك اعتماداً على ما هو معلوم للسامعين من تفصيل هذه القصة على عادة القرآن في إيجاز حكاية القصص بالاعتصار على موضع العبرة منها.

وقيل: معناه: ﴿وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ لإيمانهم بأن يقولوا: إن شاء الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَأْنِي إِنَّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿[الكهف: 23 - 24]﴾. ووجه تسميته استثناء أن أصل صيغته فيها حرف الاستثناء وهو «إلا»، فإذا اقتصر أحد على «إن شاء الله» دون حرف الاستثناء أطلق على قوله ذلك استثناء لأنه على تقدير: إلا أن يشاء الله. على أنه لما كان الشرط يؤول إلى معنى الاستثناء أطلق عليه استثناء نظراً إلى المعنى وإلى مادة اشتقاق الاستثناء.

وعلى هذا التفسير يكون قوله: ﴿وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ (18) من قبيل الإدماج، أي: لمبلغ غرورهم بقوة أنفسهم صاروا إذا زعموا على فعل شيء لا يتوقعون له عاقبة. والجملة في موضع الحال، والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار حالتهم العجيبة من بخلهم على الفقراء والأيتام.

وعلى الروايات كلها يُعلم أن أهل هذه الجنة لم يكونوا كفاراً، فوجه الشبه بينهم وبين المشركين المضروب لهم هذا المثل هو بطل النعمة والاغترار بالقوة.

وقوله: ﴿نَظَافٌ عَلَيَّا طَافٌ مِّنْ رَبِّكَ﴾، الطواف: المشي حول شيء من كل جوانبه، يقال: طاف بالكعبة، وأريد به هنا تمثيل حالة الإصابة لشيء كله بحال من يطوف بمكان، قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ الآية [الأعراف: 201].

وعُدِّي «طاف» بحرف «على» لتضمينه معنى: تسلط أو نزل.

ولم يعين جنس الطائف لظهور أنه من جنس ما يصيب الجنات من الهلاك، ولا يتعلق غرض بتعيين نوعه لأن العبرة في الحاصل به، فإسناد فعل «طاف» إلى ﴿طَافٌ﴾ بمنزلة إسناد الفعل المبني للمجهول كأنه قيل: فطيف عليها وهم نائمون.

وعن الفراء: أن الطائف لا يكون إلا بالليل، يعني ومنه سمي الخيال الذي يراه النائم في نومه طيفاً. قيل: هو مشتق من الطائفة وهي الجزء من الليل. وفي هذا نظر.

فقوله: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ تقييد لوقت الطائف على التفسير الأول، وهو تأكيد لمعنى ﴿طَافٌ﴾ على تفسير الفراء، وفائدته تصوير الحالة.

وتنوين ﴿طَافٌ﴾ للتعظيم، أي: أمر عظيم، وقد بينه بقوله: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ (20) فهو طائف سوء، قيل: أصابها عنق من نار فاحترقت.

و﴿مِّنْ رَبِّكَ﴾ أي: جائياً من قِبَلِ رَبِّكَ، ف﴿مِّنْ﴾ للابتداء، يعني: إنه عذاب أرسل إليهم عقاباً لهم على عدم شكر النعمة.

وُعْجِلَ العقاب لهم قبل التلبس بمنع الصدقة لأن عزمهم على المنع وتقاسمهم عليه

حق أنهم مانعون صدقاتهم فكانوا مانعين، ويؤخذ من الآية موعظة الذين لا يواسون بأموالهم.

وإذ كان عقاب أصحاب هذه الجنة دنيوياً لم يكن في الآية ما يدل على أن أصحاب الجنة منعوا صدقة واجبة.

والصريم قيل: هو الليل، والصريم من أسماء الليل ومن أسماء النهار لأن كل واحد منهما ينصرم عن الآخر كما سمي كل من الليل والنهار ملوّاً فيقال: المَلَوَانِ، وعلى هذا ففي الجمع بين «أصبحت» و«الصريم» محسن الطباق.

وقيل: الصريم: الرماد الأسود بلغة جذيمة أو خزيمة.

وقيل: الصريم: اسم رملة معروفة باليمن لا تنبت شيئاً.

وإيثار كلمة الصريم هنا لكثرة معانيها وصلاحية جميع تلك المعاني لأن تراد في الآية.

وبين «يصرمونها» و«الصريم» الجناس.

وفاء ﴿فَنَادَوْا﴾ للتفريع على ﴿أَقْسُوا لِيَصْرِمَنَهَا مُصْرِمِينَ﴾، أي: فلما أصبحوا تنادوا لإنجاز ما بيّنوا عليه أمرهم.

والتنادي: أن ينادي بعضهم بعضاً، وهو مشعر بالتحريض على الغدو إلى جنتهم مبكرين.

والغدو: الخروج ومغادرة المكان في غدوة النهار، أي: أولاً.

وليس قولهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ﴾ بشرط تعليق، ولكنه مستعمل في الاستبطاء فكانهم لإبطاء بعضهم في الغدو قد عدل عن الجذاذ ذلك اليوم. ومنه قول عبدالله بن عمر للحجاج عند زوال عرفة يحرضه على التهجير بالرواح إلى الموقف: «الرواح إن كنت تريد السنة». ونظير ذلك كثير في الكلام.

و﴿عَلَى﴾ من قوله: ﴿عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ مستعملة في تمكن الوصول إليه كأنه قيل: اغدوا تكونوا على حَرْثكم، أي: مستقرين عليه.

ويجوز أن يضمّن فعل الغدو معنى الإقبال كما يقال: يُغدى عليه بالجفنة ويُراح. قال الطيبي: «ومثله قيل في حق المطلب تغدو درّته (التي يضرب بها) على السفهاء، وجفنته على العلماء».

والحرث: شق الأرض بحديدة ونحوها ليوضع فيها الزريعة أو الشجر وليزال منها العشب.

ويطلق الحرث على الجنة لأنهم يتعاهدونها بالحرث لإصلاح شجرها، وهو المراد هنا كقوله تعالى: ﴿وَحَرَّثْ جَبْرٌ﴾ في سورة الأنعام [138]، وتقدم في قوله: ﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرَّثِ﴾ في سورة آل عمران [14].

والتخافت: تفاعل من خفت إذا أسر الكلام.

و﴿أَنَّ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ (24) تفسير لفعل ﴿يَتَخَفَتُونَ﴾، و﴿أَنَّ﴾ تفسيرية لأن التخافت في معنى القول دون حروفه.

وتأكيد فعل النهي بنون التوكيد لزيادة تحقيق ما تقاسموا عليه.

وأسند إلى ﴿مَسْكِينٌ﴾ فعل النهي عن الدخول والمراد نهى بعضهم بعضاً عن دخول المسكين إلى جنتهم، أي: لا يترك أحد مسكيناً يدخلها. وهذا من قبيل الكناية وهو كثير في استعمال النهي كقولهم: لا أعرفك تفعل كذا.

وجملة: ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرِّ قَدِيرٍ﴾ (25) في موضع الحال بتقدير «قد»، أي: انطلقوا في حال كونهم غادين قادرين على حرد.

وذكر فعل ﴿عَدُوا﴾ في جملة الحال لقصد التعجيب من ذلك الغدو النحس كقول امرئ القيس:

وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد
بعد قوله:

تطاول ليلك بالأثم مد وبات الخلي ولم ترقد
يخاطب نفسه على طريقة فيها التفات أو التفاتان.

والحرد: يطلق على المنع وعلى القصد القوي، أي: السرعة وعلى الغضب.

وفي إشار كلمة ﴿حَرِّ﴾ في الآية نكتة من نكت الإعجاز المتعلق بشرف اللفظ ورشاقتها من حيث المعنى، ومن جهة تعلق المجرور به بما يناسب كل معنى من معانيه، أي: بأن يتعلّق ﴿عَلَى حَرِّ﴾ بـ ﴿قَدِيرٍ﴾، أو بقوله: ﴿وَعَدُوا﴾، فإذا علّق بـ ﴿قَدِيرٍ﴾، فتقديم المتعلّق يفيد تخصيصاً، أي: قادرين على المنع، أي: منع الخير أو منع ثمر جنتهم غير قادرين على النفع.

والتعبير بقادرين على حرد دون أن يقول: وعدوا حاردين تهكم، لأن شأن فعل القدرة أن يذكر في الأفعال التي يشق على الناس إتيانها، قال تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: 264]، وقال: ﴿لَيْلٌ قَدِيرٌ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ﴾ (4) [القيامة:

[4]، فقلوه: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَدِيرٍ﴾ على هذا الاحتمال من باب قولهم: فلان لا يملك إلا الحرمان أو لا يقدر إلا على الخيبة.

وإذا حُمِلَ الحرد على معنى السرعة والقصد كان ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ متعلقاً بـ ﴿غَدَوْا﴾ مبيناً لنوع الغدو، أي: غدوا غُدُوَّ سرعة واعتناء، فتكون ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى باء المصاحبة، والمعنى: غدوا بسرعة ونشاط، ويكون قادرين حالاً من ضمير ﴿غَدَوْا﴾ حالاً مقدرة، أي: مقدِّرين أنهم قادرون على تحقيق ما أرادوا.

وفي الكلام تعريض بأنهم خابوا دل عليه قوله بعده: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾ [26] [القلم: 26]، وقوله قبله: ﴿طَلَفَ عَلَيْنَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ﴾ [19].

وإذا أريد بالحد الغضب والحنق فإنه يقال: حَرَدَ بالتحريك وحرَدُ بسكون الراء ويتعلق المجرور بـ ﴿قَدِيرٍ﴾ وتقديمه للحصر، أي: غدوا لا قدرة لهم إلا على الحنق والغضب على المساكين لأنهم يقتحمون عليهم جنتهم كل يوم فتحيلوا عليهم بالتبكير إلى جذاذها، أي: لم يقدروا إلا على الغضب والحنق ولم يقدروا على ما أرادوه من اجتناء ثمر الجنة.

وعن السدي: أن ﴿حَرْدٍ﴾ اسم قريتهم، أي: جنتهم. وأحسب أنه تفسير ملفق وكان صاحبه تصيده من فعلي: ﴿اغْدُوا﴾ و﴿غَدُوا﴾.

[26 - 32] ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾ [26] بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿27﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿28﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿29﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿30﴾ قَالُوا يَبْرَأَ لَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿31﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿32﴾.

أي: استفاقوا من غفلتهم ورجعوا إلى أنفسهم باللائمة على بطرهم وإهمال شكر النعمة التي سبقت إليهم، وعلموا أنهم أخذوا بسبب ذلك، قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168]. ومن حَكَمَ الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري: «من لم يشكر النعم فقد تعرَّضَ لزوالها، ومن شكرها فقد قيَّدها بعقالها».

وأفادت «لَمَّا» اقتران جوابها بشرطها بالفور والبداهة. والمقصود من هذا التعريض للمشركين بأن يكون حالهم في تدارك أمرهم وسرعة إنابتهم كحال أصحاب هذه الجنة إذ بادروا بالندم وسألوا الله عوض خير.

وإسناد هذه المقالة إلى ضمير ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: 17] يقتضي أنهم قالوه جميعاً، أي: اتفقوا على إدراك سبب ما أصابهم.

ومعنى ﴿إِنَّا لَضَالُونَ﴾ أنهم علموا أنهم كانوا في ضلال، أي: عن طريق الشكر، أي:

كانوا غير مهتدين، وهو كناية عن كون ما أصابهم عقاباً على إهمال الشكر، فالضلال مجاز. وأكدوا الكلام لتنزيل أنفسهم منزلة من يشك في أنهم ضالون طريق الخير لقرب عهدهم بالغفلة عن ضلالهم، فيه إيذان بالتحسر والتندم.

﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ (27) إضراب للانتقال إلى ما هو أهم بالنظر لحال تبينهم إذ بيتوا حرمان المساكين من فضول ثمرتهم فكانوا هم المحرومين من جميع الثمار، فالحرمان الأعظم قد اختص بهم إذ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرمانهم.

والكلام يفيد ذلك إما بطريق تقديم المسند إليه بأن أتى به ضميراً بارزاً مع أن مقتضى الظاهر أن يكون ضميراً مستتراً في اسم المفعول مقدراً مؤخراً عنه لأنه لا يتصور إلا بعد سماع متحمّله. فلما أبرز الضمير وقدم كان تقديمه مؤذناً بمعنى الاختصاص، أي: القصر، وهو قصر إضافي. وهذا من مستتبات التراكم والتعويل على القرائن.

ويحتمل أن يكون الضلال حقيقياً، أي: ضلال طريق الجنة، أي: قالوا: إنا أخطأنا الطريق في السير إلى جنتنا لأنهم توهّموا أنهم شاهدوا جنة أخرى غير جنتهم التي عهدوها، قالوا ذلك تحيراً في أمرهم.

ويكون الإضراب إبطالياً، أي: أبطلوا أن يكونوا ضلّوا طريق جنتهم، وأثبتوا أنهم محرومون من خير جنتهم، فيكون المعنى أنها هي جنتهم ولكنها هلكت فحرموا خيراتها بأن أتلفها الله.

﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ أفضلهم وأقربهم إلى الخير وهو أحد الإخوة الثلاثة. والوسط: يطلق على الأخير الأفضل، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، وقال: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: 238]، ويقال: هو من سطة قومه، وأعطني من سطة مالك.

وحكي هذا القول بدون عاطف لأنه قول في مجرى المحاوراة جواباً عن قولهم: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ (27) قاله لهم على وجه توقيفهم على تصويب رأيه وخطل رأيهم.

والاستفهام تقريرى، و﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض. والمراد بـ ﴿تُسَيِّحُونَ﴾ تنزيه الله عن أن يعصى أمره في شأن إعطاء زكاة ثمارهم.

وكان جوابهم يتضمن إقراراً بأنه وعظهم فعصوه ودّلوا على ذلك بالتسبيح حين ندمهم على عدم الأخذ بنصيحته فقالوا: ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (29) أرادوا إجابة تقريره بإقرار تسبيح الله عن أن يعصى أمره في إعطاء حق المساكين، فإن من أصول التوبة تدارك ما يمكن تداركه، واعترافهم بظلم المساكين من أصول التوبة لأنه خبر

مستعمل في التندم، والتسبيح مقدمة الاستغفار من الذنب، قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ﴿3﴾ [النصر: 3].

وجملة: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ قرار بالذنب، والتأكيد لتحقيق الإقرار والاهتمام به. ويفيد حرف «إن» مع ذلك تعليلاً للتسبيح الذي قبله. وحذف مفعول ﴿ظَالِمِينَ﴾ ليعم ظلمهم أنفسهم بما جرّوه على أنفسهم من سلب النعمة، وظلم المساكين بمنعهم من حقهم في المال.

وجرت حكاية جوابهم على طريقة المحاوراة فلم تعطف، وهي الطريقة التي نبهنا عليها عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ في سورة البقرة [30].

ولما استقر حالهم على المشاركة في منع المساكين حقهم أخذ بعضهم يلوم بعضاً على ما فرط من فعلهم: كل يلوم غيره بما كان قد تلبس به في هذا الشأن من ابتكار فكرة منع المساكين ما كان حقاً لهم في حياة الأب، ومن الممالة على ذلك، ومن الاقتناع بتصميم البقية، ومن تنفيذ جميعهم ذلك العزم الذميم، فسور قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ﴾ ﴿30﴾ هذه الحالة والتقاذف الواقع بينهم بهذا الإجمال البالغ غاية الإيجاز، ألا ترى أن إقبال بعضهم على بعض يصور حالة تشبه المهاجمة والتقريع، وأن صيغة التلاوم مع حذف متعلق التلاوم تصور في ذهن السامع صوراً من لوم بعضهم على بعض.

وقد تلقى كل واحد منهم لوم غيره عليه بإحقاق نفسه بالملامة وإشراك بقيتهم فيها فقال كل واحد منهم: ﴿يَوَيْلًا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إلى آخره، فأسند هذا القول إلى جميعهم لذلك.

فجملة: ﴿قَالُوا يَوَيْلًا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿31﴾ إلى آخرها يجوز أن تكون مبيّنة لجملة: ﴿يَتْلَوْنَ﴾ أي: يلوم بعضهم بعضاً بهذا الكلام فتكون خبراً مستعملاً في التقريع على طريقة التعريض بغيره والإقرار على نفسه، مع التحسر والتندم بما أفاده ﴿يَوَيْلًا﴾. وذلك كلام جامع للملامة كلها ولم تعطف الجملة لأنها مبيّنة.

ويجوز أن تكون جواب بعضهم بعضاً عن لومه غيره، فكما أجمعوا على لوم بعضهم بعضاً كذلك أجمعوا على إجابة بعضهم بعضاً عن ذلك الملام فقال كل ملوم للآئمه: ﴿يَوَيْلًا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾... إلخ جواباً بتقرير ملامة والاعتراف بالذنب ورجاء العفو من الله وتعويضهم عن جنتهم خيراً منها إذا قبل توبتهم وجعل لهم ثواب الدنيا مع ثواب الآخرة، فيكون ترك العطف لأن فعل القول جرى في طريقة المحاوراة.

والإقبال: حقيقته المجيء إلى الغير من جهة وجهه، وهو مشتق من القُبل وهو ما يبدو من الإنسان من جهة وجهه ضد الإدبار، وهو هنا تمثيل لحال العناية باللوم.

واللوم: إنكار متوسط على فعل أو قول، وهو دون التوبيخ وفوق العتاب، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَرٌ لِّمُؤْمِنٍ﴾ في سورة المؤمنين [6].

والطغيان: تجاوز الحد المتعارف في الكبر والتعاضم، والمعنى: إنا كنا طاغين على حدود الله.

ثم استأنفوا عن ندامتهم وتوبتهم رجاءهم من الله أن يتوب عليهم فلا يؤاخذهم بذنبهم في الآخرة ولا في الدنيا فيمحو عقابه في الدنيا محواً كاملاً بأن يعوّضهم عن جنتهم التي قدر إتلافها بجنة أخرى خيراً منها.

وجملة: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ بدل من جملة الرجاء، أي: هو رجاء مشتمل على رغبة إليه بالقبول والاستجابة.

والتأكيد في ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ للاهتمام بهذا التوجه.

والمقصود من الإطناب في قولهم بعد حلول العذاب بهم تلقين الذين ضرب لهم هذا المثل بأن في مكنتهم الإنابة إلى الله بنبد الكفران لنعمته إذ أشركوا به من لا إنعام لهم عليه.

روي عن ابن مسعود أنه قال: بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم جنة يقال لها: الحيوان، ذات عنب يُحمل العنقود الواحد منه على بغل.
وعن أبي خالد اليماني⁽¹⁾ أنه قال: دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم.

وقرأ الجمهور: ﴿أَنْ يُبَدِّلَنَا﴾ بسكون الموحدة وتخفيف الدال. وقرأه نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿يُبَدِّلَنَا﴾ بفتح الموحدة وتشديد الدال وهما بمعنى واحد.

قال ابن الفرس في «أحكام القرآن» استدل بهذه الآية أبو محمد عبد الوهاب على أن من تعمّد إلى نقص النصاب قبل الحول قصداً للفرار من الزكاة أو خالط غيره، أو فارقه بعد الخلطة، فإن ذلك لا يسقط الزكاة عنه خلافاً للشافعي.

(1) كذا في تفسير القرطبي ونفائس المرجان والآلوسي. ووقع في تفسير الطبرسي: أنه اليمامي، ولم أقف على ترجمته.

ووجه الاستدلال بالآية أن أصحاب الجنة قصدوا بجذ الثمار إسقاط حق المساكين فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم.

[33] ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [33].

رجوع إلى تهديد المشركين المبدوء من قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾ [القلم: 17]، فالكلام فذلّة وخلاصة لما قبله وهو استئناف ابتدائي.

والمشار إليه باسم الإشارة هو ما تضمّنته القصة من تلف جنّتهم وما أحسوا به عند رؤيتها على تلك الحالة، وتندمهم وحسرتهم، أي: مثل ذلك المذكور يكون العذاب في الدنيا، فقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ مسند مقدم و﴿الْعَذَابُ﴾ مسند إليه. وتقديم المسند للاهتمام بإحضار صورته في ذهن السامع.

والتعريف في ﴿الْعَذَابُ﴾ تعريف الجنس وفيه توجيه بالعهد الذهني، أي: عذابكم الموعود مثل عذاب أولئك، والمماثلة في إتلاف الأرزاق والإصابة بقطع الثمرات.

وليس التشبيه في قوله: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ مثل التشبيه في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، ونحوه ما تقدم في سورة البقرة، بل ما هنا من قبيل التشبيه المتعارف، لوجود ما يصلح لأن يكون مشبهاً به العذاب وهو كون المشبه به غير المشبه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّلنَّاسِ﴾ [هود: 102] بخلاف ما في سورة البقرة فإن المشبه به هو عين المشبه لقصد المبالغة في بلوغ المشبه غاية ما يكون فيه وجه الشبه بحيث إذا أريد تشبيهه لا يلجأ إلا إلى تشبيهه بنفسه فيكون كناية عن بلوغه أقصى مراتب وجه الشبه.

والمماثلة بين المشبه والمشبه به ماثلة في النوع، وإلا فإن ما تُوعّدوا به من القحط أشد مما أصاب أصحاب الجنة وأطول.

وقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ دال على أن المراد بقوله: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ عذاب الدنيا.

وضمير ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير الغائب في قوله: ﴿بَلَوْنَهُمْ﴾ [القلم: 17]، وهم المشركون، فإنهم كانوا ينكرون عذاب الآخرة فهذّبوا بعذاب الدنيا، ولا يصح عوده إلى ﴿أَحَبَّ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: 17] لأنهم كانوا مؤمنين بعذاب الآخرة وشدته.

[34] ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ [34].

استئناف بياني لأن من شأن ما ذكر من عذاب الآخرة للمجرمين أن ينشأ عنه سؤال

في نفس السامع بقول: فما جزاء المتقين؟ وهو كلام معترض بين أجزاء الوعيد والتهديد وبين قوله: ﴿سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ [الْقَلَمُ: 16]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾. وقد أشعر بتوقع هذا السؤال قوله بعده: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجُرِمِ﴾ [الْقَلَمُ: 35] كما سيأتي.

وتقديم المسند على المسند إليه للاهتمام بشأن المتقين ليسبق ذكر صفاتهم العظيمة ذكر جزائها.

واللام للاستحقاق. و﴿عِنْدَ﴾ ظرف متعلق بمعنى الكون الذي يقتضيه حرف الجر، ولذلك قدّم متعلّقه معه على المسند إليه لأجل ذلك الاهتمام. وقد حصل من تقديم المسند بما معه طولٌ يثير تشويق السامع إلى المسند إليه. والعندية هنا عندية كرامة واعتناء.

وإضافة ﴿جَنَّتِ﴾ إلى ﴿النَّعِيمِ﴾ تفيد أنها عُرفت به فيُشار بذلك إلى ملازمة النعيم لها لأن أصل الإضافة أنها بتقدير لام الاستحقاق. فـ ﴿جَنَّتِ النَّعِيمَ﴾ مفيد أنها استحققتها النعيم لأنها ليس في أحوالها إلا حال نعيم أهلها، فلا يكون فيها ما يكون من جنات الدنيا من المتاعب مثل الحر في بعض الأوقات أو شدة البرد أو مثل الحشرات والزناير، أو ما يؤذي مثل شوك الأزهار والأشجار وروث الدواب وذرق الطير.

[35، 36] ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجُرِمِ﴾ [35] مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿36﴾.

فإن التفرّع تقتضي أن هذا الكلام متفرع على ما قبله من استحقاق المتقين جنات النعيم، ومقابلته بتهديد المشركين بعذاب الدنيا والآخرة، ولكن ذلك غير مصرّح فيه بما يناسب إن يتفرّع عليه هذا الإنكار والتوبيخ، فتعيّن تقدير إنكار من المعرض بهم ليتوجه إليهم هذا الاستفهام المفرّع، وهو ما أشرنا إليه آنفاً من توقع أو وقوع سؤال.

والاستفهام وما بعده من التوبيخ، والتخطئة، والتهكم على إدلالهم الكاذب، مؤذن بأن ما أنكر عليهم ووبّخوا عليه وسفّخوا على اعتقاده كان حديثاً قد جرى في نواديهم أو استسخروا به على المسلمين في معرض جحود أن يكون بعث، وفرضهم أنه على تقدير وقوع البعث والجزاء لا يكون للمسلمين مزية وفضل عند وقوعه.

وعن مقاتل لما نزلت آية: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ [الْقَلَمُ: 34] قالت قریش: إن كان ثمة جنة نعيم فلنا فيها مثل حظنا وحظهم في الدنيا، وعن ابن عباس أنهم قالوا: إنا نعطي يومئذ خيراً مما تُعطون، فنزل قوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجُرِمِ﴾ [35] الآية.

والهمزة للاستفهام الإنكاري، فرّع إنكار التساوي بين المسلمين والكافرين على ما

سبق من اختلاف جزاء الفريقين، فالإنكار متسلط على ما دار بين المشركين من القول عند نزول الآية السابقة أو عند نزول ما سبقها من آي القرآن التي قابلت بين جزاء المؤمنين وجزاء المشركين كما يقتضيه صريحاً قوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [36] إلى قوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 36 - 39].

وإنكار جعل الفريقين متشابهين كناية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الآخرة وحرمان المشركين منه، لأن نفي التساوي وارد في معنى التضاد في الخير والشر في القرآن وكلام العرب، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [18] [السجدة: 18]، وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: 20]، وقال: ﴿أَمَّا تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 28]، وقال السموأل أو الحارثي:

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول
وإذا انتفى أن يكون للمشركين حظ في جزاء الخير انتفى ما قالوه من أنهم أفضل حظاً في الآخرة من المسلمين كما هو حالهم في الدنيا بطريق فحوى الخطاب.

وقوله: ﴿أَتَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [36] كلام موجه إلى المشركين وهم المقصود بـ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾، عبر عنهم بطريق الإظهار دون ضمير الخطاب لما في وصف ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ من المقابلة ليكون في الوصفين إيماء إلى سبب نفي المماثلة بين الفريقين.

فلذلك لم يكن ضمير الخطاب في قوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [36] التفاتاً عن ضمائر الغيبة من قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ نُدُّهُمْ فَيُكَفِّرُونَ﴾ [9] [القلم: 9]، وقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾ [القلم: 17].

وإنما تغير الضمير إلى ضمير الخطاب تبعاً لتغير توجيه الكلام، لأن شرط الالتفات أن يتغير الضمير في سياق واحد.

و﴿مَا لَكُمْ﴾ استفهام إنكاري لحالة حكمهم، ف﴿مَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في سورة البقرة [246].

و﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهام إنكاري ثان في موضع الحال من ضمير ﴿لَكُمْ﴾، أي: انتفى أن يكون لكم شيء في حال حكمكم، أي: فإن ثبت لهم كان منكراً باعتبار حالة حكمهم.

والمعنى: لا تحكمون أنكم مساوون للمسلمين في جزاء الآخرة أو مفضلون عليهم.

[37، 38] ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿38﴾.

إضراب انتقال من توبيخ إلى احتجاج على كذبهم.
والاستفهام المقدر مع ﴿أَمْ﴾ إنكار لأن يكون لهم كتاب، إنكاراً مبنياً على الفرض وإن كانوا لم يدعوه.

وحاصل هذا الانتقال والانتقالات الثلاثة بعده وهي: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ [القلم: 39]... إلخ، ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ (40) [القلم: 40]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ [القلم: 41] إلخ، أن حكمكم هذا لا يخلو من أن يكون سنده كتاباً سماوياً نزل من لدنا، وإما أن يكون سنده عهداً منا بأننا نعطيكم ما تترجون، وإما أن يكون لكم كفيل علينا، وإما أن يكون تعويلاً على نصر شركائكم.

وتقديم ﴿لَكُمْ﴾ على المبتدأ وهو ﴿كِتَابٌ﴾ لأن المبتدأ نكرة وتنكيره مقصود للنوعية، فكان تقديم الخبر لازماً.

وضمير ﴿فِيهِ﴾ عائد إلى الحكم المفاد من قوله: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 36]، أي: كتاب في الحكم.

و«في» للتعليل أو الظرفية المجازية كما تقول: ورد كتاب في الأمر بكذا، أو في النهي عن كذا، فيكون ﴿فِيهِ﴾ ظرفاً مستقراً صفة لـ ﴿كِتَابٌ﴾. ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى ﴿كِتَابٌ﴾ ويتعلق المجرور بفعل: ﴿تَدْرُسُونَ﴾. جعلت الدراسة العميقة بمزيد التبصر في ما يتضمنه الكتاب بمنزلة الشيء المظروف في الكتاب كما تقول: لنا درس في كتاب سيبويه.

وفي هذا إدماج بالتعريض بأنهم أميون ليسوا أهل كتاب وأنهم لما جاءهم كتاب لهديهم ولحاقهم بالأمم ذات الكتاب كفروا نعمته وكذبوه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (10) [الأنبياء: 10]، وقال: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهْدَى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: 157].

وجملة: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ (38) في موضع مفعول ﴿تَدْرُسُونَ﴾ على أنها محكي لفظها، أي: تدرسون هذه العبارة كما جاء قوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (78) سَلِّمُوا عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿79﴾ [الصافات: 78، 79]، أي: تدرسون جملة: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ (38).

ويكون ﴿فِيهِ﴾ توكيداً لفظياً لنظيرها من قوله: ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾، قصد من إعادتها مزيد ربط الجملة بالتي قبلها كما أعيدت كلمة «من» في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ [النحل: 67]، وأصله: تتخذون سكرًا.

و﴿تَخَيَّرُونَ﴾ أصله تتخيرون بتاءين، حُذفت إحداهما تخفيفاً. والتخير: تكلف الخير، أي: تطلب ما هو في أخير. والمعنى: إن في ذلك الكتاب لكم ما تختارون من خير الجزاء.

[39] ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَنٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ﴾.

﴿أَمْ﴾ للانتقال إلى دليل آخر وهو نفي أن يكون مستند زعمهم عهداً أخذوه على الله لأنفسهم أن يعاملهم يوم القيامة بما يحكمون به لأنفسهم، فالاستفهام اللازم تقديره بعد ﴿أَمْ﴾ إنكاري و﴿بَلِغَةٌ﴾ مؤكدة. وأصل البالغة: الواصلة إلى ما يُطلب بها، وذلك استعارة لمعنى مغلفة، شبهت بالشيء البالغ إلى نهاية سيره. وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ﴾ [الأنعام: 149].

وقوله: ﴿عَلَيْنَا﴾ صفة ثانية لـ ﴿أَيْمَنٌ﴾، أي: أقسمناها لكم لإثبات حقكم علينا. و﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ صفة ثالثة لـ ﴿أَيْمَنٌ﴾، أي: أيمان مؤبدة لا تحلّة منها، فحصل من الوصفين أنها عهود مؤكدة ومستمرة طول الدهر، فليس يوم القيامة منتهى الأخذ بتلك الأيمان بل هو تنصيب على التأييد كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ في سورة الأحقاف [5].

ويتعلق (إلى يوم القيامة) بالاستقرار الذي في الخبر في قوله: ﴿لَكُمْ أَيْمَنٌ﴾، ولا يحسن تعلقه بـ ﴿بَلِغَةٌ﴾ تعلق الظرف اللغو لأنه يصير ﴿بَلِغَةٌ﴾ مستعملاً في معنى مشهور قريب من الحقيقة، ومحمل ﴿بَلِغَةٌ﴾ على الاستعارة التي ذكرنا أجزل، وجملة: ﴿إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ﴾ بيان لـ ﴿أَيْمَنٌ﴾، أي: أيمان بهذا اللفظ.

ومعنى ما تحكمون تأمرون به دون مراجعة، يقال: نزلوا على حكم فلان، أي: لم يعينوا طلبة خاصة ولكنهم وكلوا تعيين حقهم إلى فلان، قال خطاب أو حطان بن المعلّى:

أنزلني الدهر على حكمه من شامخ عالٍ إلى خفض
أي: دون اختيار لي ولا عمل عملته، فكأنني حكمت الدهر فأنزلني من معاقلي
وتصرف فيّ كما شاء.

ومن أقوالهم السائرة مسرى الأمثال: «حُكْمُكَ مُسَمَّطٌ» بضم الميم وفتح السين وفتح الميم الثانية مشددة، أي: لك حكمك نافذاً لا اعتراض عليك فيه. وقال ابن عثمة:
لك المربع منها والصفايا وحُكْمُكَ والنشيطَةُ والفُضُولُ

[40] ﴿سَلَّمْتُ إِلَهُمُ إِلَهُكُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾.

استئناف بياني عن جملة: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغْتُمْ﴾ [القلم: 39]، لأن الأيمان وهي العهود تقتضي الكفلاء عادة، قال الحارث بن حلزة:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدّم فيه العهود والكفلاء
فلما ذكر إنكار أن يكون لهم عهود، كُمل ذلك بأن يطلب منهم أن يعينوا من هم
الزعماء بتلك الأيمان.

فالاستفهام في قوله: ﴿سَلَّمْتُ إِلَهُمُ إِلَهُكُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ مستعمل في التهكم زيادة على الإنكار عليهم.

والزعيم: الكفيل وقد جعل الزعيم أحداً منهم زيادة في التهكم وهو أن جعل
الزعيم لهم واحداً منهم لعزتهم ومناجاتهم لكبرياء الله تعالى.

[41] ﴿أَمْ لَمْ شُرَكَاءُ فُلْيَآتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

﴿أَمْ﴾ إضراب انتقالي ثالث إلى إبطال مستند آخر مفروض لهم في سند قولهم: إنا
نعطى مثل ما يُعطى المسلمون أو خيراً مما يُعطونه، وهو أن يُفرض أن أصنامهم تنصرهم
وتجعل لهم حظاً من جزاء الخير في الآخرة.

والمعنى: بل أثبتت لهم، أي: لأجلهم ونفعهم شركاء، أي: شركاء لنا في الإلهية
في زعمهم، فحذف متعلق ﴿شُرَكَاءُ﴾ لشهرته عندهم فصار شركاء بمنزلة اللقب، أي: أم
آلهتهم لهم فليأتوا بهم لينفعوهم يوم القيامة.

واللام في ﴿لَهُمْ﴾ لام الأجل، أي: لأجلهم بتقدير مضاف، أي: لأجل نصرهم،
فاللام كاللام في قول أبي سفيان يوم أحد: «لنا العزى ولا عزى لكم».

وتنكير ﴿شُرَكَاءُ﴾ في حيز الاستفهام المستعمل في الإنكار يفيد انتفاء أن يكون أحد
من الشركاء، أي: الأصنام لهم، أي: لنفعهم فيعم أصنام جميع قبائل العرب المشترك
في عبادتها بين القبائل، والمخصوصة ببعض القبائل.

وقد نقل أسلوب الكلام من الخطاب إلى الغيبة لمناسبة وقوعه بعد: ﴿سَلَّمْتُ إِلَهُمُ
بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: 40]، لأن أخص الناس بمعرفة أحقية هذا الإبطال هو النبي ﷺ،
وذلك يستتبع توجيه هذا الإبطال إليهم بطريقة التعريض.

والتفريع في قوله: ﴿فُلْيَآتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ تفريع على نفي أن تنفعهم آلهتهم، فتعين أن
أمر ﴿فُلْيَآتُوا﴾ أمر تعجيز.

وإضافة ﴿شُرَكَاءَ﴾ إلى ضميرهم في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ لإبطال صفة الشركة في الإلهية عنهم، أي: ليسوا شركاء في الإلهية إلا عند هؤلاء، فإن الإلهية الحق لا تكون نسبية بالنسبة إلى فريق أو قبيلة.

ومثل هذا الإطلاق كثير في القرآن، ومنه قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف: 195].

[42، 43] ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿42﴾ خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةً وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ ﴿43﴾.

يجوز أن يكون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ [القلم: 41]، أي: فليأتوا بالمزعومين يوم القيامة. وهذا من حُسن التخلص إلى ذكر أهوال القيامة عليهم. ويجوز أن يكون استثناءً متعلقاً بمحذوف تقديره: اذكر يوم يُكْشَفُ عن ساق ويُدْعَوْنَ إلى السجود... إلخ، للتذكير بأهوال ذلك اليوم.

وعلى كلا الوجهين في تعلق ﴿يَوْمَ﴾ فالمراد باليوم يوم القيامة.

والكشف عن ساق: مثلٌ لشدة الحال وصعوبة الخطب والهول، وأصله أن المرء إذا هلع أن يُسرع في المشي ويشمر ثيابه فيكشف عن ساقه، كما يقال: شمر عن ساعد الجد، وأيضاً كانوا في الروع والهزيمة تشمر الحرائر عن سوقهن في الهرب أو في العمل فتتكشف سوقهن بحيث يشغلهن هول الأمر عن الاحتراز من إبداء ما لا تدينه عادة، فيقال: كشفت عن ساقها، أو شمرت عن ساقها، أو أبدت عن ساقها. قال عبدالله بن قيس الرقيّات:

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن خدام العقيلة العذراء

وفي حديث غزوة أحد قال أنس بن مالك: «انهزم الناس عن النبي ﷺ ولقد رأيت عائشة وأم سليم وإنهما لمشمّرتان أرى خدَم سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تُفرغانها في أفواه القوم ثم ترجعان فتملأنها...» إلخ، فإذا قالوا: كشف المرء عن ساقه فهو كناية عن هول أصابه وإن لم يكن كشف ساق. وإذا قالوا: كشف الأمر عن ساق، فقد مثّلوه بالمرأة المروعة، وكذلك كشفت الحرب عن ساقها، كل ذلك تمثيل إذ ليس ثمة ساق، قال حاتم:

فتى الحرب إن عصّت به الحرب عصّها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرّا

وقال جد طرفة من الحماسة:

كشفت لهم عن ساقها ويداً من الشَّرِّ البواح
وقرأ ابن عباس ﴿يَوْمَ تَكْشَفُ﴾ بمثناة فوقية وبصيغة البناء للفاعل على تقدير تكشف
الشدة عن ساقها أو تكشف القيامة، وقريب من هذا قولهم: قامت الحرب على ساق.
والمعنى: يوم تبلغ أحوال الناس منتهى الشدة والروع، قال ابن عباس: يكشف عن
ساق: عن كرب وشدة، وهي أشد ساعة في يوم القيامة.

وروى عبد بن حميد وغيره عن عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن هذا، فقال: إذا
خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب، أما سمعتم قول الشاعر:
صبراً عناقُ إنه لشِرباق قد سنَّ لي قومك ضرب الأعناق⁽¹⁾
وقامت الحرب بنا على ساق

وقال مجاهد: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾: شدة الأمر.

وجملة: ﴿وَيَدْعُونَ﴾ ليس عائداً إلى المشركين مثل ضمير: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾ [القلم: 17]، إذ لا يساعد قوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ﴾، فإن المشركين لم يكونوا في الدنيا
يُدعون إلى السجود. فالوجه أن يكون عائداً إلى غير مذكور، أي: ويدعى مدعوون فيكون
تعريضاً بالمنافقين بأنهم يحشرون مع المسلمين ويمتحن الناس بدعائهم إلى السجود لتمييز
المؤمنون الخالص عن غيرهم تميز تشريف فلا يستطيع المنافقون السجود فيفتضح كفرهم.

قال القرطبي عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود: فمن كان يعبد الله مخلصاً
يخرُ ساجداً له ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأن في ظهورهم السفافيد اهـ.

فيكون قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ﴾ إدماجاً لذكر بعض ما يحصل من أحوال
ذلك اليوم.

وفي صحيح مسلم من حديث الرؤية وحديث الشفاعة عن أبي سعيد الخدري أن
النبي ﷺ قال: «فيُكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله
له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد رياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن
يسجد خرَّ على قفاه...» الحديث، فيصلح ذلك تفسيراً لهذه الآية.

وقد اتبع فريق من المفسرين هذه الرواية وقالوا: يكشف الله عن ساقه، أي: عن

(1) شربق مقلوب شبرق، أي: مزق، ويقال: ثوب شرباق كقرطاس.

مثل الرجل ليراها الناس، ثم قالوا: هذا من المتشابه على أنه روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَنْ سَاقٍ﴾ قال: «يكشف عن نور عظيم يخرون له سجداً».

ورويت أخبار أخرى ضعيفة لا جدوى في ذكرها.

و﴿السُّجُود﴾ الذي يُدعون إليه: سجود الضراعة والخضوع لأجل الخلاص من أهوال الموقف.

وعدم استطاعتهم السجود لسلب الله منهم الاستطاعة على السجود ليعلموا أنهم لا رجاء لهم في النجاة.

والذي يدعوهم إلى السجود الملائكة الموكلون بالمحشر بأمر الله تعالى كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ إلى قوله: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: 6 - 8]، أو يدعو بعضهم بعضاً بإلهام من الله تعالى، وهو نظير الدعوة إلى الشفاعة في الأثر المروي: «فيقول بعضهم لبعض: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من موقفنا هذا».

وخشوع الأبصار: هيئة النظر بالعين بذلة وخوف، استعير له وصف ﴿خَشِعَةً﴾ لأن الخاشع يكون مطأطئاً مخفياً.

و﴿رَهَقَهُمْ﴾: تحل بهم وتقترب منهم بحرص على التمكن منهم، رَهَقَ من باب فرح، قال تعالى: ﴿رَهَقَهَا قَرَّةٌ﴾ ﴿٤١﴾ [عبس: 41].

وجملة: ﴿رَهَقَهُمْ ذَلَّةٌ﴾ حال ثانية من ضمير ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾.

وجملة: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ معترضة بين ما قبلها وما تفرّع عنها، أي: كانوا في الدنيا يُدعون إلى السجود لله وحده وهم سالمون من مثل الحالة التي هم عليها في يوم الحشر. والواو للحال وللاعتراض.

وجملة: ﴿وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ حال من ضمير ﴿يُدْعَوْنَ﴾، أي: وهم قادرون لا علة تعوقهم عنه في أجسادهم. والسلامة: انتفاء العلل والأمراض بخلاف حالهم يوم القيامة فإنهم مُلجأون لعدم السجود.

[44، 45] ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾.

الفاء لتفريع الكلام الذي عطفته على الكلام الذي قبله لكون الكلام الأول سبباً في ذكر ما بعده، فبعد أن استوفي الغرض من موعظتهم ووعدهم وتزييف أوهامهم أعقب

بهذا الاعتراض تسلية للرسول ﷺ بأن الله تكفل بالانتصاف من المكذبين ونصره عليهم.

وقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ﴾ ونحوه يفيد تمثيلاً لحال مفعول «ذر» في تعهده بأن يكفي مؤونة شيء دون استعانة بصاحب المؤونة بحال من يرى المخاطب قد شرع في الانتصار لنفسه ورأى أنه لا يبلغ بذلك مبلغ مفعول «ذر» لأنه أقدر من المعتدى عليه في الانتصاف من المعتدي، فيتفرغ له ولا يطلب من صاحب الحق إعانة له على أخذ حقه، ولذلك يؤتى بفعل يدل على طلب الترك ويؤتى بعده بمفعول معه ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل: 11]، ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: 11].

وقال السهيلي في «الروض الأنف» في قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [11] [المدثر: 11] فيه تهديد ووعيد، أي: دعني وإياه فستري ما أصنع، وهي كلمة يقولها المغتاظ إذا اشتد غيظه وغضبه وكره أن يشفع لمن اغتاظ عليه، فمعنى الكلام: لا شفاعة في هذا الكافر.

والواو: واو المعية وما بعدها مفعول معه، ولا يصح أن تكون الواو عاطفة لأن المقصود: اتركني معهم.

و﴿الْحَدِيثِ﴾ يجوز أن يراد به القرآن وتسميته حديثاً لما فيه من الإخبار عن الله تعالى، وما فيه من أخبار الأمم وأخبار المعيّبات، وقد سمي بذلك في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ في سورة الأعراف [185]، وقوله تعالى: ﴿أَفَبِمَا هَذَا الْحَدِيثِ تَعْبَهُونَ﴾ [59] ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ الآية في سورة النجم [59 - 60]، وقوله: ﴿أَفَبِمَا هَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾ [81] في سورة الواقعة [81].

واسم الإشارة على هذا للإشارة إلى مقدّر في الذهن مما سبق نزوله من القرآن.

ويجوز أن يكون المراد بالحديث الإخبار عن البعث وهو ما تضمّنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ الآية [القلم: 42].

ويكون اسم الإشارة إشارة إلى ذلك الكلام، والمعنى: حسبك إيقاعاً بهم أن تكل أمرهم إليّ فأنا أعلم كيف أنتصف منهم فلا تشغل نفسك بهم وتوكل عليّ.

ويتضمن هذا تعريضاً بالتهديد للمكذبين لأنهم يسمعون هذا الكلام.

وهذا وعدٌ للنبي ﷺ بالنصر ووعيدٌ لهم بانتقام في الدنيا لأنه تعجيل لتسلية الرسول.

وجملة: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، بيان لمضمون: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا

الْحَدِيثِ﴾ باعتبار أن الاستدراج والإملاء يعقبهما الانتقام، فكأنه قال: سنأخذهم بأعمالهم فلا تستبطئ الانتقام فإنه محقق وقوعه ولكن يؤخر لحكمة تقتضي تأخير.

والاستدراج: استنزال الشيء من درجة إلى أخرى في مثل السلم، وكان أصل السين والتاء فيه للطلب، أي: محاولة التدرج، أي: التنقل في الدرج، والقرينة تدل على إرادة النزول إذ التنقل في الدرج يكون صعوداً ونزولاً، ثم شاع إطلاقه على معاملة حسنة لمسيء إلى إبانٍ مقدّر عند حلوله عقابُه.

ومعنى: ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن استدراجهم المفضي إلى حلول العقاب بهم يأتيهم من أحوال وأسباب لا يتفطنون إلى أنها مفضية بهم إلى الهلاك، وذلك أجلب لقوة حسرتهم عند حلول المصائب بهم، ف ﴿مَنْ﴾ ابتدائية، و﴿حَيْثُ﴾ للمكان المجازي، أي: الأسباب والأفعال والأحوال التي يحسبونها تأتيهم بخير فتتكشف لهم عن الضرر. ومفعول ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ضمير محذوف عائد إلى ﴿حَيْثُ﴾.

و﴿أَمْلِي﴾: مضارع أملى، مقصور بمعنى أمهل وأخر، وهو مشتق من المَلَا مقصوراً، وهو الحين والزمن، ومنه قيل لليل والنهار: المَلَوَان، فيكون أملى بمعنى طَوَّل في الزمان، ومصدره إملاء.

ولام ﴿لَمْ﴾ هي اللام المسماة لام التبيين، وهي التي تبين اتصال مدخولها بعامله لخفاء فيه، فإن اشتقاق فعل أملى من المَلَوِ وهو الزمان اشتقاق غيرُ بَيِّن لخفاء معنى الحدث فيه.

ونون ﴿سَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ نون المتكلم المشارك، والمراد الله وملائكته الموكلون بتسخير الموجودات وربط أحوال بعضها ببعض على وجه يتم به مراد الله، فلذلك جيء بنون المتكلم المشارك، فالاستدراج تعلق تنجيزي لقدرة الله فيحصل بواسطة الملائكة الموكلين كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُ مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتُهُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: 12] الآية.

وأما الإملاء فهو علم الله بتأجيل أخذهم. وتعلّق العلم ينفرد به الله فلذلك جيء معه بضمير المفرد. وحصل في هذا الاختلاف تفنن في الضميرين.

ونظير هذه الآية قوله في الأعراف [182 - 183]: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايُنِنَا سَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [182] وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ [183] باعتبار أنهما وعد للنبي ﷺ بالنصر وتثبيت له بأن استمرار الكافرين في نعمة إنما هو استدراج وإملاء وضرب يشبه الكيد وأن الله بالغ أمره فيهم، وهذا كقوله: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَدِ﴾ [196] مَتَّعٌ قَلِيلٌ [آل عمران: 196 - 197].

وموقع ﴿إِنَّ﴾ موقع التسبب والتعليل كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ في سورة آل عمران [96].

وإطلاق الكيد على إحسان الله لقوم مع إرادة إلحاق السوء بهم إطلاق على وجه الاستعارة لمشابهته فعل الكائد من حيث تعجيل الإحسان وتعقيبه بالإساءة.

[46] ﴿أَمْ سَأَلْتَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ (46).

إضراب آخر للانتقال إلى إبطال آخر من إبطال معاذيرهم في إعراضهم عن استجابة دعوة النبي ﷺ المبتدئ من قوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ [القلم: 36] - [37]، ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَنٌ﴾ [القلم: 39]، ﴿أَمْ لَمْ شُرَكَاؤُكُمْ﴾ [القلم: 41]، فإنه بعد أن نفى أن تكون لهم حجة تؤيد صلاح حالهم، أو وعد لهم بإعطاء ما يرغبون، أو أولياء ينصرونهم، عطف الكلام إلى نفى أن يكون عليهم ضرر في إجابة دعوة الإسلام، استقصاء لقطع ما يُحتمل من المعاذير بافتراض أن الرسول ﷺ سألهم أجراً على هديه إياهم فصدهم عن إجابته ثقل غرم المال على نفوسهم.

فالاستفهام الذي تؤذن به ﴿أَمْ﴾ استفهام إنكار لفرض أن يكون ذلك مما يخامر نفوسهم فرضاً اقتضاه استقرار نواياهم من مواقع الإقبال على دعوة الخير والرشد. والمغرم: ما يفرض على المرء أدائه من ماله لغير عوض ولا جناية. والمُنْقَل: الذي حُمِلَ عليه شيء ثَقِيل، وهو هنا مجاز في الإشفاق. والفاء للتفريع والتسبب، أي: فيتسبب على ذلك أنك شققت عليهم فيكون ذلك اعتذاراً منهم عن عدم قبول ما تدعوهم إليه.

و﴿مِّنْ مَّغْرَمٍ﴾ متعلق بـ ﴿مُثْقَلُونَ﴾ و﴿مِّنْ﴾ ابتدائية، وهو ابتداء مجازي بمعنى التعليل، وتقديم المعمول على عامله للاهتمام بموجب المشقة قبل ذكرها مع الرعاية على الفاصلة.

[47] ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ (47).

إضراب آخر انتقل به من مدارج إبطال معاذير مفروضة لهم أن يتمسكوا ببعضها تعلقة لإعراضهم عن قبول دعوة القرآن، قطعاً لما عسى أن ينتحلوه من المعاذير على طريقة الاستقراء ومنع الخلو.

وقد جاءت الإبطالات السالفة متعلقة بما يفرض لهم من المعاذير التي هي من قبيل مستندات من المشاهدات، وانتقل الآن إلى إبطال من نوع آخر، وهو إبطال حجة مفروضة يستندون فيها إلى علم شيء من المعلومات المغيبات عن الناس. وهي مما استأثر الله بعلمه وهو المعبر عنه بالغيب، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ في سورة البقرة [3]. وقد استقر عند الناس كلهم أن أمور الغيب لا يعلمها إلا الله أو من أطلع من عباده على بعضها.

والكلام هنا على حذف مضاف، أي: أعندهم علم الغيب كما قال تعالى: ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوْاْ بِرِئِّىْ﴾ ﴿35﴾ في سورة النجم [35].

فالمراد بقوله: ﴿عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أنه حصل في علمهم ومكنتهم، أي: باطلاع جميعهم عليه أو بإبلاغ كبرائهم إليهم وتلقيهم ذلك منهم.

وتقديم ﴿عِنْدَهُمْ﴾ على المبتدأ وهو معرفة لإفادة الاختصاص، أي: صار علم الغيب عندهم لا عند الله.

ومعنى يكتبون: يفرضون ويعيّنون كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فَمَن قُتِلَ﴾ [البقرة: 178]، وقوله: ﴿كُتِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ﴾ [النساء: 24]، أي: فهم يفرضون لأنفسهم أن السعادة في النور من دعوة الإسلام ويفرضون ذلك على الدهماء من أتباعهم.

ومجئ جملة: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ متفرعة عن جملة ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾، بناءً على أن ما في الغيب مفروض كونه شاهداً على حكمهم لأنفسهم المشار إليه بقوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿36﴾ [القلم: 36] كما علمته آنفاً.

[48 - 50] ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ ﴿48﴾ ﴿لَوْلَا أَن تَدْرَكُهُ يَمَةً مِّن رَّبِّهِ لَئِيدٌ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ﴿49﴾ ﴿فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿50﴾.

تفريع على ما تقدم من إبطال مزاعم المشركين ومطاعنهم في القرآن والرسول ﷺ، وما تبعه من تكفل الله لرسوله ﷺ بعاقبة النصر، وذلك أن شدته على نفس النبي ﷺ من شأنها أن تُدخل عليه ياساً من حصول رغبته ونجاح سعيه، ففرّج عليه تشيته وحته على المصابرة واستمراره على الهدى، وتعريفه بأن ذلك التثبيت يرفع درجته في مقام الرسالة ليكون من أولي العزم، فذكره بمثل يونس عليه السلام إذ استعجل عن أمر ربه، فأدّبه الله ثم اجتباه وتاب عليه وجعله من الصالحين، تذكيراً مراداً به التحذير.

والمراد بحكم الرب هنا أمره، وهو ما حمّله إياه من الإرسال والاضطلاع بأعباء الدعوة. وهذا الحكم هو المستقرأ من آيات الأمر بالدعوة التي أولها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ﴾ ﴿1﴾ ﴿فَإَنْذِرْ﴾ ﴿2﴾ إلى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ﴿7﴾ [المدثر: 1 - 7]. فهذا هو الصبر المأمور به في هذه الآية أيضاً. ولا جرم أن الصبر لذلك يستدعي انتظار الوعد بالنصر وعدم الضجر من تأخره إلى أمد المقدر في علم الله.

وصاحب الحوت: هو يونس بن متى، وقد تقدم ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُوسُفَ﴾ في سورة الأنعام [84 - 86].

والصاحب: الذي يصحب غيره، أي: يكون معه في بعض الأحوال أو في معظمها، وإطلاقه على يونس لأن الحوت التقمه ثم قذفه فصار «صاحب الحوت» لقباً له لأن تلك الحالة معية قوية.

وقد كانت مؤاخذه يونس ﷺ على ضجره من تكذيب قومه وهم أهل نينوى كما تقدم في سورة الصافات.

و﴿إِذْ﴾ ظرف زمان وهو وجملته متعلق باستقرار منصوب على الحال، أي: في حالة وقت ندائه ربه، فإنه ما نادى ربه إلا لإنقاذه من كربته الذي وقع فيه بسبب مغاضبته وضجره من قومه، أي: لا يكن منك ما يلجئك إلى مثل ندائه.

والمكظوم: المحبوس المسدودة عليه يقال: كظم الباب أغلقه وكظم النهر إذا سدّه. والمعنى: نادى في حال حبسه في بطن الحوت.

وجيء بهذه الحال جملة اسمية لدلائلها على الثبات، أي: هو في حبس لا يرجى لمثله سراح، وهذا تمهيد للامتنان عليه بالنجاة من مثل ذلك الحبس.

وقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُ نِعْمَتِي مِنْ رَبِّي لَنُذِرَ بِالْعَرَاءِ...﴾ إلخ، استئناف بياني ناشئ عن مضمون النهي من قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَحَابِ الْمَثُوتِ إِذْ نَادَى...﴾ إلخ، لأنه يتضمن التحذير من الوقوع في كرب من قبيل كرب يونس ثم لا يدري كيف يكون انفراجه.

و﴿أَنْ﴾ يجوز أن تكون مخففة من (أَنْ)، واسمها ضمير شأن محذوف، وجملة ﴿تَدَارَكُ نِعْمَتِي مِنْ رَبِّي﴾ خبرها. ويجوز أن تكون مصدرية، أي: لولا تدارك رحمة من ربه.

والتدارك: تفاعل من الدَّرَك بالتحريك وهو اللحاق، أي: أن يلحق بعض السائرين بعضاً وهو يقتضي تسابقهم، وهو هنا مستعمل في مبالغة إدراك نعمة الله إياه.

والنبذ: الطرح والترك. والعراء ممدوداً: الفضاء من الأرض الذي لا نبات فيه ولا بناء.

والمعنى: لنبذه الحوت أو البحر بالفضاء الخالي، لأن الحوت الذي ابتلعه من النوع الذي يرضع فراخه فهو يقترب من السواحل الخالية المترامية الأطراف خوفاً على نفسه وفراخه.

والمعنى: أن الله أنعم عليه بأن أنبت عليه شجرة اليقطين كما في سورة الصافات.

وأدمج في ذلك فضل التوبة والضراعة إلى الله، وأنه لولا توبته وضراعه إلى الله وإنعام الله عليه نعمة بعد نعمة لقذفه الحوت من بطنه ميتاً فأخرجه الموج إلى الشاطئ فلكان مثله للناظرين أو حياً منبوذاً بالعراء لا يجد إسعافاً، أو لنجى بعد لأيٍ والله

غاضب عليه، فهو مذموم عند الله مسخوط عليه. وهي نعم كثيرة عليه إذ أنقذه من هذه الورطات كلها إنقاذاً خارقاً للعادة.

وهذا المعنى طوي طياً بديعاً وأشير إليه إشارة بليغة بجملة: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ (49).

وطريقة المفسرين في نشر هذا المطوي أن جملة: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ في موضع الحال وأن تلك الحال قيد في جواب ﴿لَوْلَا﴾، فتقدير الكلام: لولا أن تداركه نعمة من ربه لنُبذَ بالعراء نبذاً ذميماً، أي: ولكن يونس نبذ بالعراء غير مذموم.

والذي حملهم على هذا التأويل أن نبذه بالعراء واقع فلا يستقيم أن يكون جواباً للشرط، لأن ﴿لَوْلَا﴾ تقتضي امتناعاً لوجود، فلا يكون جوابها واقعاً، فتعين اعتبار تقييد الجواب بجملة الحال، أي: انتفى ذمه عند نبذه بالعراء.

ويلوح لي في تفصيل النظم وجه آخر وهو أن يكون جواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوفاً دلّ عليه قوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مع ما تفيده صيغة الجملة الاسمية من تمكن الكظم كما علمت آنفاً، فتلك الحالة إذا استمرت لم يحصل نبذه بالعراء، ويكون الشرط بـ ﴿لَوْلَا﴾ لاحقاً لجملة: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، أي: لبقى مكظوماً، أي: محبوساً في بطن الحوت أبداً؛ وهو معنى قوله في سورة الصافات [143 - 144]: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ﴾ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144)، وتجعل جملة: ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ استئنافاً بيانياً ناشئاً عن الإجمال الحاصل من موقع ﴿لَوْلَا﴾.

واللام فيها لام القسم للتحقيق لأنه خارق للعادة فتأكيده لرفع احتمال المجاز. والمعنى: لقد نُبِذَ بالعراء وهو مذموم. والمذموم: إما بمعنى المذنب لأن الذنب يقتضي الذم في العاجل والعقاب في الآجل، وهو معنى قوله: في آية الصافات [142]: ﴿فَالنَّفْعُ الْخَوْثُ وَهُوَ مُلِمٌّ﴾ (142)، وإما بمعنى العيب وهو كونه عارياً جائعاً فيكون في معنى قوله: ﴿فَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (145) [الصافات: 145] فإن السقم عيب أيضاً.

وتنكير ﴿نِعْمَةٌ﴾ للتعظيم لأنها نعمة مضاعفة مكررة.

وفرّع على هذا النفي الإخبار بأن الله اجتبه وجعله من الصالحين.

والمراد بـ ﴿الْمُصَلِّحِينَ﴾ المفضلون من الأنبياء، وقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (83) [الشعراء: 83]، وذلك إيماء إلى أن الصلاح هو أصل الخير ورفع الدرجات، وقد تقدم في قوله: ﴿كَانَتْ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ في سورة التحريم [10].

قال ابن عباس رد الله إلى يونس الوحي وشفعه في نفسه وفي قومه.

[51، 52] ﴿وَإِنَّ يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿51﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿52﴾﴾.

عطف على جملة: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ يَهْدِ اللَّهُ ذَلِيلًا﴾ [القلم: 44]، عرّف الله رسوله ﷺ بعض ما تنطوي عليه نفوس المشركين نحو النبي ﷺ من الحقد والغيط وإضمار الشر عندما يسمعون القرآن.

والزَّلَق: بفتحتين زلل الرجل من ملاسة الأرض من طين عليها أو دهن، وتقدم في قوله تعالى: ﴿فَنُصِصَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ في سورة الكهف [40].

ولما كان الزلق يفضي إلى السقوط غالباً أطلق الزلق وما يشتق منه على السقوط والانحاض على وجه الكناية، ومنه قوله هنا: ﴿لَيَزْلِقُونَكَ﴾، أي: يسقطونك ويصرعونك.

وعن مجاهد: أن ينفذونك بنظرهم. وقال القرطبي: يقال: زلق السهم وزهق، إذا نفذ، ولم أراه لغيره، قال الراغب، قال يونس: لم يسمع الزلق والإزلاق إلا في القرآن اهـ.

قلت: وعلى جميع الوجوه فقد جعل الإزلاق بأبصارهم على وجه الاستعارة الممكنية، شبّهت الأبصار بالسهم ورُمز إلى المشبّه به بما هو من روافده وهو فعل ﴿يَزْلِقُونَكَ﴾. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: 155].

وقرأ نافع وأبو جعفر: «يزلقونك» بفتح المثناة مضارع زلق بفتح اللام يزلق متعدياً، إذا نحاه عن مكانه.

وقرأه الباقون بضم المثناة.

وجاء ﴿يَكَاذُ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على استمرار ذلك في المستقبل، وجاء فعل ﴿سَمِعُوا﴾ ماضياً لوقوعه مع ﴿لَمَّا﴾ وللإشارة إلى أنه قد حصل منهم ذلك وليس مجرد فرض.

واللام في ﴿لَيَزْلِقُونَكَ﴾ لام الابتداء التي تدخل كثيراً في خبر (إن) المكسورة، وهي أيضاً تفرق بين (إن) المخففة وبين «إن» النافية.

وضمير ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ عائد إلى النبي ﷺ حكاية لكلامهم بينهم، فمعاد الضمير كائن

في كلام بعضهم، أو ليس للضمير معاد في كلامهم لأنه منصرف إلى من يتحدثون عنه في غالب مجالسهم.

والمعنى: يقولون ذلك اعتلاّ لأنفسهم إذ لم يجدوا في الذكر الذي يسمعون مدخلاً للطعن فيه فانصرفوا إلى الطعن في صاحبه ﷺ بأنه مجنون لينقلوا من ذلك إلى أن الكلام الجاري على لسانه لا يوثق به ليصرفوا دهماءهم عن سماعه، فلذلك أبطل الله قولهم: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ بقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (52)، أي: ما القرآن إلا ذكر للناس كلهم وليس بكلام المجانين، وينتقل من ذلك إلى أن الناطق به ليس من المجانين في شيء.

والذكر: التذكير بالله والجزاء هو أشرف أنواع الكلام لأنه فيه صلاح الناس. فضمير ﴿هُوَ﴾ عائد إلى غير مذكور بل إلى غير معلوم من المقام، وقرينة السياق ترجع كل ضمير من ضميري الغيبة إلى معاده، كقول عباس بن مرداس: عدنا ولولا نحن أحقق جمعهم بالمسلمين وأحرزوا ما جمّعوا أي: لأحرز الكفار ما جمّعه المسلمون.

وفي قوله: ﴿وَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ مع قوله في أول السورة: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (2) [القلم: 2] محسن رد العجز على الصدر.

وقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (52) إبطاً لقولهم: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ لأنهم قالوه في سياق تكذيبهم بالقرآن، فإذا ثبت أن القرآن ذكر بطل أن يكون مبلّغه مجنوناً. وهذا من قبيل الاحتباك إذ التقدير: ويقولون: إنه لمجنون وإن القرآن كلام مجنون، وما القرآن إلا ذكر وما أنت إلا مذكّر.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحاقة

سُمِّيَتْ «سورة الحاقة» في عهد النبي ﷺ.

وروى أحمد بن حنبل أن عمر بن الخطاب قال: خرجت يوماً بمكة أتعرّض لرسول الله قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام فوقفت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن فقلت: هذا والله شاعر (أي: قلت في خاطري)، فقرأ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا نُنُومُونَ﴾ [41] ﴿[الحاقة: 41]، قلت: كاهن، فقرأ: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ [42] ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [43]﴾ [الحاقة: 42 - 43] إلى آخر السورة، فوقع الإسلام في قلبي كلّ موقع.

وباسم ﴿الحاقة﴾ عُثِنَتْ في المصاحف وكُتِبَ السنة وكُتِبَ التفسير. وقال الفيروزآبادي في «بصائر ذوي التمييز»: إنها تسمى أيضاً «سورة السلسلة» لقوله: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾ [الحاقة: 32]، وسمّاها الجعبري في منظومته في ترتيب نزول السور «الواعية»، ولعله أخذه من وقوع قوله: ﴿وَنَعِيَّا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 12] ولم أر له سلفاً في هذه التسمية. ووجه تسميتها «سورة الحاقة» وقوع هذه الكلمة في أولها ولم تقع في غيرها من سور القرآن.

وهي مكية بالاتفاق. ومقتضى الخبر المذكور عن عمر بن الخطاب أنها نزلت في السنة الخامسة قبل الهجرة، فإن عمر أسلم بعد هجرة المهاجرين إلى الحبشة وكانت الهجرة إلى الحبشة سنة خمس قبل الهجرة إلى المدينة.

وقد عُدَّت هذه السورة السابعة والسبعين في عداد ترتيب النزول. نزلت بعد سورة تبارك وقبل سورة المعارج.

واتفق العادون من أهل الأمصار على عدّها إحدى وخمسين آية.

أغراضها

اشتملت هذه السورة على تهويل يوم القيامة. وتهديد المكذبين بوقوعه. وتذكيرهم بما حلّ بالأمم التي كذّبت به من عذاب في الدنيا ثم عذاب الآخرة وتهديد المكذبين لرسول الله تعالى بالأمم التي أشركت وكذبت. وأدمج في ذلك أن الله نجّى المؤمنين من العذاب، وفي ذلك تذكير بنعمة الله على البشر إذ أبقى نوعهم بالإنقاذ من الطوفان. ووصف أهوال من الجزاء وتفاوت الناس يومئذ فيه، ووصف فظاعة حال العقاب على الكفر وعلى نبذ شريعة الإسلام.

والتنويه بالقرآن.

وتنزيه الرسول ﷺ وعن أن يكون غير رسول.

وتنزيه الله تعالى عن أن يُقر من يتقول عليه.

وثبيت الرسول ﷺ.

وإنذار المشركين بتحقيق الوعيد الذي في القرآن.

[1 - 3] ﴿ الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ ﴾ .

﴿ الْحَاقَّةُ ۝١ ﴾ صيغة فاعل من: حق الشيء، إذا ثبت وقوعه، والهاء فيها لا تخلو عن أن تكون هاء تانيث فتكون ﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ وصفاً لموصوف مقدر مؤنث اللفظ، أو أن تكون هاء مصدر على وزن فاعلة مثل الكاذبة للكذب، والخاتمة للختم، والباقية للبقاء، والطاغية للطغيان، والنافلة، والخاطئة، وأصلها تاء المرة، ولكنها لما أريد المصدر قُطع النظر عن المرة مثل كثير من المصادر التي على وزن فَعْلَة غير مُراد به المرة مثل قولهم ضربة لازب. فالحاقة إذن بمعنى الحق كما يقال: من حاق كذا، أي: من حقه.

وعلى الوجهين فيجوز أن يكون المراد بالحاقة المعنى الوصفي، أي: حادثة تحقق أو حقّ يحقق.

ويجوز أن يكون المراد بها لقباً ليوم القيامة، وروي ذلك عن ابن عباس وأصحابه وهو الذي درج عليه المفسرون، فلعب بذلك يوم القيامة لأنه يوم محقق وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَنُذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: 7]، أو لأنه تحقق فيه الحقوق ولا يضاع الجزاء عليها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77]، وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8].

ويثار هذه المادة وهذه الصيغة يسمح باندراج معان صالحة بهذا المقام فيكون ذلك من الإيجاز البديع لتذهب نفوس السامعين كل مذهب ممكن من مذاهب الهول والتخويف بما يحق حلوله بهم.

فيجوز أيضاً أن تكون ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ﴿١﴾ وصفاً لموصوف محذوف تقديره: الساعة الحاقة، أو الواقعة الحاقة، فيكون تهديداً بيوم أو وقعة يكون فيها عقاب شديد للمعرّض بهم مثل يوم بدر أو وقعته، وأن ذلك حق لا ريب في وقوعه؛ أو وصفاً للكلمة، أي: كلمة الله التي حقت على المشركين من أهل مكة، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ﴿٦﴾ [غافر: 6]، أو التي حقت للنبي ﷺ أنه ينصره الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَمُومٌ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَلَنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى جِئَ ﴿١٧٤﴾ [الصفات: 171 - 174].

ويجوز أن تكون مصدراً بمعنى الحق، فيصح أن يكون وصفاً ليوم القيامة بأنه حق كقوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: 97]، أو وصفاً للقرآن كقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: 62]، أو أريد به الحق كله كما جاء به القرآن من الحق، قال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: 29]، وقال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ [الأحقاف: 30].

وافتحاح السورة بهذا اللفظ ترويع للمشركين.

و﴿الْحَاقَّةُ﴾ مبتدأ و﴿مَا﴾ مبتدأ ثان. و﴿الْحَاقَّةُ﴾ المذكورة ثانياً خبر المبتدأ الثاني والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول.

و﴿مَا﴾ اسم استفهام مستعمل في التهويل والتعظيم كأنه قيل: أتدري ما الحاقة؟ أي: ما هي الحاقة، أي: شيء عظيم الحاقة. وإعادة اسم المبتدأ في الجملة الواقعة خبراً عنه تقوم مقام ضميره في ربط الجملة المخبر بها. وهو من الإظهار في مقام الإضمار لقصد ما في الاسم من التهويل. ونظيره في ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ﴿٢٧﴾ [الواقعة: 27].

وجملة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ ﴿٣﴾ يجوز أن تكون معترضة بين جملة: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ ﴿٢﴾، وجملة: ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ ﴿٤﴾ [الحاقة: 4]، والواو اعتراضية.

ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾.

و﴿مَا﴾ الثانية استفهامية، والاستفهام بها مكنتي به عن تعذر إحاطة علم الناس بكنهه

الحاقة لأن الشيء الخارج عن الحد المألوف لا يتصور بسهولة فمن شأنه أن يتساءل عن فهمه.

والخطاب في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ لغير معين. والمعنى: الحاقة أمر عظيم لا تدركون كنهه.

وتركيب «ما أدراك كذا»، مما جرى مجرى المثل فلا يغير عن هذا اللفظ، وهو تركيب مركب من ﴿مَا﴾ الاستفهامية وفعل «أدري» الذي يتعدى بهمزة التعديّة إلى ثلاثة مفاعيل من باب أعلم وأرى، فصار فاعل فعله المجرد وهو «دري» مفعولاً أول بسبب التعديّة. وقد علق فعل ﴿أَدْرَاكَ﴾ عن نصب مفعولين بـ ﴿وَمَا﴾ الاستفهامية الثانية في قوله: ﴿وَمَا الْحَاقَّةُ﴾ (2).

وأصل الكلام قبل التركيب بالاستفهام أن تقول: أدركت الحاقة أمراً عظيماً، ثم صار: أدركني فلان الحاقة أمراً عظيماً.

و﴿مَا﴾ الأولى استفهامية مستعملة في التهويل والتعظيم على طريقة المجاز المرسل في الحرف، لأن الأمر العظيم من شأنه أن يستفهم عنه فصار التعظيم والاستفهام متلازمين. ولك أن تجعل الاستفهام إنكارياً، أي: لا يدري أحد كنه هذا الأمر. والمقصود من ذلك على كلا الاعتبارين هو التهويل.

هذا السؤال كما تقول: علمت هل يسافر فلان.

و﴿مَا﴾ الثالثة علقت فعل ﴿أَدْرَاكَ﴾ عن العمل في مفعولين.

وكاف الخطاب فيه خطاب لغير معين فلذلك لا يقترن بضمير تثنية أو جمع أو تأنيث إذا خوطب به غير المفرد المذكور.

واستعمال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ غير استعمال ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: 63]، وقوله: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ في سورة الشورى [17].

روي عن ابن عباس: كل شيء من القرآن من قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أدراه، وكل شيء من قوله: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ فقد طوي عنه. وقد روي هذا أيضاً عن سفيان ابن عيينة وعن يحيى بن سلام، فإن صح هذا المروي فإن مرادهم أن مفعول: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ محقق الوقوع لأن الاستفهام فيه للتهويل، وإن مفعول ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ غير محقق الوقوع لأن الاستفهام فيه للإنكار، وهو في معنى نفي الدراية.

وقال الراغب: كل موضع ذكر في القرآن من قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد عقب ببيانه نحو: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ (10) نَارٍ حَامِيَةٍ (11)﴾ [القارعة: 10 - 11]، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لِيلَةُ

الْقَدَرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدَرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ [القدر: 2 - 3]، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾
ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾
[الانفطار: 17 - 19]، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثُمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ [الحاقة: 3 - 4]. وكأنه يريد تفسير ما نقل عن ابن عباس وغيره.

ولم أر من اللغويين من وفى هذا التركيب حقه من البيان، وبعضهم لم يذكره أصلاً.

[4] ﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾.

إن جعلت قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾﴾ [الحاقة: 3] نهاية كلام، فموقع قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ وما اتصل به استئناف، وهو تذكير لما حلَّ بثمود وعاد لتكذيبهم بالبعث والجزاء تعريضاً بالمشركين من أهل مكة بتهديدهم أن يحق عليهم مثل ما حل بثمود وعاد فإنهم سواء في التكذيب بالبعث، وعلى هذا يكون قوله: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾﴾... إلخ، توطئة له وتمهيداً لهذه الموعظة العظيمة استرهاً بالنفوس السامعين.

وإن جعلت الكلام متصلاً بجملة: ﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ وعيّنت لفظ ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ليوم القيامة، كانت هذه الجملة خبراً ثالثاً عن ﴿الْحَاقَّةُ﴾. والمعنى: الحاقة كذبت بها ثمود وعاد، فكان مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير ﴿الْحَاقَّةُ﴾ فيقال: كذبت ثمود وعاد بها، فعدل إلى إظهار اسم ﴿الْقَارِعَةِ﴾ لأن ﴿الْقَارِعَةَ﴾ مرادفة ﴿الْحَاقَّةُ﴾ في أحد محملي لفظ ﴿الْحَاقَّةُ﴾، وهذا كالبيان للتهويل الذي في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾﴾ [الحاقة: 3]. و﴿الْقَارِعَةَ﴾ مراد منها ما أريد به ﴿الْحَاقَّةُ﴾.

وابتدئ بثمود وعاد في الذكر من بين الأمم المكذبة لأنهما أكثر الأمم المكذبة شهرة عند المشركين من أهل مكة لأنهما من الأمم العربية، ولأن ديارهما مجاورة شمالاً وجنوباً.

والقارعة: اسم فاعل من قرعه، إذا ضربه ضرباً قوياً، يقال: قرع البعير. وقالوا: العبد يُقرع بالعصا، وسميت المواعظ التي تنكسر لها النفس قوارع لما فيها من زجر الناس عن أعمال. وفي المقامة الأولى: «ويقرع الأسماع بزواجر وعظه»، ويقال للتوبيخ: تقرع، وفي المثل: «لا تُقرع له العصا ولا يُقلقل له الحصى»، ومورده في عامر بن الظرب العدواني في قصة أشار إليها المتلمس في بيت.

ف«القارعة» هنا صفة لموصوف محذوف يقدر لفظه مؤنثاً ليوافق وصفه المذكور نحو

الساعة أو القيامة. القارعة: أي: التي تصيب الناس بالأهوال والأفزع، أو التي تصيب الموجودات بالقرع مثل دك الحبال، وخسف الأرض، وطمس النجوم، وكسوف الشمس كسوفاً لا انجلاء له، فشبّه ذلك بالقرع.

ووصف ﴿السَّاعَةَ﴾ أو ﴿الْقِيَمَةَ﴾ بذلك مجاز عقلي من إسناد الوصف إلى غير ما هو له بتأؤل لملاسته ما هو له، إذ هي زمان القرع، قال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۚ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۚ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۚ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۚ ۝٤﴾ [القارعة: 1 - 4] الآية. وهي ما سيأتي بيانها في قوله: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَجِدَّةً ۝١٣﴾ [الحاقة: 13] الآيات.

وحيء في الخبر عن هاتين الأمتين بطريقة اللف والنشر لأنهما اجتمعتا في موجب العقوبة ثم فصل ذكر عذابهما.

[5] ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَلِكُوا بِالطَّاعِيَةِ ۝٥﴾.

ابتدئ بذكر ثمود لأن العذاب الذي أصابهم من قبيل القرع إذ أصابتهم الصواعق المسماة في بعض الآيات بالصيحة. والطاغية: الصاعقة في قول ابن عباس وقتادة، نزلت عليهم صاعقة أو صواعق فأهلكتهم، ولأن منازل ثمود كانت في طريق أهل مكة إلى الشام في رحلتهم فهم يرونها، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: 52]، ولأن الكلام على مهلك عاد أنسب فأخر لذلك أيضاً.

وإنما سميت الصاعقة أو الصيحة ﴿بِالطَّاعِيَةِ﴾ لأنها كانت متجاوزة الحال المتعارف في الشدة، فشبّه فعلها بفعل الطاعي المتجاوز الحد في العدوان والبطش. والباء في قول: ﴿بِالطَّاعِيَةِ﴾ للاستعانة.

و﴿ثَمُودُ﴾: أمة من العرب البائدة العاربة، وهم أنساب عاد. وثمرود: اسم جد تلك الأمة ولكن غلب إلى الأمة فلذلك مُنع من الصرف للعلمية والتأنيث باعتبار الأمة أو القبيلة.

وتقدم ذكر ثمود عند قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ في سورة الأعراف [73].

[6، 7] ﴿وَأَمَّا عَادُ فَهَلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾.

الصَّرَصَر: الشديدة يكون لها صوت كالصرير، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿فَارْزُقْنَا

عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرَصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ ﴿﴾ في سورة فصلت [16]. والعاتية: الشديدة العصف، وأصل العُتُو والعُتَيّ: شدة التكبر، فاستعير للشيء المتجاوز الحدّ المعتاد تشبيهاً بالتكبر الشديد في عدم الطاعة والجري على المعتاد.

والتسخير: الغضب على عمل، واستعير لتكوين الريح الصرصر تكويناً متجاوزاً المتعارف في قوة جنسها فكأنها مكرهة عليه. وعلق به ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لأنه ضَمَّنَ معنى أرسلها.

و﴿حُسُومًا﴾ يجوز أن يكون جمع حاسم مثل قُعود جمع قاعد، وشهود جمع شاهد، غَلَبَ فيه الأيام على الليالي لأنها أكثر عدداً إذ هي ثمانية أيام، وهذا له معان: أحدهما: أن يكون المعنى: يتابع بعضها بعضاً، أي: لا فصل بينها كما يقال: صيام شهرين متتابعين، وقال عبدالعزيز بن زرارة الكلابي⁽¹⁾:

فَفَرَّقَ بَيْنَ بَيْنِهِمْ زَمَانٌ تَتَابَعَ فِيهِ أَعْوَامُ حُسُومٍ
 قيل: والحسوم مشتق من حسم الداء بالمكواة إذ يكوى ويتابع الكي أياماً، فيكون إطلاقه استعارة، ولعلها من مبتكرات القرآن، وبيت عبدالعزيز الكلابي من الشعر الإسلامي فهو متابع لاستعمال القرآن.

المعنى الثاني: أن يكون من الحسم وهو القطع، أي: حاسمة مستأصلة. ومنه سَمَّى السيف حُسَاماً لأنه يقطع، أي: حَسَمْتُهُمْ فلم تُبقَ منهم أحداً. وعلى هذين المعنيين فهو صفة لـ ﴿سَبَّحَ بُيُوتَ لَبَّالٍ وَتَمَنَّى آيَاتِهِ﴾ أو حال منها.

المعنى الثالث: أن يكون حسوم مصدراً كالشُكور والدُخُول، فينتصب على المفعول لأجله، وعامله ﴿سَخَرَهَا﴾، أي: سخرها عليهم لاستئصالهم وقطع دابرهم. وكل هذه المعاني صالح لأن يذكر مع هذه الأيام، فإثارة هذا اللفظ من تمام بلاغة القرآن وإعجازه.

وقد سَمَّى أصحاب الميقات من المسلمين أياماً ثمانية منصفّة بين أواخر فبراير [شباط]، وأوائل مارس [آذار] معروفة في عادة نظام الجو بأن تشتد فيها الرياح غالباً، أيام الحسوم على وجه التشبيه، وزعموا أنها تقابل أمثالها من العام الذي أصيبت فيه عاد بالرياح، وهو من الأوهام، ومن ذا الذي رصد تلك الأيام.

(1) شاعر من شعراء صدر الدولة الأموية، كان لأبيه وله حُظوة عند الخليفة معاوية، وكان سيد أهل البادية، توفي في غزوة القسطنطينية سنة 46هـ.

ومن أهل اللغة من زعم أن أيام الحسوم هي الأيام التي يقال لها: أيام العجوز أو العَجْز، وهي آخر فصل الشتاء ويُعدها العرب خمسةً أو سبعة لها أسماء معروفة مجموعة في أبيات تذكر في كتب اللغة، وشتان بينها وبين حسوم عاد في العدة والمدة.

وفرَّع على ﴿سَحَرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أنهم صاروا صرعى كلهم يراهم الرائي لو كان حاضراً تلك الحالة.

والخطاب في قوله: ﴿فَتَرَى﴾ خطاب لغير معين، أي: فيرى الرائي لو كان راءً، وهذا أسلوب في حكاية الأمور العظيمة الغائبة تستحضر فيه تلك الحالة كأنها حاضرة ويُتخيل في المقام سامعٌ حاضر شاهد مُهلِكهم أو شاهدهم بعده، وكلا المشاهدين متنف في هذه الآية، فيعتبر خطاباً فرضياً فليس هو بالتفات ولا هو من خطاب غير المعين، وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِّ﴾ [الشورى: 45]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نِعَمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: 20]، وعلى دقة هذا الاستعمال أهمل المفسرون التعرض له عدا كلمة لليضاوي.

والتعريف في ﴿الْقَوْمَ﴾ للعهد الذكري، والقوم: القبيلة، وهذا تصوير لهلاك جميع القبيلة.

وضمير ﴿فِيهَا﴾ عائد إلى الليالي والأيام.

و﴿صَرَخَ﴾: جمع صريع وهو الملقى على الأرض ميتاً.

وشبَّهوا بأعجاز نخل، أي: أصول النخل، وعجز النخلة: هو الساق التي تتصل بالأرض من النخلة، وهو أغلظ النخلة وأشدها.

ووجه التشبيه بها أن الذين يقطعون النخل إذا قطعوه للانتفاع بأعواده في إقامة البيوت للسَّقْف والعضادات انتفخوا منه أصوله لأنها أغلظ وأملأ وتركوها على الأرض حتى تيبس وتزول رطوبتها ثم يجعلوها عمداً وأساطين.

والنخل: اسم جمع نخلة.

والخاوي: الخالي مما كان مالئاً له وحالاً فيه.

وقوله: ﴿خَاوِيٍّ﴾ مجرور باتفاق القراء، فتعين أن يكون صفة ﴿تَخَلَّيْ﴾.

ووصف ﴿تَخَلَّيْ﴾ بأنها ﴿خَاوِيٍّ﴾ باعتبار إطلاق اسم «النخل» على مكانه بتأويل الجنة أو الحديقة، ففيه استخدام. والمعنى: خالية من الناس. وهذا الوصف لتشويه المشبه به بتشويه مكانه، ولا أثر له في المشابهة وأحسنه ما كان فيه مناسبة للغرض من التشبيه كما

في الآية، فإن لهذا الوصف وقعاً في التنفير من حالتهم ليناسب الموعظة والتحذير من الوقوع في مثل أسبابها، ومنه قول كعب بن زهير:

لَذاكَ أَهيبُ عِندي إِذا أَكَلَمَه وقيل إنك منسوبٌ ومسؤول
من خادرٍ من ليوث الأُسُد مسكَنه من بطن عَثَرٍ غَيلٌ دَوْنَه غَيل
الآيات الأربعة، وقول عنترة:

فتركتَه جَزَرَ السِباعِ يَنُشِنَه يَفْضِضُن حُسنَ بَنانِه والمعصم
[8] ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ ﴿٨﴾.

تفريع على مجموع قصتي ثمود وعاد، فهو فذلكة لما فصل من حال إهلاكهما، وذلك من قبيل الجمع بعد التفريق، فيكون في أول الآية جمع ثم تفريق ثم جمع وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا مَّا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ [النجم: 50، 51]، أي: فما أبقاها.

والخطاب لغير معين.

والباقية: إما اسم فاعل على بابه، والهاء: إما للتأنيث بتأويل نفس، أي: فما ترى منهم نفس باقية، أو بتأويل فرقة، أي: ما ترى فرقة منهم باقية.

ويجوز أن تكون ﴿بَاقِيَةٍ﴾ مصدراً على وزن فاعلة مثل ما تقدم في الحاقة، أي: فما ترى لهم بقاء، أي: هلكوا عن بكرة أبيهم.

واللام في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ يجوز أن تجعل لشبه الملك، أي: باقية لأجل النفع.

ويجوز أن يكون اللام بمعنى «من» مثل قولهم: سمعت له صرخاً، وقول الأعشى:

نسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت كما استعانَ بريحٍ عِشْرَقٍ رَجَلُ
وقول جرير:

ونحن لكم يوم القيامة أفضل

أي: ونحن منكم أفضل.

ويجوز أن تكون اللام التي تُنَوَّى في الإضافة إذا لم تكن الإضافة على معنى «من». والأصل: فهل ترى باقيتهم، فلما قصد التنصيص على عموم النفي واقتضى ذلك جلب «من» الزائدة، لزم تنكير مدخول «من» الزائدة فأعطي حق معنى الإضافة بإظهار اللام التي

الشأن أن تنوى كما في قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ [الإسراء: 5] فإن أصله عبادنا.

وموقع المجرور باللام في موقع النعت لـ ﴿بَاقِيَةً﴾ فُذِمَ عليها فصار حالاً.

[9، 10] ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾﴾.

عطف على جملة: ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾.

وقد جُمع في الذكر هنا عدة أمم تقدمت قبل بعثة موسى ﷺ إجمالاً وتصريحاً، وخصّ منهم بالتصريح قوم فرعون والمؤتفكات لأنهم من أشهر الأمم ذكراً عند أهل الكتاب المختلطين بالعرب والنازلين بجوارهم، فمن العرب من يبلغه بعض الخبر عن قصتهم.

وفي عطف هؤلاء على ثمود وعاد في سياق ذكر التكذيب بالقارعة إيماء إلى أنهم تشابهوا في التكذيب بالقارعة كما تشابهوا في المجيء بالخاطئة وعصيان رسل ربهم فحصل في الكلام احتباك.

والمراد بفرعون فرعون الذي أرسل إليه موسى ﷺ وهو «منفطاح الثاني». وإنما أسند الخطء إليه لأن موسى أرسل إليه ليطلق بني إسرائيل من العبودية، قال تعالى: ﴿إِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: 24]، فهو المؤاخذ بهذا العصيان وتبعه القبط امتثالاً لأمره وكذبوا موسى وأعرضوا عن دعوته.

وشمل قوله: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ أمماً كثيرة منها قوم نوح وقوم إبراهيم.

وقرأ الجمهور: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ بفتح القاف وسكون الباء. وقرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بكسر القاف وفتح الباء، أي: ومن كان من جهته، أي: قومه وأتباعه.

والمؤتفكات: قرى قوم لوط الثلاث، وأريد بالمؤتفكات سكانها وهم قوم لوط، وخصّوا بالذكر لشهرة جريمتهم ولكونهم كانوا مشهورين عند العرب إذ كانت قراهم في طريقهم إلى الشام، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرْ لِّلْمُؤْنِّ عَلَيْهِمْ مُّصِحِّينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْبَلِّ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: 137، 138]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَىٰ الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمُطِرَتْ مَطَرَ النَّسْوَةِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُونَ يَكُونَهَا﴾ [الفرقان: 40].

ووصفت قرى قوم لوط بـ ﴿الْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ جمع مؤتفكة اسم فاعل ائتفك مطاوع أفكّه، إذا قلبه، فهي المنقلبات، أي: قلبها قالب، أي: خسف بها، قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: 82].

والخاطئة: إما مصدر بوزن فاعلة، وهاؤه هاء المرة الواحدة فلما استعمل مصدرًا قطع النظر عن المرة، كما تقدم في قوله: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ فهو مصدر خَطِيءٌ، إذا أذنب. والذنب: الخطء بكسر الخاء، وإما اسم فاعل خَطِيءٌ وتأنيثه بتأويل: الفعلة ذات الخطء، فهاؤه هاء تأنيث.

والتعريف فيه تعريف الجنس على كلا الوجهين، فالمعنى: جاء كل منهم بالذنب المستحق للعقاب. وفرّع عنهم تفصيل ذنبهم المعبر عنه بالخاطئة فقال: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾. وهذا التفرع للتفصيل نظير التفرع في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [9] [القمر: 9] في أنه تفرع بيان على المبيّن.

وضمير (عصوا) يجوز أن يرجع إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ باعتباره رأس قومه، فالضمير عائد إليه وإلى قومه، والقرينة ظاهرة على قراءة الجمهور، وأما على قراءة أبي عمرو والكسائي فالأمر أظهر وعلى هذا الاعتبار في محل ضمير (عصوا) يكون المراد بـ ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ موسى عليه السلام. وتعريفه بالإضافة لما في لفظ المضاف إليه من الإشارة إلى تخطئتهم في عبادة فرعون وجعلهم إياه إلهاً لهم.

ويجوز أن يرجع ضمير «عصوا» إلى ﴿فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾.

و﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ هو الرسول المرسل إلى كل قوم من هؤلاء.

فأفراد ﴿رَسُولٍ﴾ مراد به التوزيع على الجماعات، أي: رسول الله لكل جماعة منهم، والقرينة ظاهرة، وهو أجمل نظاماً من أن يقال: فعصوا رسل ربهم، لما في أفراد ﴿رَسُولٍ﴾ من التفنن في صيغ الكلم من جمع وإفراد تفادياً مع تتابع ثلاثة جموع، لأن صيغ الجمع لا تخلو من ثقل لقلّة استعمالها وعكسه قوله في سورة الفرقان [37]: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾، وإنما كذبوا رسولاً واحداً، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [105] وما بعده في سورة الشعراء [105]، وقد تقدم تأويل ذلك في موضعه.

والأخذ: مستعمل في الإهلاك، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ في سورة الأنعام [44] وفي مواضع أخرى.

و﴿أَخَذَهُ﴾: واحدة من الأخذ، فيراد بها أخذ فرعون وقومه بالغرق، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 42]، وإذا أعيد ضمير الغائب إلى ﴿فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ كان أفراد الأخذة كإفراد ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾، أي: أخذنا كل أمة منهم أخذه.

والراية: اسم فاعل من ربا يربو إذا زاد، فلما صيغ منه وزن فاعلة، قلبت الواو ياء لوقوعها متحركة إثر كسرة.

واستعير الرُّبُو هنا للشدة كما تستعار الكثرة للشدة في نحو قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا تُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: 14].

والمراد بالأخذه الراحبة: إهلاك الاستئصال، أي: ليس في إهلاكهم إبقاء قليل منهم.

[11، 12] ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ ۖ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۖ﴾ [12].

إن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ [الحاقة: 9] لما شمل قوم نوح وهم أول الأمم كذبوا الرسل حُسن اقتضاب التذكير بأخذهم لما فيه من إدماج امتنان على جميع الناس الذين تناسلوا من الفئة الذين نجاهم الله من الغرق ليتخلص من كونه عظة وعبرة إلى التذكير بأنه نعمة، وهذا من قبيل الإدماج.

وقد بُني على شهرة مُهلك قوم نوح اعتباره كالمذكور في الكلام فجعل شرطاً لـ ﴿لَمَّا﴾ في قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [11]، أي: في ذلك الوقت المعروف بطغيان الطوفان.

والطغيان: مستعار لشدته الخارقة للعادة تشبيهاً لها بطغيان الطاغية على الناس تشبيه تقريب، فإن الطوفان أقوى شدة من طغيان الطاغية.

و﴿الْجَارِيَةِ﴾ صفة لمحذوف وهو السفينة، وقد شاع هذا الوصف حتى صار بمنزلة الاسم، قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ﴾ [الرحمن: 24].

وأصل الحمل وضع جسم فوق جسم لنقله، وأطلق هنا على الوضع في ظرف متقل على وجه الاستعارة.

وإسناد الحمل إلى اسم الجلالة مجاز عقلي بناءً على أنه أوحى إلى نوح بصنع الحاملة ووضع المحمول، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ بِصْنِعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: 27] الآية.

وذكر إحدى الحكم والعلل لهذا الحمل وهي حكمة تذكير البشر به على تعاقب الأعصار ليكون لهم باعثاً على الشكر، وعظة لهم من أسوء الكفر، وليخبر بها من علمها قوماً لم يعلموها فتعيها أسماعهم.

والمراد بـ ﴿أُذُنٌ﴾: آذان واعية. وعموم النكرة في سياق الإثبات لا يستفاد إلا بقرينة التعميم كقوله تعالى: ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُمْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: 18].

والوعي: العلم بالمسموعات، أي: ولتعلم خبرها أذن موصوفة بالوعي، أي: من شأنها أن تعي.

وهذا تعريض بالمشركون إذ لم يتعظوا بخبر الطوفان والسفينة التي نجا بها المؤمنون فتلقوه كما يتلقون القصص الفكاهية.

[13 - 18] ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۚ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ ۝۱۵ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۚ ۝۱۶ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ۚ ۝۱۷ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۚ ۝۱۸﴾.

الفاء لتفريع ما بعدها على التهويل الذي صُدِّرت به السورة من قوله: ﴿لِلْحَاقَّةِ ۚ ۝۱ مَا الْحَاقَّةُ ۚ ۝۲ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۚ ۝۳﴾، فَعُلِمَ أنه تهويل لأمر العذاب الذي هُدد به المشركون من أمثال ما نال أمثالهم في الدنيا. ومن عذاب الآخرة الذي ينتظرهم، فلما أتم تهديدهم بعذاب الدنيا فرع عليه إنذارهم بعذاب الآخرة الذي يحل عند القارعة التي كذبوا بها كما كذبت بها ثمود وعاد، فحصل من هذا بيان للقارعة بأنها ساعة البعث وهي الواقعة.

﴿الصُّورِ﴾: قرن ثور يُقَعَّر ويُجعل في داخله سداد يسد بعض فراغه حتى إذا نفخ فيه نافخ انضغط الهواء فصوَّت صوتاً قوياً، وكانت الجنود تتخذ لنداء بعضهم بعضاً عند إرادة النفير أو الهجوم، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَلَأْتُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ في سورة الأنعام [73].

والنفخ في الصور: عبارة عن أمر التكوين بإحياء الأجساد للبعث مُثْلُ الإحياء بنداء طائفة الجند المكلفة بالأبواق لنداء بقية الجيش حيث لا يتأخر جندي عن الحضور إلى موضع المناداة، وقد يكون للملك الموكل بوجود يصوَّت صوتاً مؤثراً.

﴿نَفْخَةٌ﴾ مصدر نفخ مقترن بهاء دالة على المرة، أي: الوحدة، فهو في الأصل مفعول مطلق، أو تقع على النيابة عن الفاعل للعلم بأن فاعل النفخ الملك الموكل بالنفخ بالصور وهو إسرافيل.

ووصف ﴿نَفْخَةٌ﴾ بـ ﴿وَاحِدَةٌ﴾ تأكيد لإفادة الوحدة من صيغة الفعلة تنصيصاً على الوحدة المفادة من التاء.

والتنصيص على هذا للتنبيه على التعجب من تأثر جميع الأجساد البشرية بنفخة واحدة دون تكرير تعجباً عن عظيم قدرة الله ونفوذ أمره، لأن سياق الكلام من مبدأ السورة تهويل يوم القيامة، فتعداد أهواله مقصود، ولأجل القصد إليه هنا لم يذكر وصف

واحدة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (25) في سورة الروم [25].

فحصل في ذكر ﴿نَفْخَةٍ وَاحِدَةٍ﴾ تأكيد معنى النفخ وتأكيد معنى الوحدة، وهذا يبين ما روي عن صاحب «الكشاف» في تقريره بلفظ مجمل نقله الطيبي، فليس المراد بوصفها بـ ﴿وَاحِدَةٍ﴾ أنها غير متبعة بثانية، فقد جاء في آيات أخرى أنهما نفختان، بل المراد أنها غير محتاج حصول المراد منها إلى تكررها كناية عن سرعة وقوع الواقعة، أي: يوم الواقعة.

وأما ذكر كلمة ﴿نَفْخَةٍ﴾ فليأتى إجراء وصف الوحدة عليها، فذكر ﴿نَفْخَةٍ﴾ تبع غير مسوق له الكلام فتكون هذه النفخة هي الأولى وهي المؤذنة بانقراض الدنيا ثم تقع النفخة الثانية التي تكون عند بعث الأموات.

وجملة: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾... إلخ، في موضع الحال، لأن ذلك الأرض والجبال قد يحصل قبل النفخ في الصور لأن به فناء الدنيا.

ومعنى ﴿حُمِلَتِ﴾: أنها أزيلت من أماكنها بأن أبعدت الأرض بجبالها عن مدارها المعتاد فارتطمت بأجرام أخرى في الفضاء ﴿فَدَكَّنَا﴾، فشبهت هذه الحالة بحمل الحامل شيئاً ليلقيه على الأرض، مثل حمل الكرة بين اللاعبين، ويجوز أن يكون تصرف الملائكة الموكلين بنقض نظام العالم في الكرة الأرضية بإبعادها عن مدارها مشبهاً بالحمل، وذلك كله عند اختلال الجاذبية التي جعلها الله لحفظ نظام العالم إلى أمد معلوم لله تعالى.

والدك: دق شديد يكسر الشيء المدقوق، أي: فإذا فرقت أجزاء الأرض وأجزاء جبالها.

وبنيت أفعال (نفخ، وحملت، ودكنا) للمجهول، لأن الغرض متعلق ببيان المفعول لا الفاعل، وفاعل تلك الأفعال إما الملائكة أو ما أودعه الله من أسباب تلك الأفعال، والكل بإذن الله وقدرته.

وجملة: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (15) مشتملة على جواب «إذا»، أعني قوله: ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، وأما قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ فهو تأكيد لمعنى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾... إلخ، لأن تنوين يومئذ عوض عن جملة تدل عليها جملة: ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ إلى قوله: ﴿ذِكْرُ وَاحِدَةٍ﴾، أي: في يوم إذ نفخ في الصور إلى آخره وقعت الواقعة وهو تأكيد لفظي بمرادف المؤكد، فإن المراد بـ «يوم» من قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (15)، مطلق الزمان كما هو الغالب في وقوعه مضافاً إلى «إذا».

ومعنى ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ تحقق ما كان متوقعاً وقوعه، لأنهم كانوا يتوعدون بواقعة عظيمة، فيومئذ يتحقق ما كانوا يتوعدون به.

فعبّر عنه بفعل الماضي تنبيهاً على تحقيق حصوله. والمعنى: فحينئذ تقع الواقعة.

و﴿الْوَاقِعَةُ﴾: مرادفة للحاقة والقارعة، فذكرها إظهاراً في مقام الإضمار لزيادة التهويل وإفادة ما تحتوي عليه من الأحوال التي تنبئ عنها موارد اشتقاق أوصاف الحاقة والقارعة والواقعة.

و﴿الْوَاقِعَةُ﴾ صار عَلَمًا بالغلبة في اصطلاح القرآن يوم البعث، قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَنَسْ لَوْفِعَتَهَا كَذِبَةٌ﴾ [الواقعة: 1، 2].

وفعل ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على جملة: ﴿فُتِحَ فِي الصُّورِ﴾ فيكون ملحقاً بشرط «إذا»، وتأخير عطفه لأجل ما اتصل بهذا الانشقاق من وصف الملائكة المحيطين بها، ومن ذكر العرش الذي يحيط بالسموات وذكر حملته. ويجوز أن يكون جملة في موضع الحال بتقدير: وقد انشقت السماء.

وانشقاق السماء: مطاوعتها لفعل الشق، والشق: فتح منافذ في محيطها، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِغَمِيمٍ ۖ وَنَزَلَ الْمَلِكَةُ نَزِيلاً﴾ [25] الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً [26] [الفرقان: 25، 26].

ثم يحتمل أنه غير الذي في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [37] [الرحمن: 37] ويحتمل أنه عينه.

وحقيقة ﴿وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة ومتفرقة، ويستعار الوهي للسهولة وعدم الممانعة، يقال: وهي عزمه، إذا تسامح وتساهل، وفي المثل: «أوهى من بيت العنكبوت» يضرب لعدم نهوض الحجة.

وتقييده بـ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أن الوهي طراً عليها بعد أن كانت صلبة بتماسك أجزائها، وهو المعبر عنه في القرآن بالرتق كما عبر عن الشق بالفتق، أي: فهي يومئذ مطروقة مسلوكة. والوهي قريب من الوهن، والأكثر أن الوهي يوصف به الأشياء غير العاقلة، والوهن يوصف به الناس.

والمعنى: أن الملائكة يترددون إليها صعوداً ونزولاً خلافاً لحالها من قبل، قال تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [37] [الرحمن: 37].

وجملة: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾، حال من ضمير ﴿فَتُفَى﴾، أي: يومئذ الملك على أرجائها.

﴿وَالْمَلَكُ﴾: أصله الواحد من الملائكة، وتعريفه هنا تعريف الجنس وهو في معنى الجمع، أي: جنس المَلَك، أي: جماعة من الملائكة أو جميع الملائكة إذا أريد الاستغراق، واستغراق المفرد أصرح في الدلالة على الشمول، ولذلك قال ابن عباس: الكتاب أكثر من الكتب، ومنه: ﴿رَبِّ إِلَهِي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: 4].

والأرجاء: النواحي بلغة هذيل، واحدا رجاء مقصوراً، وألفه منقلبة عن الواو. وضمير ﴿أَرْجَائِيَّهَا﴾ عائد إلى ﴿السَّمَاءِ﴾.

والمعنى: أن الملائكة يعملون في نواحي السماء ينفذون إنزال أهل الجنة بالجنة وسوق أهل النار إلى النار.

وعرش الرَّب: اسم لما يحيط بالسموات وهو أعظم من السماوات.

والمراد بالثمانية الذين يحملون العرش: ثمانية من الملائكة، فقليل: ثمانية شخوص، وقيل: ثمانية صفوف، وقيل: ثمانية أعشار، أي: نحو ثمانين من مجموع عدد الملائكة، وقيل غير ذلك. وهذا من أحوال الغيب التي لا يتعلق الغرض بتفصيلها، إذ المقصود من الآية تمثيل عظمة الله تعالى وتقريب ذلك إلى الأفهام كما قال في غير آية.

ولعل المقصود بالإشارة إلى ما زاد على الموعظة، هو تعليم الله نبيه ﷺ شيئاً من تلك الأحوال بطريقة رمزية يفتح عليه بفهم تفصيلها ولم يُرد تشغيلها بعلمها.

وكأن الداعي إلى ذكرهم إجمالاً هو الانتقال إلى الإخبار عن عرش الله لئلا يكون ذكره اقتضاباً بعد ذكر الملائكة.

وروى الترمذي عن العباس بن عبدالمطلب عن النبي ﷺ حديثاً ذكر فيه أبعاد ما بين السماوات، وفي ذكر حملة العرش رموز ساقها الترمذي مساق التفسير لهذه الآية، وأحد رواته عبدالله بن عُميرة عن الأحنف بن قيس، قال البخاري: لا نعلم له سماعاً عن الأحنف.

وهناك أخبار غير حديث العباس لا يعبأ بها، وقال ابن العربي فيها: إنها متلفعات من أهل الكتاب أو من شعر لأمية بن أبي الصلت، ولم يصح أن النبي ﷺ أنشد بين يديه فصّدقَه. اهـ.

وضمير ﴿فَوْقَهُمْ﴾ يعود إلى المَلَك.

ويتعلق ﴿فَوْقَهُمْ﴾ بـ ﴿يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ وهو تأكيد لما دلّ عليه يَحْمِلُ من كون العرش عالياً فهو بمنزلة القيدتين في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38].

والخطاب للنبي ﷺ. وإضافة عرش إلى الله إضافة تشريف مثل إضافة الكعبة إليه في قوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ الآية [الحج: 26]، والله منزّه عن الجلوس على العرش وعن السكنى في بيت.

والخطاب في قوله: ﴿تُعْرَضُونَ﴾ لجميع الناس بقرينة المقام، وما بعد ذلك من التفصيل. والعرض: أصله إمرار الأشياء على من يريد التأمل منها مثل عرض السلعة على المشتري وعرض الجيش على أميره، وأطلق هنا كناية عن لازمه وهو المحاسبة مع جواز إرادة المعنى الصريح.

ومعنى: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾: لا تخفى على الله ولا على ملائكته. وتأنيث ﴿خَافِيَةٌ﴾ لأنه وصف لموصوف مؤنث يقدر بالفعل من أفعال العباد، أو يقدر بنفس، أي: لا تختبئ من الحساب نفس، أي: أحد، ولا يلتبس كافر بمؤمن، ولا بار بفاجر. وجملة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ مستأنفة، أو هي بيان لجملة: ﴿يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (15)، أو بدل اشتمال منها. و﴿مِنْكُمْ﴾ صفة لـ ﴿خَافِيَةٌ﴾ قدمت عليه فتكون حالاً.

وتكرير ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أربع مرات لتهويل ذلك اليوم الذي مبدؤه النفخ في الصور ثم يعقبه ما بعده مما ذكر في الجمل بعده، فقد جرى ذكر ذلك اليوم خمس مرات لأن ﴿يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (15) تكرير لـ «إذا» من قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾، إذ تقدير المضاف إليه في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو مدلول جملة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾، فقد ذكر زمان النفخ أولاً وتكرر ذكره بعد ذلك أربع مرات.

وقرأ الجمهور ﴿لَا تَخْفَى﴾ بمشناة فوقية. وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالتحية لأن تأنيث ﴿خَافِيَةٌ﴾ غير حقيقي، مع وقوع الفصل بين الفعل وفاعله.

[19 - 24] ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْك كِتَبَهُ يَمِينَهُ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ بَرَاءَةٌ كِتَابِيَّةٌ (19) إِنَّهُ طَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسَابِيَّةٌ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24)﴾.

الفاء تفصيل لما يتضمنه ﴿تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: 18]، إذ العرض عرض للحساب والجزاء، فإيتاء الكتاب هو إيقاف كل واحد على صحيفة أعماله. و«أما» حرف تفصيل وشرط وهو يفيد مفاد (مهما يكن من شيء)، والمعنى: مهما يكن عرض فمن ﴿أُوْك كِتَبَهُ يَمِينَهُ﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، وشأن الفاء الرابطة لجوابها أن يفصل بينها وبين «أما» بجزء من جملة الجواب أو بشيء من متعلقات الجواب مهتم به، لأنهم لما التزموا

حذف فعل الشرط لاندماجه في مدلول «أما» كرهوا اتصال فاء الجواب بأداة الشرط ففصلوا بينهما بفاصل تحسيناً لصورة الكلام، فقوله: ﴿مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِمِيزَانِهِ﴾ أصله صدر جملة الجواب، وهو مبتدأ خبره: ﴿فَقُولْ هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِمْ كِتَابَهُ﴾ كما سيأتي.

ودلّ قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِمِيزَانِهِ﴾ على كلام محذوف للإيجاز تقديره فيؤتى كل أحد كتاب أعماله، فأما من أوتي كتابه... إلخ، على طريقة قوله تعالى: ﴿أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ [الشعراء: 63].

والباء في قوله: ﴿بِمِيزَانِهِ﴾ للمصاحبة أو بمعنى «في».

وإيتاء الكتاب باليمين علامة على أنه إيتاء كرامة وتبشير، والعرب يذكرون التناول باليمين كناية عن الاهتمام بالمأخوذ والاعتزاز به، قال الشماخ:

إذا ما راية رُفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين
وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَبُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ﴾ (27) في سِدْرِ مَحْضُودٍ (28) الآية [الواقعة: 27، 28]، ثم قال: ﴿وَأَصْحَبُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَبُ الشِّمَالِ﴾ (41) في سَمُورٍ وَحَمِيرٍ (42) الآية [الواقعة: 41، 42].

وجملة: ﴿فَقُولْ هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِمْ كِتَابَهُ﴾ جواب شرط «أما»، وهو مغني عن خبر المبتدأ، وهذا القول قول ذي بهجة وحبور يبعثان على اطلاع الناس على ما في كتاب أعماله من جزاء في مقام الاغتياب والفخار، ففيه كناية عن كونه من حبور ونعيم، فإن المعنى الكنائي هو الغرض الأهم من ذكر العرض.

و﴿هَؤُلَاءِ﴾ مركب من هاء ممدودة ومقصوراً، والممدود مبني على فتح الهمزة إذا تجرد عن علامات الخطاب ما عدا الموجه إلى امرأة فهو بكسر الهمزة دون ياء. وإذا خوطب به أكثر من واحد التزم مده ليتأتى إلحاق علامة خطاب كالعلامة التي تلحق ضمير المخاطب، وضموا همزته ضمة كضمة ضمير الخطاب إذ لحقته علامة التثنية والجمع، فيقال: هأؤما، كما يقال: أنتما، وهأؤم كما يقال: أنتم، وهأؤن كما يقال: أنتن، ومن أهل اللغة من ادّعى أن ﴿هَؤُلَاءِ﴾ أصله: ها أموا مركباً من كلمتين «ها» وفعل أمر للجماعة من فعل أم، إذا قصد، ثم خفف لكثرة الاستعمال، ولا يصح لأنه لم يسمع (هأؤمين) في خطاب جماعة النساء، وفيه لغات أخرى واستعمالات في اتصال كاف الخطاب به تقصّاهما الرضي في شرح الكافية وابن مكرم في «لسان العرب».

و﴿هَؤُلَاءِ﴾ بتصاريفه معتبر اسم فعل أمر بمعنى: (خذ) كما في الكشف، وبمعنى (تعال)، أيضاً كما في «النهاية».

والخطاب في قوله: ﴿هَآؤُمْ اِقْرَءُوا﴾ للصالحين من أهل المحشر.

و﴿كِتَابٍ﴾ أصله: كتابي بتحريك ياء المتكلم على أحد وجوه في ياء المتكلم إذا وقعت مضافاً إليها، وهو تحريك أحسب أنه يقصد به إظهار إضافة المضاف إلى تلك الياء للوقوف، محافظة على حركة الياء المقصود اجتلابها.

و﴿اِقْرَءُوا﴾ بيان للمقصود من اسم الفعل من قوله: ﴿هَآؤُمْ﴾.

وقد تنازع كل من ﴿هَآؤُمْ﴾ و﴿اِقْرَءُوا﴾ قوله: ﴿كِتَابٍ﴾. والتقدير: هاؤم كتابيه اقرأوا كتابيه. والهاء في كتابيه ونظائرها للسكت حين الوقف.

وحق هذه الهاء أن تُثبت في الوقف وتُسقط في الوصل. وقد أثبتت في هذه الآية في الحالين عند جمهور القراء وكتبت في المصاحف، فعُلم أنها للتعبير عن الكلام المحكي بلغة ذلك القائل بما يرادفه في الاستعمال العربي، لأن الاستعمال أن يأتي القائل بهذه الهاء بالوقف على كلتا الجملتين.

ولأن هذه الكلمات وقعت فواصل والفواصل مثل الأسجاع تعتبر بحالة الوقف مثل القوافي، فلو قيل: اقرأوا كتابي إني ظننت أني ملاقٍ حسابي، سقطت فاصلتان وذلك تفريط في محسنين.

وقرأها يعقوب إذا وصلها بحذف الهاء، والقراء يستحبون أن يقف عليها القارئ ليوافق مشهور رسم المصحف ولثلا يذهب حسن السجع.

وأطلق الظن في قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّ﴾⁽²⁰⁾، على معنى اليقين وهو أحد معنييه. وعن الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك.

وحقيقة الظن: علم لم يتحقق؛ إما لأن المعلوم به لم يقع بعد ولم يخرج إلى عالم الحس، وإما لأن علم صاحبه مخلوط بشك. وبهذا يكون إطلاق الظن على المعلوم المتيقن إطلاقاً حقيقياً. وعلى هذا جرى الأزهري في التهذيب وأبو عمرو، واقتصر على هذا المعنى ابن عطية.

وكلام «الكشاف» يدل على أن أصل الظن: علم غير متيقن، ولكنه قد يُجرى مجرى العلم لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام، وقال: يقال: أظن ظناً كاليقين أن الأمر كيت وكيت، فهو عنده إذا أطلق على اليقين كان مجازاً. وهذا أيضاً رأي الجوهري وابن سيده والفيروزآبادي، وأما قوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: 32] فلا دلالة فيه لأن تنكير ﴿ظَنًّا﴾ أريد به التقليل، وأكد بـ ﴿وَمَا

نَحْنُ بِمُسْتَقِيمٍ ﴿٦٦﴾ فاحتمل الاحتمالين، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ في سورة الأعراف [66]، وقوله: ﴿وَعَلَّوْا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ في سورة براءة [118].

والمعنى: إني علمت في الدنيا أنني ألقى الحساب، أي: آمنت بالبعث. وهذا الخبر مستعمل كناية عن استعداده للحساب بتقديم الإيمان والأعمال الصالحة مما كان سبب سعادته.

وجملة: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّ﴾ (20) في موقع التعليل للفرح والبهجة التي دل عليها قوله: ﴿هَآؤُمْ إِقْرَأُوا كِتَابِيَّ﴾، وبذلك يكون حرف «إن» لمجرد الاهتمام وإفادة التسبب. وموقع: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (21) موقع التفريع على ما تقدم من إتيائه كتابه يمينه وما كان لذلك من أثر المسرة والكرامة في المحشر، فتكون الفاء لتفريع ذكر هذه الجملة على ذكر ما قبلها. ولك أن تجعلها بدل اشتمال من جملة: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمْ إِقْرَأُوا كِتَابِيَّ﴾ فإن ذلك القول اشتمل على أن قائله في نعيم كما تقدم، وإعادة الفاء مع الجملة من إعادة العامل في المبدل منه مع البديل للتأكيد كقوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ [المائدة: 114]. والعيشة: حالة العيش وهيئته.

ووصف ﴿عِيشَةٍ﴾ بـ ﴿رَاضِيَةٍ﴾ مجاز عقلي لملازمة العيشة حالة صاحبها وهو العائش ملازمة الصفة لموصوفها.

والراضي: هو صاحب العيشة لا العيشة، لأن ﴿رَاضِيَةٍ﴾ اسم فاعل رضيت إذا حصل لها الرضى وهو الفرح والغبطة.

والعيشة ليست راضية ولكنها لحسنها رضي صاحبها، فوصفها بـ ﴿رَاضِيَةٍ﴾ من إسناد الوصف إلى غير ما هو له، وهو من المبالغة لأنه يدل على شدة الرضى بسببها حتى سرى إليها، ولذلك الاعتبار أرجع السكاكي ما يسمّى بالمجاز العقلي إلى الاستعارة المكنية كما ذكر في علم البيان.

و﴿فِي﴾ للظرفية المجازية وهي الملازمة.

وجملة: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (22) بدل اشتمال من جملة: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (7).

والعلو: الارتفاع وهو من محاسن الجنات لأن صاحبها يشرف على جهات من متسع النظر، ولأنه يبدو له كثير من محاسن جنته حين ينظر إليها من أعلاها أو وسطها مما لا يلوح لنظره لو كانت جنته في أرض منبسطة، وذلك من زيادة البهجة والمسرة، لأن جمال المناظر من مسرات النفس ومن النعم. ووقع في شعر زهير:

كَأَن عَيْنِي فِي غَرْبِي مُقَتَّلَةٌ من النواضح تسقي جنة سُحُقا
فقد قال أهل اللغة: يجوز أن يكون سُحُقا، نعتاً للجنة بدون تقدير كما قالوا: ناقة
عُلُط وامرأة عُطِل. ولم يعرجوا على معنى السَّحَق فيها وهو الارتفاع لأن المرتفع بعيد،
وقالوا: سَحَقَت النخلة ككرم إذا طالت. وفي القرآن: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: 265].

وجوّزوا أن يراد أيضاً بالعلو علو القدر مثل فلان ذو درجة رفيعة، وبذلك كان
للفظ ﴿عَالِيَةً﴾ هنا ما ليس لقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾، لأن المراد هنالك جنة من
الدنيا.

والقطوف: جمع قِطَف بكسر القاف وسكون الطاء، وهو الثمر، سُمِّي بذلك لأنه
يُقطف، وأصله فعل بمعنى مفعول مثل ذبح.

ومعنى دنوها: قربها من أيدي المتناولين، لأن ذلك أهناً إذ لا كلفة فيه، قال
تعالى: ﴿وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ [الإنسان: 14].

وجملة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ إلى آخرها مقول قول محذوف وهو ومقوله في موضع صفة
لـ ﴿جَنَّةٍ﴾. إذ التقدير: يقال للفريق الذين يوتون كتبهم بأيمانهم حين يستقرون في الجنة:
كلوا واشربوا... إلخ.

ويجوز أن تكون الجملة خبراً ثانياً عن الضمير في قوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾

﴿21﴾.

وإنما أفردت ضمائر الفريق الذي أوتي كتابه بيمينه فيما تقدم ثم جاء الضمير ضمير
جمع عند حكاية خطابهم لأن هذه الضمائر السابقة حُكِيت معها أفعال مما يتلبس بكل
فرد من الفريق عند إتمام حسابه. وأما ضمير ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ فهو خطاب لجميع الفريق
بعد حلولهم في الجنة، كما يدخل الضيوف إلى المأدبة فيحيي كل داخل منهم بكلام
يخصه، فإذا استقروا أقبل عليهم مضيّفهم بعبارات الإكرام.

و﴿هَيَّئًا﴾ يجوز أن يكون فعلاً بمعنى فاعل إذا ثبت له الهناء، فيكون منصوباً على
النيابة عن المفعول المطلق لأنه وصفه، وإسناد الهناء للأكل والشرب مجاز عقلي لأنهما
متلبسان بالهناء للأكل والشارب.

ويجوز أن يكون اسم فاعل من غير الثلاثي بوزن ما للثلاثي. والتقدير: مهتئاً، أي:
سبب هناء، كما قال عمرو بن معد يكرب:

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ

أي: المُسمع، وكما وُصف الله تعالى بالحكيم بمعنى المُحكِم للمصنوعات. ويجوز أن يكون فعلاً بمعنى مفعول، أي: مَهْنِئاً به.

وعلى الاحتمالات كلها فإفراد ﴿هَنِيئاً﴾ في حال أنه وصف لشيئين بناءً على أن فعلاً بمعنى فاعل لا يطابق موصوفه، أو على أنه إذا كان صفة لمصدر فهو نائب عن موصوفه، والوصف بالمصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث. و﴿يَمَّا أَسْلَفْتُمْ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾. والباء للسببية.

وما صدق «ما» الموصولة هو العمل، أي: الصالح.

والإسلاف: جعل الشيء سلفاً، أي: سابقاً.

والمراد أنه مقدم سابق لإبانه ليُنتفع به عند الحاجة إليه، ومنه اشتق السُّلف للقرض، والإسلاف للإقراض، والسُّلفَة للسُّلم.

و﴿الْآيَاتِ لِلْقَالِينَ﴾: الماضية البعيدة، مشتق من الخلو وهو الشغور والبُعد.

[29 - 25] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لَرَأُوتَ كِتَابِيَّةً (25) وَلَوْ أَدْرِمَا حِسَابِيَّ (26) يَلَيِّنَهَا كَأَنَّ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ (29)﴾.

هذا قسم ﴿مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحاقة: 19]، فالقول في إيتائه كتابه بشماله قد عُرف وجهه مما تقدم.

وتمني كل من أوتي كتابه بشماله أنه لم يؤت كتابه، لأنه عَلِمَ من الاطلاع على كتابه أنه صائر إلى العذاب فيتمنى أن لا يكون عَلِمَ بذلك إبقاءً على نفسه من حزنها زمناً، فإن ترقب السوء عذاب.

وجملة: ﴿لَوْ أَدْرِمَا حِسَابِيَّ (26)﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿لَيَتَنِي﴾.

والمعنى: إنه كان مكذباً بالحساب، وهو مقابل قول الذي أوتي كتابه بيمينه: إني ظننت أنني ملاقٍ حسابيه.

وجملة الحال معترضة بين جملي التمني.

ويجوز أن يكون عطفاً على التمني، أي: يا ليتني لم أدر ما حسابيه، أي: لم أعرف كنه حسابي، أي: نتيجته، وهذا وإن كان في معنى التمني الذي قبله، فإعادته تكرير لأجل التحسُّر والتحزن.

و(ما) استفهامية، والاستفهام بها هو الذي علّق فعل ﴿أَدْرِمَا﴾ عن العمل، و﴿يَلَيِّنَهَا

كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ تَمَنَّ آخِرَ وَلَمْ يَعْطِفْ عَلَى التَّمَنِي الْأَوَّلِ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ التَّحَسُّرَ وَالتَّندُمَ.
وَضَمِيرُ ﴿لَيْتَهَا﴾ عَائِدٌ إِلَى مَعْلُومٍ مِنَ السِّيَاقِ، أَي: لَيْتَ حَالَتِي، أَوْ لَيْتَ مَصِيبَتِي
كَانَتِ الْقَاضِيَةَ.

والقاضية: الموت، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: 40].
أي: مقبوراً في التراب.

وجملة: ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ ﴿٢٧﴾ من الكلام الصالح لأن يكون مثلاً لإيجازه
ووفرة دلالاته ورشاقته معناه، عبّر بها عما يقوله مَنْ أوتي كتابه بشماله من التحسر بالعبارة
التي يقولها المتحسّر في الدنيا بكلام عربي يؤدي المعنى المقصود. ونظيره ما حكى
عنهم في قوله تعالى: ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: 13]، وقوله: ﴿يَوَيْلَ لِي لَيْتَنِي لَوْ أَتَّخَذْتُ
فُلْتًا خَلِيلًا﴾ ﴿٢٨﴾ [الفرقان: 28]، وقوله: ﴿يَوَيْلَ لَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ [الكهف: 49] الآية.

ثم أخذ يتحسر على ما فرط فيه من الخير في الدنيا بالإقبال على ما لم يُجِدْه في
العالم الأبدي فقال: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾، أي: يقول ذلك من كان ذا مال وذا سلطان
من ذلك الفريق من جميع أهل الإشراف والكفر، فما ظنك بحسرة من اتبعوهم واقتدوا
بهم إذا رأوهم كذلك. وفي هذا تعريض بسادة مشركي العرب مثل أبي جهل وأمية بن
خلف، قال تعالى: ﴿وَدَرَجَاتٍ وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ [المزمل: 11].

وفي: ﴿أَغْنَى عَنِّي﴾ الجنس الخطي ولو مع اختلاف قليل كما في قولهم: غرّك
غرّك فصار قصارى ذلك ذلك.

ومعنى هلاك السلطان: عدم الانتفاع به يومئذ، فهو هلاك مجازي. وضمّن ﴿هَلَكَ﴾
معنى «غاب» فعدي بـ«عن»، أي: لم يحضرني سلطاني الذي عهدته.

والقول في هاءات (كتابه، وحسابيه، وماليه، وسلطانيه) كالقول فيما تقدم، إلا أن
حمزة وحلّفاً قرأ هنا: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾ بدون هاء في حالة
الوصل.

[30 - 37] ﴿خَذُوهُ فَعْلُوهُ﴾ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ
ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾
فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حِمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿خَذُوهُ﴾ مقول لقول محذوف موقعه في موقع الحال من ضمير: ﴿فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَوْ أُوتِ
كِتَابِيَّةٌ﴾ [الحاقة: 25]، والتقدير: يقال: خذوه.

ومعلوم من المقام أن المأمورين بأن يأخذوه هم الملائكة الموكلون بسوق أهل الحساب إلى ما أعدَّ لهم.
والأخذ: الإمساك باليد.

وَعُلُّوه: أمر من غلَّ إذا وضعه في الغُل وهو القيد الذي يجعل في عنق الجاني أو الأسير فهو فعل مشتق من اسم جامد، ولم يسمع إلا ثلاثياً، ولعل قياسه أن يقال: غلَّه بلامين لأن الغُل مضاعف اللام، فحقه أن يكون مثل عَمَم، إذا جعل له عمامة، وأزَّر، إذا ألبسه إزاراً، ودرَّع الجارية، إذا ألبسها الدرع، فلعلهم قالوا: غلَّه تخفيفاً، وعطف بفاء التعقيب لإفادة الإسراع بوضعه في الأغلال عقب أخذه.

و﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ﴾ ⁽³¹⁾ للتراخي الرتبي، لأن مضمون الجملة المعطوفة بها أشد في العقاب من أخذه ووضعه في الأغلال.

وصلى: مضاعف تضعيف تعدية لأن صلي بالنار معناه أصابه حرقها أو تدفأ بها، فإذا عدِّي قيل: أصلاه ناراً، وصلاًه ناراً.

و﴿ثُمَّ﴾ من قوله: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوْهُ﴾ ⁽³²⁾ للتراخي الرتبي بالنسبة لمضمون الجملتين قبلها، لأن مضمون: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أعظم من مضمون ﴿فَعُلُّوْهُ﴾.

ومضمون ﴿فَاسْلُكُوْهُ﴾ دلٌّ على إدخالهم الجحيم، فكان إسلاكه في تلك السلسلة أعظم من مطلق إسلاكه الجحيم.

ومعنى: ﴿اسْلُكُوْهُ﴾: اجعلوه سالكاً، أي: داخلاً في السلسلة، وذلك بأن تُلَفَّ عليه السلسلة فيكون في وسطها، ويقال: سلكه، إذا أدخله في شيء، أي: اجعلوه في الجحيم مكبلاً في أغلاله.

وتقديم ﴿الْجَحِيمَ﴾ على عامله لتعجيل المساءة مع الرعاية على الفاصلة، وكذلك تقديم ﴿فِي سِلْسِلَةٍ﴾ على عامله.

واقترن فعل ﴿فَاسْلُكُوْهُ﴾ بالفاء إما لتأكيد الفاء التي اقترنت بفعل ﴿فَعُلُّوْهُ﴾، وإما للإيذان بأن الفعل منزل منزلة جزاء شرط محذوف، وهذا الحذف يشعر به تقديم المعمول غالباً كأنه قيل: مهما فعلتم به شيئاً فاسلكوه في سلسلة، أو مهما يكن شيء فاسلكوه.

والمقصود تأكيد وقوع ذلك والحثُّ على عدم التفريط في الفعل وأنه لا يرجى له تخفيف، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ⁽³⁾ وَبَابَكَ فَطَهِّرْ ⁽⁴⁾ وَالْجَنَّةَ فَأَهْجُرْ ⁽⁵⁾﴾ [المدثر: 3-5]، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ في سورة يونس [58].

والسلسلة: اسم لمجموع حلق من حديد داخل بعض تلك الحلق في بعض تُجعل لوثاق شخص كي لا يزول من مكانه، وتقدم في قوله تعالى: ﴿إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ﴾ في سورة غافر [71].

وجملة: ﴿ذَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ صفة ﴿سَلْسِلَةٍ﴾، وهذه الصفة وقعت معترضة بين المجرور ومتعلقه للتحويل على المشركين المكذبين بالقارعة، وليست الجملة مما خوطب الملائكة الموكلون بسوق المجرمين إلى العذاب، ولذلك فعدد السبعين مستعمل في معنى الكثرة على طريقة الكناية مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: 80].

والذرع: كيل طول الجسم بالذراع وهو مقدار من الطول مقدّر بذراع الإنسان، وكانوا يقدرون بمقادير الأعضاء مثل الذراع، والأصبع، والأنملة، والقدم، وبالأبعاد التي بين الأعضاء مثل الشبر، والفتر، والرّتب بفتح الراء والتاء، والعتب، والبُضم والخُطوة.

وجملة: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ 33 وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ 34 في موضع العلة للأمر بأخذه وإصلاحه الجحيم.

ووصف الله بالعظيم هنا إيماء إلى مناسبة عظم العذاب للذنب إذ كان الذنب كفراناً بعظيم فكان جزاءً وفاقاً.

والحض على الشيء: أن يطلب من أحد فعل شيء ويُلحّ في ذلك الطلب.

ونفي حضّه على طعام المسكين يقتضي بطريق الفحوى أنه لا يُطعم المسكين من ماله، لأنه إذا كان لا يأمر غيره بإطعام المسكين فهو لا يطعمه من ماله، فالمعنى لا يطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه، وقد كان أهل الجاهلية يُطعمون في الولائم، والميسر، والأضياف، والتحابب، رياء وسُمة. ولا يُطعمون الفقير إلا قليل منهم. وقد جعل عدم الحض على طعام المسكين مبالغة في شح هذا الشخص عن المساكين بمال غيره وكناية عن الشح عنهم بماله، كما جعل الحرص على إطعام الضيف كناية عن الكرم في قول زينب بنت الطّثريّة ترثي أخاها يزيد:

إذا نزل الأضياف كان عذوراً على الحي حتى تستقلّ مراجله

تريد أنه يحضر الحي ويستعجلهم على نصف القدور للأضياف حتى توضع قدور الحي على الأثافي ويشرعوا في الطبخ، والعذور بعين مهملة وذال معجمة كعَمَلَس: الشّكس الخلق.

إلا أن كناية ما في الآية عن البخل أقوى من كناية ما في البيت عن الكرم، لأن الملازمة في الآية حاصلة بطريق الأولوية بخلاف البيت.

وإذ قد جعل عدم حصّهِ على طعام المسكين جزء علة لشدة عذابه، علمنا من ذلك موعظة للمؤمنين زاجرة عن منع المساكين حقهم في الأموال وهو الحق المعروف في الزكاة والكفارات وغيرها.

وقوله: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾ من تمام الكلام الذي ابتدئ بقوله: ﴿خُذُوهُ﴾، وتفرّيع عليه.

والمقصود منه أن يسمعه من أوتي كتابه بشماله فيأس من أن يجد مدافعاً يدفع عنه بشفاعه، وتنديماً له على ما أضاعه في حياته من التزلف إلى الأصنام وسدنتها وتمويههم عليه أنه يجدهم عند الشدائد وإمام المصائب. وهذا وجه تقييد نفي الحميم بـ ﴿الْيَوْمَ﴾ تعريضاً بأن أحجاءهم في الدنيا لا ينفعونهم اليوم كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ائِنْ شَرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: 22]، وقوله عنهم: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: 53]، وغير ذلك مما تفوق في آي القرآن.

فقوله: ﴿لَهُ﴾ هو خبر ﴿فَلَيْسَ﴾ لأن المجرور بلام الاختصاص هو محط الأخبار دون ظرف المكان. وقوله: ﴿هُنَا﴾ ظرف متعلق بالكون المنوي في الخبر بحرف الجر. وهذا أولى من جعل ﴿هُنَا﴾ خبراً عن ﴿ليس﴾ وجعل ﴿لَهُ﴾ صفة لـ ﴿حَمِيمٌ﴾ إذ لا حاجة لهذا الوصف.

والحميم: القريب، وهو هنا كناية عن النصير إذ المتعارف عند العرب أن أنصار المرء هم عشيرته وقبيلته.

﴿وَلَا طَعَامٌ﴾ عطف على ﴿حَمِيمٌ﴾.

والغسلين: بكسر الغين ما يدخل في أفواه أهل النار من المواد السائلة من الأجساد وماء النار ونحو ذلك مما يعلمه الله فهو عَلمٌ على ذلك مثل: سَجِّين، وسِرِّين، وعِرْنين، فقليل: إنه فَعْلين من الغَسَل لأنه سال من الأبدان فكأنه غُسل عنها. ولا موجب لبيان اشتقاقه.

﴿الْخَاطِئُونَ﴾: أصحاب الخطايا، يقال: خطي، إذا أذنب.

والمعنى: لا يأكله إلا هو وأمثاله من الخاطئين.

وتعريف ﴿الْخَاطِئُونَ﴾ للدلالة على الكمال في الوصف، أي: المرتكبون أشد الخطأ وهو الإشراك.

وقرأ الجمهور: ﴿الْفَاطِنُونَ﴾ بإظهار الهمزة، وقرأ أبو جعفر ﴿الخاطون﴾ بضم الطاء بعدها واو على حذف الهمزة تخفيفاً بعد إبدالها ياء تخفيفاً. وقال الطيبي: قرأ حمزة عند الوقف ﴿الخاطيون﴾ بإبدال الهمزة ياءً ولم يذكره عنه غير الطيبي.

[38 - 43] ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا بُصِّرُونَ﴾ (38) وَمَا لَا بُصِّرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ (41) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (42) نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (43).

الفاء هاء لتفريع إثبات أن القرآن مُنزل من عند الله ونفي ما نسبته المشركون إليه، تفريعاً على ما اقتضاه تكذيبهم بالبعث من التعريض بتكذيب القرآن الذي أخبر بوقوعه، وتكذيبهم الرسول ﷺ القائل إنه موحى به إليه من الله تعالى.

وابتدئ الكلام بالقسم تحقيقاً لمضمونه على طريقة الأقسام الواردة في القرآن، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا﴾ (1) [الصفات: 1]. وضمير ﴿أُقْسِمُ﴾ عائد إلى الله تعالى.

جمع الله في هذا القسم كل ما الشأن أن يُقسم به من الأمور العظيمة من صفات الله تعالى ومن مخلوقاته الدالة على عظيم قدرته إذ يجمع ذلك كله الصَّلَتَانِ ﴿بِمَا بُصِّرُونَ﴾ (38) وَمَا لَا بُصِّرُونَ، فمما يبصرون: الأرض والجبال والبحار والنفوس البشرية والسموات والكواكب، وما لا يبصرون: الأرواح والملائكة وأمور الآخرة.

و﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ صيغة تحقيق قسم، وأصلها أنها امتناع من القسم امتناع تحرج من أن يحلف بالمقسم به خشية الحنث، فشاع استعمال ذلك في كل قسم يراد تحقيقه، واعتبر حرف «لا» كالمزيد كما تقدم عند قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْعِدِ الْجُودِ﴾ في سورة الواقعة [75].

ومن المفسرين من جعل حرف «لا» في هذا القسم إبطالاً لكلام سابق، وأن فعل ﴿أُقْسِمُ﴾ بعدها مستأنف، ونقض هذا بوقوع مثله في أوائل السور مثل: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ (1) [القيامة: 1] و﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (1) [البلد: 1].

وضمير ﴿إِنَّهُ﴾ عائد إلى القرآن المفهوم من ذكر الحشر والبعث، فإن ذلك مما جاء به القرآن ومحيطه بذلك من أكبر أسباب تكذيبهم به، على أن إرادة القرآن من ضمائر الغيبة التي لا مُعاد لها قد تكرر غير مرة فيه.

وتأكيد الخبر بحرف «إن» واللام للرد على الذين كذبوا أن يكون القرآن من كلام الله ونسبوه إلى غير ذلك.

والمراد بالرسول الكريم محمد ﷺ كما يقتضيه عطف قوله: ﴿وَلَوْ نَفَقَلْنَا عَلَيْكَ بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ (44) [الحاقة: 44]، وهذا كما وُصف موسى بـ ﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: 17]. وإضافة ﴿نَقُولُ﴾ إلى ﴿رَسُولٍ﴾ لأنه الذي بلغه فهو قائله، والإضافة لأدنى ملابسة وإلا فالقرآن جعله الله تعالى وأجراه على لسان النبي ﷺ، كما صدر من جبريل بإيحائه بواسطته، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: 97].

روى مقاتل أن سبب نزولها: أن أبا جهل قال: إن محمداً شاعر، وأن عقبة بن أبي معيط قال: هو كاهن، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [40] الآية.

ويجوز أن يراد بـ ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ جبريل ﷺ كما أريد به في سورة التكوير إذ الظاهر أن المراد به هنالك جبريل كما يأتي.

وفي لفظ: ﴿رَسُولٍ﴾ إيذان بأن القول قول مرسله، أي: الله تعالى. وقد أكد هذا المعنى بقوله عقبه: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [43].

ووصف الرسول بـ ﴿كَرِيمٍ﴾ لأنه الكريم في صفته، أي: النفيس الأفضل مثل قوله: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ في سورة النمل [96].

وقد أثبت للرسول ﷺ الفضل على غيره من الرسل بوصف ﴿كَرِيمٍ﴾، ونفي أن يكون شاعراً أو كاهناً بطريق الكناية عند قصد رد أقوالهم.

وعطف ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾ على جملة الخبر في قوله: ﴿يَقُولُ شَاعِرٌ﴾، ﴿وَلَا﴾ النافية تأكيد لنفي ﴿وَمَا﴾.

وكني بنفي أن يكون قول شاعر، أو قول كاهن عن تنزيه النبي ﷺ عن أن يكون شاعراً أو كاهناً، رد لقولهم: هو شاعر أو هو كاهن.

وإنما خص هذان بالذكر دون قولهم: افتراه، أو هو مجنون، لأن الوصف بكريم كاف في نفي أن يكون مجنوناً أو كاذباً إذ ليس المجنون ولا الكاذب بكريم، فأما الشاعر والكاهن فقد كانا معدودين عندهم من أهل الشرف.

والمعنى: ما هو قول شاعر ولا قول كاهن تلقاه من أحدهما ونسبه إلى الله تعالى. و﴿قَلِيلًا﴾ في قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ مراد به انتفاء ذلك من أصله على طريقة التلميح القريب من التهكم كقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 46]، وهو أسلوب عربي، قال ذو الرمة:

أنيحت فألقت بلدةً فوق بلدةٍ قليلٍ بها الأصواتُ إلا بُغائُها
فإن استثناء بُغام راحلته دلٌّ على أنه أراد من (قليل) عدم الأصوات.

والمعنى: لا تؤمنون ولا تذكرون، أي: عندما تقولون: هو شاعر وهو مجنون، ولا نظر إلى إيمان من آمن منهم من بعد. وقد تقدم في سورة البقرة [88] قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

وانتصب ﴿فَقَلِيلًا﴾ في الموضعين على الصفة لمصدر محذوف يدل عليه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تؤمنون إيماناً قليلاً، وتذكرون تذكراً قليلاً. ﴿وَمَا﴾ مزيدة للتأكيد كقول حاتم الطائي:

قليلًا به ما يحمدنك وارث إذا نال مما كنت تجمع مغمنا
وجملتا: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿فَقَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ معترضتان، أي: انتفى أن يكون قول شاعر، وانتفى أن يكون قول كاهن، وهذا الانتفاء لا يحصل إيمانكم ولا تذكركم لأنكم أهل عناد.

وقرأ الجمهور: ﴿مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، و﴿مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كليهما بالمشناة الفوقية، وقرأهما ابن كثير وهشام عن ابن عامر (واختلف الرواة عن ابن ذكوان عن ابن عامر) ويعقوب بالياء التحتية على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، وحسن ذلك كونهما معترضتين.

وأوثر نفي الإيمان عنهم في جانب انتفاء أن يكون قول شاعر، ونفي التذكر في جانب انتفاء أن يكون قول كاهن، لأن نفي كون القرآن قول شاعر بديهي إذ ليس فيه ما يشبه الشعر من اتزان أجزائه في المتحرك والساكن والتقفية المتماثلة في جميع أواخر الأجزاء، فادعاهم أن قول شاعر بهتان متعمد ينادي على أنهم لا يرجى إيمانهم.

وأما انتفاء كون القرآن قول كاهن فمحتاج إلى أدنى تأمل إذ قد يشبه في بادئ الرأي على السامع من حيث إنه كلام منشور مؤلف على فواصل ويؤلف كلام الكهان على أسجاع مثناة متماثلة زوجين زوجين، فإذا تأمل السامع فيه بأدنى تفكر في نظمه ومعانيه علم أنه ليس بقول كاهن، فنظمه مخالف لنظم كلام الكهان إذ ليست فقراته قصيرة ولا فواصله مزدوجة ملتزم فيها السجع، ومعانيه ليست من معاني الكهانة الرامية إلى الإخبار عما يحدث لبعض الناس من أحداث، أو ما يلم بقوم من مصائب متوقعة ليحذروها، فلذلك كان المخاطبون بالآية منتفياً عنهم التذكر والتدبر، وإذا بطل هذا وذاك بطل مدعاهم فحق أنه تنزيل من رب العالمين كما ادَّعاه الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم.

وقوله: ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (43) خبر ثان عن اسم (إن) وهو تصريح بعد الكناية.

ولك أن تجعل ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (80) خبر مبتدأ محذوف جرى حذفه على

النوع الذي سمّاه السكاكي بمتابعة الاستعمال في أمثاله وهو كثير في الكلام البليغ، وتجعل الجملة استثنافاً بيانياً لأن القرآن لما وصف بأنه (قول رسول كريم) ونفي عنه أن يكون قول شاعر أو قول كاهن، ترقّب السامع معرفة كنهه، فبيّن بأنه مُنزل من ربّ العالمين على الرسول الكريم ليقوله للناس ويتلوه عليهم.

﴿نَزِيلٌ﴾ وصف بالمصدر للمبالغة.

والمعنى: إنه منزل من ربّ العالمين على الرسول الكريم.

وعبر عن الجلالة بوصف ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دون اسمه العَلَم للتنبية على أنه ربّ المخاطبين وربّ الشعراء والكهان الذين كانوا بمحل التعظيم والإعجاب عندهم نظير قول موسى لفرعون: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 26].

[44 - 47] ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ [44] لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿45﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿46﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿47﴾.

هذه الجملة عطف على جملة: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُصِّرُونَ﴾ [38] وَمَا لَا بُصْرُونَ ﴿39﴾ [الحاقة: 38 - 39] فهي مشمولة لما أفادته الفاء من التفريع على ما اقتضاه تكذيبهم بالبعث من تكذيبهم القرآن ومن جاء به وقال: إنه وحي من الله تعالى.

فمفاد هذه الجملة استدلال ثان على أن القرآن منزل من عند الله تعالى على طريقة المذهب الكلامي، بعد الاستدلال الأول المستند إلى القسم والمؤكدات على طريقة الاستدلال الخطابي.

وهو استدلال بما هو مقرر في الأذهان من أن الله واسع القدرة، وأنه عليم فلا يقدر أحداً على أن يقول عنه كلاماً لم يقله، أي: لو لم يكن القرآن منزلاً من عندنا ومحمد ادعى أنه منزل منا، لما أقررناه على ذلك، ولعجلنا بإهلاكه. فعدم هلاكه ﷺ دالٌّ على أنه لم يتقوله على الله، فإن (لو) تقتضي انتفاء مضمون شرطها لانتفاء مضمون جوابها.

فحصل من هذا الكلام غرضان مهمّان:

أحدهما: يعود إلى ما تقدم، أي: زيادة إبطال لمزاعم المشركين أن القرآن شعر أو كهانة إبطالاً جامعاً لإبطال النوعين، أي: ويوضح مخالفة القرآن لهذين النوعين من الكلام إن الآتي به ينسبه إلى وحي الله وما علمتم شاعراً ولا كاهناً يزعم أن كلامه من عند الله.

وثانيهما: إبطال زعم لهم لم يسبق التصريح بإبطاله وهو قول فريق منهم: «افتراه»،

أي: نسبه إلى الله افتراء وتقوله على الله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [33] [الطور: 33]، فبين لهم أنه لو افتري على الله لما أقره على ذلك.

ثم أن هذا الغرض يستتبع غرضاً آخر وهو تأييسهم من أن يأتي بقرآن لا يخالف دينهم ولا يسفه أحلامهم وأصنامهم، قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ﴾ [يونس: 15]، وهذه الجملة معطوفة عطف اعتراض، فلك أن تجعل الواو اعتراضية فإنه لا معنى للواو الاعتراضية إلا ذلك.

والتقوُّل: نسبة قول لمن لم يقله، وهو تفعل من القول صيغت هذه الصيغة الدالة على التكلف لأن الذي ينسب إلى غيره قولاً لم يقله يتكلف ويختلق ذلك الكلام، ولكونه في معنى كذب عُدي بـ«على».

والمعنى: لو كذب علينا فأخبر أنا قلنا قولاً لم نقله... إلخ.

و﴿بَعْضَ﴾ اسم يدل على مقدار من نوع ما يضاف هو إليه، وهو هنا منصوب على المفعول به لـ ﴿نَقُولَ﴾.

و﴿الْأَقْوَابِلَ﴾: جمع أقوال الذي هو جمع قول، أي: بعضاً من جنس الأقوال التي هي كثيرة، فلكثرتها جيء لها بجمع الجمع الدال على الكثرة، أي: ولو نسب إلينا قليلاً من أقوال كثيرة صادقة، يعني لو نسب إلينا شيئاً قليلاً من القرآن لم ننزله لأخذنا منه باليمين، إلى آخره.

ومعنى ﴿لَأُخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [46] لأخذناه بقوة، أي: دون إمهال فالباء للسيبة.

واليمين: اليد اليمنى كني بها عن الاهتمام بالتمكن من المأخوذ، لأن اليمين أقوى عملاً من الشمال لكثرة استخدامها، فنسبة التصرف إليها شهيرة.

وتقدم ذلك في مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ في سورة البقرة [224]، وقوله: ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ سَمَائِهِمْ﴾ في سورة الأعراف [17]، وقوله: ﴿وَلَا تَخْطُهُ يَمِينُكَ﴾ في سورة العنكبوت [48].

وقال أبو الغول الطهوي:

فدت نفسي وما ملكت يميني فوارس صدقوا فيهم ظنوني

والمعنى: لأخذناه أخذاً عاجلاً فقطعنا وتينه، وفي هذا تهويل لصورة الأخذ، فلذلك لم يقتصر على نحو: لأهلكناه.

و﴿مِنْهُ﴾ متعلق بـ«أخذنا» تعلق المفعول بعامله. و«من» زائدة في الإثبات على رأي

الأخفش والكوفيين وهو الراجح. وقد بينته عند قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ﴾ [الأنعام: 99]، فإن ﴿النَّخْلِ﴾ معطوف على ﴿خَضِرًا﴾ بزيادة «من» ولولا اعتبار الزيادة لما استقام الإعراب إلا بكلفة، وفائدة «من» الزائدة في الكلام أن أصلها التبعض المجازي على وجه التمليح كأنه يقول: نأخذ بعضه.

و﴿الْوَتِينَ﴾: عرق معلق به القلب ويسمى النياط، وهو الذي يسقي الجسد بالدم ولذلك يقال له: نهر الجسد، وهو إذا قطع مات صاحبه وهو يقطع عند نحر الجزور.

فقطع الوتين من أحوال الجزور ونحرها، فشبه عقاب من يفرض تقوله على الله بجزور تنحر فيقطع وتينها.

ولم أقف على أن العرب كانوا يكتنون عن الإهلاك بقطع الوتين، فهذا من مبتكرات القرآن.

و﴿مِنْهُ﴾ صفة للوتين، أو متعلق بـ«قطعنا» أي: أنزلناه منه.

وبين ﴿مِنْهُ﴾ الأولى و﴿مِنْهُ﴾ الثانية محسن الجناس.

وأما موقع تفريع قوله: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزٌ﴾ (47) فهو شديد الاتصال بما استتبعه فرض التقول من تأيسهم من أن يتقول على الله كلاماً لا يسوءهم، ففي تلك الحالة من أحوال التقول لو أخذنا عنه باليمين فقطعنا منه الوتين، لا يستطيع أحد منكم أو من غيركم أن يحجز عنه ذلك العقاب، وبدون هذا الاتصال لا يظهر معنى تعجيزهم عن نصره إذ ليسوا من الولاء له بمظنة نصره، فمعنى هذه الآية يحوم حول معنى قوله: ﴿وَلَا يَفْتَنُونَكَ بِهِ أَوْ يَحِينَا إِلَيْكَ لِنَفْتَرِيَ عَلَيْكَ غِبْرَةً وَإِذَا لَا تَقْضُوكَ حَبْلًا﴾ (73) وَلَوْلَا أَنْ تُبَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُزُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذَا لَا ذَفْنَكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْكَ نَصِيرًا (75) [الإسراء: 73 - 75].

والخطاب في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ للمشركين.

وإنما أخبر عن ﴿أَحَدٍ﴾ وهو مفرد بـ﴿حَاجِزٍ﴾ جمعاً لأن ﴿أَحَدٍ﴾ هنا وإن كان لفظه مفرداً فهو في معنى الجمع لأن ﴿أَحَدٍ﴾ إذا كان بمعنى ذات أو شخص لا يقع إلا في سياق النفي ثم عريب، وديار ونحوهما من النكرات التي لا تستعمل إلا منفية فيفيد العموم، أي: كل واحد لا يستطيع الحجز عنه ويستوي في لفظه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿لَا تَفَرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285]، وقال: ﴿لَسَنَّا كَآخِرٍ مِنَ الْآسَاءِ﴾ [الأحزاب: 32].

والمعنى: ما منكم أناس يستطيعون الحجز عنه.

والحجز: الدفع والحيلولة، أي: لا أحد منكم يحجزنا عنه. والضمير عائد إلى: «الرسول الكريم».

و﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ مزيدة لتأكيد النفي وللتنصيص على العموم. وذكر ﴿مِنْكُمْ﴾ مع ﴿عَنْهُ﴾ تجنيس محرف.

وهذه الآية دليل على أن الله تعالى لا يبغي أحداً يدعي أن الله أوحى إليه كلاماً يبلغه إلى الناس، وأنه يعجل بهلاكه.

فأما من يدعي النبوة دون ادعاء قول أوحى إليه، فإن الله قد يهلكه بعد حين كما كان في أمر الأسود العنسي الذي ادعى النبوة باليمن، ومُسيلمة الحنفي الذي ادعى النبوة في اليمامة، فإنهما لم يأتيا بكلام ينسبانه إلى الله تعالى، فكان إهلاكهما بعد مدة، ومثلهما من ادّعى النبوة في الإسلام مثل «بابك ومازيار».

وقال الفخر: قيل: اليمين بمعنى القوة والقدرة، والمعنى: لأخذنا منه اليمين، أي: سلبنا عنه القوة، والباء على هذا التقدير صلة زائدة. واعلم أن حاصل هذا أنه لو نسب إلينا قولاً لم نقله لمنعاه عن ذلك: إما بواسطة إقامة الحجة فإننا نقيض له من يعارضه فيه وحينئذ يظهر للناس كذبه فيه فيكون ذلك إبطاً لدعواه وهدماً لكلامه، وإما بأن نسلب عنه القدرة على التكلم بذلك القول، وهذا هو الواجب في حكمة الله تعالى لئلا يشتبه الصادق بالكاذب اهـ.

فرغب من تفسير اليمين بمعنى القوة، أن المراد قوة المتقول لا قوة الله، وانتزع من ذلك تأويل الباء على معنى الزيادة ولم يسبقه بهذا التأويل أحد من المفسرين ولا تبعه فيه من بعده فيما رأينا. وفيه نظر، وقد تبين بما فسرنا به الآية عدم الاحتجاج إلى تأويل الفخر.

[48] ﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُنْفِقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾.

عطف على ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿٤٠﴾ [الحاقة: 40]، والضمير عائد إلى القرآن الذي تقدم ضميره في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿٤٠﴾، فلما أبطل طعنهم في القرآن بأنه قول شاعر، أو قول كاهن، أعقب ببيان شرفه ونفعه، إمعاناً في إبطال كلامهم بإظهار الفرق البين بينه وبين شعر الشعراء وزمزمة الكهان، إذ هو تذكرة وليس ما ألحقوه به من أقوال أولئك من التذكير في شيء.

والتذكرة: اسم مصدر التذكير وهو التنبيه إلى مغفول عنه.

والإخبار: بـ ﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ﴾ إخبار بالمصدر للمبالغة في الوصف. والمعنى: أنه مذكّر للناس بما يغفلون عنه من العلم بالله وما يليق بجلاله ليتشلهم من هوّة التمادي في

الغفلة حتى يفوت الفوات، فالقرآن في ذاته تذكرة لمن يريد أن يتذكر سواء تذكر أم لم يتذكر، وقد تقدم تسمية القرآن بالذكر والتذكير في آيات عديدة منها قوله تعالى في سورة طه [3]: ﴿إِلَّا نَذْكِرُهُ لِمَن يَخْشَى ۝٣﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا يَأْتِيهَا الذِّكْرُ نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ في سورة الحجر [6].

والمراد بالمتقين المؤمنون فإنهم المتصفون بتقوى الله لأنهم يؤمنون بالبعث والجزاء دون المشركين. فالقرآن كان هادياً إياهم للإيمان كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] وكلما نزل منه شيء أو تلوا منه شيئاً ذكّروهم بما عملوا لئلا تعثرهم غفلة أو نسيان، فالقرآن تذكرة للمتقين في الماضي والحال والمستقبل، فإن الإخبار عنهم باسم المصدر يتحمل الأزمنة الثلاثة إذ المصدر لا إشعار له بوقت بخلاف الفعل وما أشبهه.

وإنما علق ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بكونه تذكرة لأن المتقين هم الذين أدركوا مزيته.

[49، 50] ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠﴾.

هاتان جملتان مرتبطتان، وأولاهما تمهيد وتوطئة للثانية، وهي معترضة بين التي قبلها والتي بعدها، والثانية منها معطوفة على جملة: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الحاقة: 48]، فكان تقديم الجملة الأولى على الثانية اهتماماً بتنبية المكذبين إلى حالهم وكانت أيضاً بمنزلة التتميم لجملة: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الحاقة: 48].

والمعنى: إنا بعثنا إليكم الرسول بهذا القرآن ونحن نعلم أنه سيكون منكم مكذبون له وبه، وعلمنا بذلك لم يصرفنا عن توجيه التذكير إليكم وإعادته عليكم ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: 42]، فقبولت صفة القرآن التي تنفع المتقين بصفته التي تضر بالكافرين على طريقة التضاد، فبين الجملتين المتعاطفتين محسن الطباق.

والحسرة: الندم الشديد المتكرر على شيء فائت مرغوب فيه، ويقال لها: التلهف، اشتقت من الحسر وهو الكشف، لأن سببها ينكشف لصاحبها بعد فوات إدراكه ولا يزال يعاوده، فالقرآن حسرة على الكافرين، أي: سبب حسرة عليهم في الدنيا والآخرة، فهو حسرة عليهم في الدنيا لأنه فضح ثرّاتهم ونقض عماد دينهم الباطل وكشف حقارة أصنامهم، وهو حسرة عليهم في الآخرة لأنهم يجدون مخالفته سبب عذابهم، ويقفون على اليقين بأن ما كان يدعوهم إليه هو سبب النجاح لو اتبعوه لا سيما وقد رأوا حسن عاقبة الذين صدّقوا به.

والمكذبون: هم الكافرون. وإنما عدل عن الإتيان بضميرهم إلى الاسم الظاهر لأن الحسرة تعم المكذبين يومئذ والذين سيكفرون به من بعد.

[51] ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾.

عطف على ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (50)، فيحتمل أن يكون الضمير عائداً على القرآن لأن هذه من صفات القرآن، ويحتمل أن يكون مراداً به المذكور وهو كون القرآن حسرة على الكافرين، أي: إن ذلك حق لا محالة، أي: هو جالب لحسرتهم في الدنيا أو الآخرة.

وإضافة حق إلى يقين يجوز أن يكون من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: إنه لليقين الحق الموصوف بأنه يقين لا يشك في كونه حقاً إلا من غشي على بصيرته، وهذا أولى من جعل الإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: لليقين الحق، أي: الذي لا تعتريه شبهة.

واعلم أن حق اليقين، وعين اليقين، وعلم اليقين وقعت في القرآن.

فحق اليقين وقع في هذه السورة وفي آخر سورة الواقعة. وعلم اليقين وعين اليقين وقعا في سورة التكاثر، وهذه الثلاثة إضافتها من إضافة الصفة إلى الموصوف أو من إضافة الموصوف إلى الصفة كما ذكرنا. ومعنى كل مركب منها هو محصل ما تدل عليه كلمته وإضافة إحداهما إلى الأخرى.

وقد اصطلح العلماء على جعل كلمة «علم اليقين» اسماً اصطلاحياً لما أعطاه الدليل بتصور الأمور على ما هي عليه حسب كلام السيد الجرجاني في كتاب «التعريفات».

ووقع في كلام أبي البقاء في «الكليات» ما يدل على أن بعض هذه المركبات نقلت في بعض الاصطلاحات العلمية فصارت ألقاباً لمعان، وقال: علم اليقين لأصحاب البرهان، وعين اليقين وحق اليقين أيضاً لأصحاب الكشف والعيان كالأنبياء والأولياء على حسب تفاوتهم في المراتب، قال: وقد حقق المحققون من الحكماء بأن بعد المراتب الأربع للنفس (يعني مراتب تحصيل العلم للنفس المذكورة في المنطق الأوليات، والمشاهدات الباطنية، والتجربيات، والمتواترات) مرتبتين؛ إحداهما: مرتبة عين اليقين وهي أن تصوير النفس بحيث تشهد المعقولات في المعارف التي تفيضها النفس كما هي، والثانية: مرتبة حق اليقين وهي أن تصوير النفس بحيث تتصل بالمعقولات اتصالاً عقلياً وتلاقي ذاتها تلاقياً روحانياً.

واصطلح علماء التصوف على جعل كل مركب من هذه الثلاثة لقباً لمعنى من الانكشاف العقلي وجرت في كتاب الفتوحات المكية للشيخ محيي الدين بن عربي.

[52] ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

تفريع على جميع ما تقدم من وصف القرآن وتنزيهه على المطاعن وتنزيه النبي ﷺ عما افتراه عليه المشركون، وعلى ما أيده الله به من ضرب المثل للمكذبين به بالأُمم التي كذبت الرسل، فأمر النبي ﷺ بأن يسبِّح الله تسبيح ثناء وتعظيم شكراً له على ما أنعم به عليه من نعمة الرسالة وإنزال هذا القرآن عليه.

واسم الله هو العَلَمُ الدال على الذات.

والباء للمصاحبة، أي: سبِّح الله تسبيحاً بالقول لأنه يجمع اعتقاد التنزيه والإقرار به وإشاعته.

والتسبيح: التنزيه عن النقائص بالاعتقاد والعبادة والقول، فتعيَّن أن يجري في التسبيح القولی اسم المنزه، فلذلك قال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ولم يقل: فسبِّح ربَّك العظيم. وقد تقدم في الكلام على البسملة وجه إقحام اسم في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 1].

وتسبيح المُنعم بالاعتقاد والقول وهما مستطاع شكر الشاكرين إذ لا يُبلغ إلى شكره بأقصى من ذلك، قال ابن عطية: وفي ضمن ذلك استمرار النبي ﷺ على أداء رسالته وإبلاغها.

وروي أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «اجعلوها في ركوعكم». واستحب التزام ذلك جماعة من العلماء، وكره مالك التزام ذلك لئلا يعد واجباً فرضاً اهـ.

وتقدم نظير هذه الآية في آخر سورة الواقعة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المعارج

سُمِّيت هذه السورة في كتب السنة وفي «صحيح البخاري» و«جامع الترمذي»، وفي «تفسير الطبري» وابن عطية وابن كثير: «سورة سأل سائل». وكذلك رأيتها في بعض المصاحف المخطوطة بالخط الكوفي بالقيروان في القرن الخامس.

وسُمِّيت في معظم المصاحف المشرقية والمغربية وفي معظم التفاسير «سورة المعارج». وذكر في «الإتقان» أنها تسمى «سورة الواقع».

وهذه الأسماء الثلاثة مقتبسة من كلمات وقعت في أولها، وأخضها بها جملة: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾، لأنها لم يرد مثلها في غيرها من سور القرآن، إلا أنها غلب عليها اسم «سورة المعارج» لأنه أخف.

وهي مكية بالاتفاق. وشذ من ذكر أن آية: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: 24] مدنية.

وهي السورة الثامنة والسبعون في عداد نزول سور القرآن عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة الحاقة وقبل سورة النبأ.

وعَدَّ جمهور الأمصار أيها أربعاً وأربعين. وعدّها أهل الشام ثلاثاً وأربعين.



أغراضها

حَوّت من الأغراض تهديد الكافرين بعذاب يوم القيامة، وإثبات ذلك اليوم ووصف أهواله.

ووصف شيء من جلال الله فيه، وتهويل دار العذاب وهي جهنم. وذكر أسباب استحقاق عذابها.

ومقابلة ذلك بأعمال المؤمنين التي أوجبت لهم دار الكرامة وهي أضداد صفات الكافرين.

وتثبيت النبي ﷺ. وتسليته على ما يلقاه من المشركين.

ووصف كثير من خصال المسلمين التي بثها الإسلام فيهم، وتحذير المشركين من استئصالهم وتبديلهم بخير منهم.

[3 - 1] ﴿سَالَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۚ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۚ﴾ [2] ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي

الْمَعَارِجِ ۚ﴾ [3]

كان كفار قريش يستهزئون فيسألون النبي ﷺ: متى هذا العذاب الذي تتوعدنا به، ويسألونه تعجيله، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [48] ﴿[يونس: 48]، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: 47]، وكانوا أيضاً يسألون الله أن يوقع عليهم عذاباً إذا كان القرآن حقاً من عنده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ إِنَّا نَحْنُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [32] [الأنفال: 32].

وقيل: إن السائل شخص معين هو النضر بن الحارث قال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا - أي القرآن - هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ إِنَّا نَحْنُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [32] [الأنفال: 32].

وكان النبي ﷺ يسأل الله أن يعينه على المشركين بالقحط، فأشارت الآية إلى ذلك كله، ولذلك فالمراد بـ ﴿سَائِلٌ﴾ فريق أو شخص.

والسؤال مستعمل في معنَي الاستفهام عن شيء والدعاء، على أن استفهامهم مستعمل في التهكم والتعجيز. ويجوز أن يكون ﴿سَالَ سَائِلٌ﴾ بمعنى استعجل وألح.

وقرأ الجمهور: ﴿سَالَ﴾ بإظهار الهمزة. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿سَالَ﴾ بتخفيف الهمزة ألفاً. قال في الكشف: وهي لغة قريش وهو يريد أن قريشاً قد يخفون المهموز في مقام الثقل وليس ذلك قياساً في لغتهم، بل لغتهم تحقيق الهمزة، ولذلك قال

سيبويه: وليس ذا بقياس مُثَلَّبٌ (أي: مطرد مستقيم)، وإنما يحفظ عن العرب، قال: ويكون قياساً مُثَلَّباً إذا اضطر الشاعر، قال الفرزدق:

راحت بمسلمة البغال عشية فارعني فزارة لا هنالك المرتع
يريد لا هنالك بالهمز. وقال حسان:

سالت هذيل رسول الله فاحشةً ضلّت هذيل بما سألت ولم تُصِبِ
يريد سألو رسول الله ﷺ إباحة الزنى. وقال القرشي زيد بن عمرو بن نفيل (يذكر زوجه):

سألتني الطلاق أن رأيتني قلّ مالي قد جيئتماني بنكر
فهؤلاء ليس لغتهم: سال ولا يسأل، وبلغنا أن سلّت تسال لغة اهـ.
فجعل إبدال الهمز ألفاً للضرورة مطرداً ولغير الضرورة يُسمع ولا يقاس عليه، فتكون قراءة التخفيف سماعاً.

وذكر الطيبي عن أبي علي في الحجة: أن من قرأ: ﴿سَالٌ﴾ غير مهموز جعل الألف منقلبة عن الواو التي هي عين الكلمة مثل: قال وخاف.
وحكى أبو عثمان عن أبي زيد أنه سمع من يقول: هما متساولان. وقال في الكشف: يقولون: (أي: أهل الحجاز): سلّت تسأل وهما يتسايلان، أي: فهو أجوف يائي مثل هاب يهاب.

وكل هذه تلتقي في أن نطق أهل الحجاز ﴿سَالٌ﴾ غير مهموز سماعي، وليس بقياس عندهم، وأنه إما تخفيف للهمزة على غير قياس مطرد وهو رأي سيبويه، وإما لغة لهم في هذا الفعل وأفعال أخرى جاء هذا الفعل أجوف وائياً كما هو رأي أبي علي أو أجوف يائياً كما هو رأي الزمخشري. وبذلك يندحض تردد أبي حيان جعل الزمخشري قراءة: ﴿سَالٌ﴾ لغة أهل الحجاز إذ قد يكون لبعض القبائل لغتان في فعل واحد.

وإنما اجتلب هنا لغة المخفف لثقل الهمز المفتوح بتوالي حركات قبله وبعده وهي أربع فتحات، ولذلك لم يرد في القرآن مخففاً في بعض القراءات إلا في هذا الموضع، إذ لا نظير له فيوالي حركات، وإلا فإنه لم يقرأ أحد بالتخفيف في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾ [البقرة: 186] وهو يساوي: ﴿سَالٌ سَائِلٌ عَذَابٍ﴾ بله قوله: سالتهم وتسالهم ولا يسألون.

وقوله: ﴿سَالٌ سَائِلٌ﴾ بمنزلة سئل، لأن مجيء فاعل الفعل اسم فاعل من لفظ فعله لا يفيد زيادة علم بفاعل الفعل ما هو، فالعدول عن أن يقول: سئل بعذاب، إلى قوله:

﴿سَال سَائِلٌ بِعَذَابٍ﴾، لزيادة تصوير هذا السؤال العجيب، ومثل قول يزيد بن عمرو بن خويلد يهاجي النابغة:

وإن الغدر قد عَلمت مَعَدُّ بناه في بني دُبيان باني

ومن بلاغة القرآن تعدية ﴿سَال﴾ بالباء ليصلح الفعل لمعنى الاستفهام والدعاء والاستعجال، لأن الباء تأتي بمعنى «عن» وهو من معاني الباء الواقعة بعد فعل السؤال نحو: ﴿فَسَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: 59]، وقول علقمة:

فإن تسألوني بالنساء فإنني خبير بأدواء النساء طبيب

أي: إن تسألوني عن النساء، وقال الجوهري عن الأخفش: يقال خرجنا نسأل عن فلان وبفلان. وجعل في الكشف تعدية فعل سأل بالباء لتضمينه معنى غني واهتم. وقد علمت احتمال أن يكون سال بمعنى استعجل، فيكون تعديته بالباء كما في قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلُظْكَ بِالْعَذَابِ﴾ [العنكبوت: 53]، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: 18].

وقوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً لغواً متعلقاً بـ ﴿وَاقِعٌ﴾، ويجوز أن يكون ظرفاً مستقراً خبراً لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو للكافرين.

واللام لشبه الملك، أي: عذاب من خصائصهم كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24].

ووصف العذاب بأنه واقع، وما بعده من أوصافه إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ [المعارج: 6] إدماج معترض ليفيد تعجيل الإجابة عما سأل عنه سائل بكلا معنيي السؤال، لأن السؤال لم يحك فيه عذاب معين، وإنما كان مجملاً لأن السائل سأل عن عذاب غير موصوف، أو الداعي دعا بعذاب غير موصوف، فحكي السؤال مجملاً ليرتب عليه وصفه بهذه الأوصاف والتعلقات، فينتقل إلى ذكر أحوال هذا العذاب وما يحف به من الأهوال.

وقد طويت في مطاوي هذه التعلقات جمل كثيرة كان الكلام بذلك إيجازاً إذ حصل خلالها ما يفهم منه جواب السائل، واستجابة الداعي، والإنباء بأنه عذاب واقع عليهم من الله لا يدفعه عنهم دافع، ولا يغرم تأخره.

وهذه الأوصاف من قبيل الأسلوب الحكيم، لأن ما عدد فيه من أوصاف العذاب وهوله ووقته هو الأولى لهم أن يعلموه ليحذروه، دون أن يخوضوا في تعيين وقته، فحصل من هذا كله معنى: أنهم سألوا عن العذاب الذي هددوا به عن وقته ووصفه سؤال استهزاء، ودعوا الله أن يرسل عليهم عذاباً إن كان القرآن حقاً، إظهاراً لقلّة

اكثرائهم بالإنذار بالعذاب. فأعلمهم أن العذاب الذي استهزأوا به واقع لا يدفعه عنهم تأخر وقته، فإن أرادوا النجاة فليحذروه.

وقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ يتنازع تعلقه وصفاً ﴿وَاقِعٌ﴾ و﴿دَافِعٌ﴾. و﴿مِنَ﴾ للابتداء المجازي على كلا التعلّقين مع اختلاف العلاقة بحسب ما يقتضيه الوصف المتعلّق به.

فابتداء الواقع استعارة لإذن الله بتسليط العذاب على الكافرين، وهي استعارة شائعة تساوي الحقيقة. وأما ابتداء الدافع فاستعارة لتجاوزه مع المدفوع عنه من مكان مجازي تتناوله قدرة القادر مثل: ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة: 118]، وقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: 108].

وبهذا يكون حرف ﴿مِنَ﴾ مستعملاً في معنيين مجازيين متقاربين.

وإجراء وصف ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ على اسم الجلالة لاستحضار عظمة جلاله ولإدماج الإشعار بكثرة مراتب القرب من رضاه وثوابه، فإن المعارج من خصائص منازل العظماء، قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَنَّهُمْ سُقًّطًا مِّنْ فَضْلِهِ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: 33]. ولكل درجة من المعارج قوم عملوا لنوالها، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11]، وليكون من هذا الوصف تخلص إلى ذكر يوم الجزاء الذي يكون فيه العذاب الحق للكافرين.

والمعارج: جمع مُعْرَج بكسر الميم وفتح الراء، وهو ما يُعرج به، أي: يُصعد من سُلَّم ومدرج.

[4] ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (4).

اعتراض لبيان أن المعارج منازل من الرفعة الاعتبارية ترتقي فيها الملائكة وليست معارج يعرج إليه فيها، أي: فهي معارج جعلها الله للملائكة، فقرب بها من منازل التشريف، فالله مُعْرَج إليه بإذنه لا عارج، وبذلك الجعل وصف الله بأنه صاحبها، أي: جاعلها، ونظيره قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: 15].

والروح: هو جبريل ﷺ الموكل بإبلاغ إرادة الله تعالى وإذنه، وتخصيصه بالذكر لتمييزه بالفضل على الملائكة. ونظير هذا قوله: ﴿نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: 4]، أي: في ليلة القدر.

و﴿الرُّوحُ﴾: يُطلق على ما به حياة الإنسان وتصريف أعماله وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]. فيجوز أن يكون مما شمله قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، أي: أرواح أهل الجنة على اختلاف درجاتها

في المعارج. وهذا العروج كائن يوم القيامة وهو اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة. وهذه تقريبات لنهاية عظمة تلك المنازل وارتقاء أهل العالم الأشرف إليها وعظمة يوم وقوعها.

وضمير ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد إلى الله على تأويل مضاف على طريقة تعلق بعض الأفعال بالذوات، والمراد أحوالها مثل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: 3] أي: أكلها، و﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يتنازع تعلقه كل من قوله: ﴿وَاقِعٌ﴾ وقوله: ﴿تَمْرُجُ﴾. [5] ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾.

اعتراض مفرغ: إما على ما يورث إليه: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ من أنه سؤال استهزاء، فهذا تثبيت للنبي ﷺ، وإما على ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ بمعنى: دعا داع. فالفاء لتفريع الأمر بالصبر على جملة: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾، إذ كان ذلك السؤال بمعنييه استهزاء وتعريضاً بالتكذيب فشأنه أن لا تصبر عليه النفوس في العرف.

والصبر الجميل: الصبر الحسن في نوعه وهو الذي لا يخالطه شيء مما ينافي حقيقة الصبر، أي: اصبر صبراً محضاً، فإن جمال الحقائق الكاملة بخلوصها عما يعكر معناها من بقايا أضدادها، وقد مضى قوله تعالى عن يعقوب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ في سورة يوسف [18]، وسيجيء قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ في المزمّل [10].

[6، 7] ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ ﴿وَرَأَوْهُ قَرِيبًا﴾.

تعليل لجملتي: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: 1]، ولجملة: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: 5]، أي: سألوا استهزاء لأنهم يرونه مُحالاً وعليك بالصبر لأننا نعلم تحققه، أي: وأنت تثق بأنه قريب، أي: محقق الوقوع، وأيضاً هو تجهيل لهم إذ اغترؤا بما هم فيه من الأمن ومسالمة العرب لهم، ومن الحياة الناعمة، فأروا العذاب الموعود بعيداً، إن كان في الدنيا فلأنهم، وإن كان في الآخرة فلإنكارهم البعث، والمعنى: وأنت لا تشبه حالهم، وذلك يهون الصبر عليك فهو من باب: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: 48]، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: 28].

و﴿بَعِيدًا﴾ هنا كناية عن معنى الإحالة لأنهم لا يؤمنون بوقوع العذاب الموعود به، ولكنهم عبّروا عنه ببعيد تشكيكاً للمؤمنين، فقد حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿أَذًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: 3].

واستعمل ﴿قَرِيبًا﴾ كناية عن تحقق الوقوع على طريق المشاكلة التقديرية والمبالغة في التحقيق. وبين ﴿بَعِيدًا﴾ و﴿قَرِيبًا﴾ محسن الطباق.

[8 - 18] ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِّ ۝ 8 وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝ 9 وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝ 10 يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِيهِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنَهُ ۝ 11 وَصَاحِبَتُهُ وَأَخِيهِ ۝ 12 وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ ۝ 13 وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۝ 14 كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَى ۝ 15 نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى ۝ 16 تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ۝ 17 وَجَمَعَ فَأَوْعَى ۝ 18﴾.

يجوز أن يتعلق بـ ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ﴾ بفعل: ﴿تَعْرُجُ﴾ [المعارج: 4]، وأن يتعلق بـ ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمِ﴾ قدم عليه للاهتمام بذكر اليوم، فيكون قوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِّ ۝ 8﴾ ابتداء الكلام، والجملة المفعولة مبدأ كلام تُجعل بدل اشتمال من جملة: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝ 10﴾ لأن عدم المسألة مسبب عن شدة الهول، ومما يشتمل عليه ذلك أن يود المول لو يفتدي من ذلك العذاب.

و﴿كَالْهَلِّ﴾: دردي الزيت.

والمعنى: تشبيه السماء في انحلال أجزائها بالزيت، وهذا كقوله في سورة الرحمن [37]: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.

والعهن: الصوف المصبوغ، قيل: المصبوغ مطلقاً، وقيل: المصبوغ ألواناً مختلفة وهو الذي درج عليه الراغب والزمخشري، قال زهير:

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حبّ الفنا لم يُحطَّم

والفنا بالقصر: حبّ في البادية، يقال له: عنب الثعلب، وله ألوان بعضها أخضر وبعضه أصفر وبعضه أحمر. والعهنة: شجر بالبادية لها ورد أحمر.

ووجه الشبه بالعهن تفرق الأجزاء كما جاءت في آية القارعة [5]: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝ 5﴾، فإيثار العهن بالذكر لإكمال المشابهة، لأن الجبال ذات ألوان.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنًا﴾ [فاطر: 27]. وإنما تكون السماء والجبال بهاته الحالة حين ينحل تماسك أجزائهما عند انقراض هذا العالم والمصير إلى عالم الآخرة.

ومعنى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝ 10﴾ لشدة ما يعتري الناس من الهول، فمن شدة ذلك أن يرى الحميم حميمه في كرب وعناء فلا يتفرغ لسؤاله عن حاله لأنه في شاغل عنه، فحذف متعلق ﴿يَسْأَلُ﴾ لظهوره من المقام ومن قوله: ﴿يَبْصُرُونَهُمْ ۝ 11﴾ أي: يبصر الأخلاء أحوال أخلائهم من الكرب فلا يسأل حميم حميماً، قال كعب بن زهير:

وقال كل خليل كنت أمله لا ألهيئك إنني عنك مشغول

والحميم: الخليل الصديق.

وقرأ الجمهور بفتح ياء ﴿يَسْتَلُّ﴾ على البناء للفاعل، وقرأه أبو جعفر والبيزي عن ابن كثير بضم الياء على البناء للمجهول. فالمعنى: لا يُسأل حميم عن حميم بحذف حرف الجر.

وموقع ﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ الاستئناف البياني لدفع احتمال أن يقع في نفس السامع أن الأحياء لا يرى بعضهم بعضاً يومئذ لأن كل أحد في شاغل، فأجيب بأنهم يكشف لهم عنهم ليروا ما هم فيه من العذاب فيزدادوا عذاباً فوق العذاب.

ويجوز أن تكون جملة: ﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ في موضع الحال، أي: لا يسأل حميم حميماً في حال أن كل حميم يبصر حميمه، يقال له: انظر ماذا يقاسي فلان. و﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ مضارع بصره بالأمر إذا جعله مبصراً له، أي: ناظراً، فأصله: يبصرون بهم، فوقع فيه حذف الجار وتعدية الفعل.

والضميران راجعان إلى ﴿حَمِيمٌ﴾ المرفوع وإلى ﴿حَمِيمًا﴾ المنصوب، أي: يبصر كل حميم حميمه، فجمع الضميران نظراً إلى عموم ﴿حَمِيمٌ﴾ و﴿حَمِيمًا﴾ في سياق النفي.

ويود: يحب، أي: يتمنى، وذلك إما بخاطر يخطر في نفسه عند رؤية العذاب. وإما بكلام يصدر منه نظير قوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرْبًا﴾ [النبأ: 40]، وهذا هو الظاهر، أي: يصرخ الكافر يومئذ فيقول: افتدي من العذاب ببنيي وصاحبتي وفصيلتي، فيكون ذلك فضيحة له يومئذ بين أهله.

و﴿الْمُجْرِمُ﴾: الذي أتى الجرم، وهو الذنب العظيم، أي: الكفر، لأن الناس في صدر البعثة صنفان: كافر ومؤمن مطيع.

و﴿يَوْمِذٍ﴾ هو ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِ ٨﴾، فإن كان قوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ﴾ متعلقاً بـ ﴿يَوْمِذٍ﴾، فقوله: ﴿يَوْمِذٍ﴾ تأكيد لـ ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِ ٨﴾، وإن كان متعلقاً بقوله: ﴿تَرْجُ الْمَلَائِكَةُ﴾، فقوله: ﴿يَوْمِذٍ﴾ إفادة لكون ذلك اليوم هو يوم يود المجرم لو يفتدي من العذاب بمن ذكر بعده.

و﴿لَوْ﴾ مصدرية فما بعدها في حكم المفعول لـ ﴿يَوْمِذٍ﴾، أي: يوم الافتداء من العذاب ببنيه إلى آخره.

وقرأ الجمهور ﴿يَوْمِذٍ﴾ بكسر ميم «يوم» مجروراً بإضافة «عذاب الله». وقرأه نافع والكسائي بفتح الميم على بنائه لإضافة «يوم» إلى «إذ»، وهي اسم غير متمكن والوجهان جائزان.

والافتداء: إعطاء الفداء، وهو ما يعطى عوضاً لإنقاذ من تبعة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْدُوهُمْ﴾ في البقرة [85]، وقوله: ﴿وَلَوْ إِفْتَدَىٰ بِهِ﴾ في آل عمران [91]، والمعنى: لو يفتدي نفسه، والباء بعد مادة الفداء تدخل على العوض المبذول، فمعنى الباء التعويض.

ومعنى ﴿مِنْ﴾ الابتداء المجازي لتضمين فعل يفتدي معنى يتخلص. ﴿وَصَحَّيْهِ﴾: زوجه.

والفصيلة: الأقرباء الأذنون من القبيلة، وهم الأقرباء المفصول منهم، أي: المستخرج منهم، فشملت الآباء والأمهات، قال ابن العربي: قال أشهب: سألت مالكا عن قول الله تعالى: ﴿وَفَصِّلَهِ أَتَىٰ تَوْبِهِ﴾ [13] فقال: هي أمه اهـ، أي: ويفهم منها الأب بطريق لحن الخطاب فيكون قد استوفى ذكر أقرب القرابة بالصراحة والمفهوم، وأما على التفسير المشهور فالفصيلة دلت على الآباء باللفظ وتستفاد الأمهات بدلالة لحن الخطاب. وقد رتبت الأقرباء على حسب شدة الميل الطبيعي إليهم في العرف الغالب، لأن الميل الطبيعي ينشأ عن الملازمة وكثرة المخالطة.

ولم يذكر الأبوان لدخولهما في الفصيلة قصداً للإيجاز.

والإيواء: الضم والانحياز. قال تعالى: ﴿ءَاوَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: 69]، وقال: ﴿سَّاءَ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ [هود: 43].

﴿وَأَتَىٰ تَوْبِهِ﴾: إن كانت القبيلة، فالإيواء مجاز في الحماية والنصر، أي: ومع ذلك يفتدي بها لعلمه بأنها لا تغني عنه شيئاً يومئذ.

وإن كانت الأم فالإيواء على حقيقته باعتبار الماضي، وصيغة المضارع لاستحضار الحالة كقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا﴾ [فاطر: 9]، أي: يود لو يفتدي بأمه، مع شدة تعلق نفسه بها إذا كانت تؤوليه، فإيثار لفظ فصيلته وفعل تؤوليه هنا من إيجاز القرآن وإعجازه ليشمل هذه المعاني.

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ عطف على ﴿بَنِيهِ﴾، أي: ويفتدي بمن في الأرض، أي: ومن له في الأرض مما يعز عليه من أخلاء وقرابة ونفائس الأموال مما شأن الناس الشح ببذله والرغبة في استبقائه على نحو قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يُفْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ قُلٌّ إِلَّا الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوْ إِفْتَدَىٰ بِهِ﴾ [آل عمران: 91].

﴿وَمَنْ﴾ الموصولة لتغليب العاقل على غيره لأن منهم الأخلاء.

﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ للتراخي الرتبي، أي: يود بذل ذلك وأن ينجيه

الفداء من العذاب، فالإنجاء من العذاب هو الأهم عند المجرم في ودادته، والضمير البارز في قوله: ﴿يُنَجِّهِ﴾ عائد إلى الافتداء المفهوم من ﴿يَفْتَدِيهِ﴾ على نحو قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: 8].

والمعطوف بـ ﴿ثُمَّ﴾ هو المسبب عن الودادة، فلذلك كان الظاهر أن يعطف بالفاء وهو الأكثر في مثله كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: 89]، وقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [9] [القلم: 9]، فعدل عن عطفه بالفاء هنا إلى عطفه بـ ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على شدة اهتمام المجرم بالنجاة بأية وسيلة.

ومتعلق ﴿يُنَجِّهِ﴾ محذوف يدل عليه قوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ﴾.

و﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وإبطال بكلام سابق، ولا يخلو من أن يذكر بعده كلام، وهو هنا لإبطال ما يخامر نفوس المجرم من الودادة، نزل منزلة الكلام لأن الله مطلع عليه، أو لإبطال ما يتفوه به من تمني ذلك. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: 40]، ألا ترى أنه عبر عن قوله بذلك بالودادة، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ [النساء: 42]، أي: يصيرون من ترابها.

فالتقدير: يقال له: كلا، أي: لا افتداء ولا إنجاء.

وجملة: ﴿إِنَّمَا لَطَى﴾ استئناف بياني ناشئ عما أفاده حرف ﴿كَلَّا﴾ من الإبطال. وضمير ﴿إِنَّمَا﴾ عائد إلى ما يشاهده المجرم قباليته من مرأى جهنم فأخبر بأن ذلك لظى. ولما كان ﴿لَطَى﴾ مقترباً بألف التأنيث أنث الضمير باعتبار تأنيث الخبر وأتبع اسمها بأوصاف، والمقصود التعريض بأنها أعدت له، أي: أنها تحرقك وتنزع شواك، وقد صرح بما وقع التعريض به في قوله: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [18]، أي: تدعوك يا من أدبر عن دعوة التوحيد وتولى عنها ولم يعبأ إلا بجمع المال.

فحرف «إِنَّ» للتوكيد للمعنى التعريضي من الخبر، لا إلى الإخبار بأن ما يشاهده لظى، إذ ليس بذلك بمحل التردد. و﴿لَطَى﴾ خبر «إِنَّ».

ويجوز أن يكون ضمير ﴿إِنَّمَا﴾ ضمير القصة وهو ضمير الشأن، أي: إن قصتك وشأنك لظى، فتكون ﴿لَطَى﴾ مبتدأ.

وقرأ الجمهور ﴿نَزَاعَةً﴾ بالرفع فهو خبر ثان عن «إِنَّ» أن جعل الضمير ضميراً عائداً إلى النار المشاهدة، أو هو خبر عن ﴿لَطَى﴾ إن جعل الضمير ضمير القصة وجعل ﴿لَطَى﴾ مبتدأ.

وقرأه حفص بالنصب على الحال فيتعين على قراءة حفص أن الضمير ليس ضمير

قصة. والتعريض هو هو، وحرف «إن» إما للتوكيد متوجهاً إلى المعنى التعريضي كما تقدم، وإما لمجرد الاهتمام بالجملة التي بعده لأن الجمل المفتحة بضمير الشأن من الأخبار المهم بها.

و﴿لَظَى﴾: عَلِمَ منقول من اسم اللهب، جُعِلَ عَلَماً لـ«جهنم»، وألفه ألف تأنيث، وأصله: لظى بوزن فتى منوناً اسم جنس للهب النار. فنقل اسم الجنس إلى جعله عَلَماً على واحد من جنسه، فُقِرْنَ بألف تأنيث تنبيهاً بذلك التغيير على نقله إلى العَلَمِيَّة. والعرب قد يُدخلون تغييراً على الاسم غير العَلَمِ إذا نقلوه إلى العَلَمِيَّة كما سَمَوْا شمس بضم الشين منقولاً من شمس بفتح الشين. كما قال ابن جني في شرح قول تأبط شراً:

إني لمُهد من ثنائي فقاصدُ به لابن عم الصّدق شمس بن مالك
وليس من العلم بالغلبة إذ ليس معرفاً ولا مضافاً، ولا اجتماع العَلَمِيَّة والتأنيث فيه
كان ممنوعاً من الصرف، فلا تقول: لَظَى بالتنوين إلا إذا أردت جنس اللهب، ولا
تقول: اللَّظَى إلا إذا أردت لهباً معيناً، فأما إذا أردت اسم جهنم فتقول: لظى بألف
التأنيث دون تنوين ودون تعريف.

والنَزَاة: مبالغة في النزع وهو الفصل والقطع.

والشوى: اسم جمع شَوَاة بفتح الشين وتخفيف الواو، وهي العضو غير الرأس مثل
اليد والرجل، فالجمع باعتبار ما لكل أحد من شوى، وقيل: الشواة: جلدة الرأس،
فالجمع باعتبار كثرة الناس.

وجملة: ﴿تَدْعُوا﴾ إما خبر ثان حسب قراءة ﴿نَزَاة﴾ بالرفع، وإما حال على
القراءتين. والدعاء في قوله: ﴿تَدْعُوا﴾ يجوز أن يكون غير حقيقة بأن يعتبر استعارة مكنية،
شَبَّهَتْ لظى في انهيار الناس إليها بضائف لمأذبة، ورُمز إلى ذلك بـ ﴿تَدْعُوا﴾ وذلك على
طريقة التهكم.

ويكون ﴿تَدْعُوا مَنَ أَذْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ ١٧ وَجَعَ فَأَزَى ١٨ قرينة، أو تجريداً، أي: من أذبر
وتولّى عن الإيمان بالله. وفيه الطباق لأن الإذبار والتولي يضاذان الدعوة في الجملة إذ
الشأن أن المدعو يُقبل ولا يُدبر، ويكون ﴿تَدْعُوا﴾ مشتقاً من الدُّعَا المضمومة الدال، أو
أن يشبه إحضار الكفار عندها بدعوتها إياهم للحضور على طريقة التبعية، لأن التشبيه
بدعوة المنادي، كقول ذي الرمة يصف الثور الوحشي:

أَمْسَى بِوَهْبَيْنِ مُخْتَاراً لِمَرْتَعِهِ من ذي الفوارس تدعو أنفَه الرِّبُّ

الرَّبِّ بكسر الراء وبموحدين: جمع رَبَّة بكسر الراء وتشديد الموحدة: نبات ينبت في الصيف أخضر.

ويجوز أن يكون ﴿تَدْعُوا﴾ مستعملاً حقيقة، و«الذين يدعون»: هم الملائكة الموكلون بجهنم، وإسناد الدعاء إلى جهنم إسناداً مجازياً لأنها مكان الداعين أو لأنها سبب الدعاء، أو جهنم تدعوا حقيقة بأن يخلق الله فيها أصواتاً تنادي الذين تولوا أن يردوا عليها فتلتهمهم.

و﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ جنس الموصوفين بأنهم أدبروا وتولوا وجمعوا، وهم المجرمون الذين يودون أن يفتدوا من العذاب يومئذ. وهذه الصفات خصائص المشركين، وهي من آثار دين الشرك التي هي أقوى باعث لهم على إعراضهم عن دعوة الإسلام. وهي ثلاثة: الإدبار، والإعراض، وجمع المال، أي: الخشية على أموالهم.

والإدبار: ترك شيء في جهة الراء، لأن الدبر هو الظهر، فأدبر: جعل شيئاً وراءه بأن لا يعرج عليه أصلاً، أو بأن يُقبل عليه ثم يفارقه.

والتولي: الإدبار عن الشيء والبعد عنه، وأصله مشتق من الولاية وهي الملازمة، قال تعالى: ﴿فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144]، ثم قالوا: ولَّى عنه، أرادوا اتخذ غيره ولياً، أي: ترك ولايته إلى ولاية غيره، مثل ما قالوا: رغب فيه ورغب عنه، فصار «ولي» بمعنى: أدبر وأعرض، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [النجم: 29]، أي: عامله بالإعراض عنه.

ففي التولي معنى إثارة غير المتولَّى عنه، ولذلك يكون بين التولي والإدبار فرق، وباعتبار ذلك الفرق عُطف ﴿وَتَوَلَّى﴾ على ﴿أَدْبَرَ﴾، أي: تدعو من ترك الحق وتولي عنه إلى الباطل.

وهذه دقيقة من إعجاز القرآن بأن يكون الإدبار مراداً به إدبار غير تول، أي: إدباراً من أول وهلة، ويكون التولي مراداً به الإعراض بعد ملازمة، ولذلك يكون الإدبار مستعاراً لعدم قبول القرآن ونفي استماع دعوة الرسول ﷺ وهو حال الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ [فصلت: 26]، والتولي مستعاراً للإعراض عن القرآن بعد سماعه وللنفور عن دعوة الرسول كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ثُلَّ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 31]، وكلا الحالين حال كفر ومحقة للعذاب، وهما مجتمعتان في جميع المشركين.

والمقصود من ذكرهما معاً تفضيع أصحابهما، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون متعلق ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ متحداً يتنازعه كلا الفعلين، ويقدر بنحو: عن الحق، وفي

الكشاف: أدبر عن الحق وتولى عنه، إذ العبرة باختلاف معنيي الفعلين وإن كان متعلقهما متحدًا.

ويجوز أن يقدر لكل فعل متعلق هو أشد مناسبة لمعناه، فقدّر البيضاوي: أدبر عن الحق وتولى عن الطاعة، أي: لم يقبل الحق وهو الإيمان من أصله، وأعرض عن طاعة الرسول بعد سماع دعوته، وعن قتادة عكسه: أدبر عن طاعة الله وتولى عن كتاب الله، وتبعه الفخر والنيسابوري.

والجمع والإيعاء في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ (18) مرتب ثانيهما على أولهما، فيدل ترتيب الثاني على الأول أن مفعول ﴿وَجَمَعَ﴾ المحذوف هو شيء مما يوعى، أي: يُجعل في وعاء.

والوعاء: الظرف، أي: جَمَعَ المال فَكَزَّهُ ولم ينفع به المحاويج، ومنه جاء فعل «أوعى» إذا شح. وفي الحديث: «ولا تُوعي فيُوعى عليك».

وفي قوله: ﴿وَجَمَعَ﴾ إشارة إلى الحرص، وفي قوله: ﴿فَأَوْعَى﴾ إشارة إلى طول الأمل. وعن قتادة ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ كان جَمُوعاً للخبيث، وهذا تفسير حسن، أي: بأن يقدر لـ ﴿وَجَمَعَ﴾ مفعول يدل عليه السياق، أي: وزاد على إدباره وتوليه أنه جمع الخبائث. وعليه يكون ﴿فَأَوْعَى﴾ مستعاراً لملازمته ما فيه من خصال الخبائث واستمراره عليها فكأنها مختزنة لا يفرط فيها.

[19 - 21] ﴿وَإِنِ الْإِنْسَانُ لَخُلُقٌ هَلُوعًا﴾ (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿20﴾ وَإِذَا مَسَّهُ

الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿21﴾.

معتزلة بين ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿18﴾ [المعارج: 17 - 18]، وبين الاستثناء ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (22) ... إلخ.

وهي تذييل لجملة: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ تنبيهاً على خصلة تخامر نفوس البشر فتحملهم على الحرص لنيل النافع وعلى الاحتفاظ به خشية نفاذه لما فيهم من خُلُق الهلع. وهذا تذييل لوم وليس في مساقه عذر لمن جمع فأوعى، ولا هو تعليل لفعله.

وموقع حرف التوكيد ما تتضمنه الجملة من التعجيب من هذه الخصلة البشرية، فالتأكيد لمجرد الاهتمام بالخبر ولفت الأنظار إليه والتعريض بالخطر منه.

والمقصود من التذييل هو قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (21). وأما قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ (20) فتمهيد وتتميم لحالتيه.

فالمراد بالإنسان: جنس الإنسان لا فرد معين كقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾

﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ بِسْتَقَى ﴿٧﴾، [العلق: 6، 7]، وقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: 37]، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن.

وهلوع: فحول مثال مبالغة للاتصاف بالهلع.

والهلع لفظ غامض من غوامض اللغة قد تساءل العلماء عنه، قال الكشف: «وعن أحمد بن يحيى (هو ثعلب) قال لي محمد بن عبدالله بن طاهر⁽¹⁾: ما الهلع؟ فقلت: قد فسّره الله ولا يكون تفسير أبين من تفسيره وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس» اهـ.

فسارت كلمة ثعلب مسيراً أقنع كثيراً من اللغويين عن زيادة الضبط لمعنى الهلع. وهي كلمة لا تخلو عن تسامح وقلة تحديد للمعنى لأنه إذا كان قول الله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ تفسيراً لمدلول الجزوع، تعيّن أن يكون مدلول الكلمة معنى مركباً من معنيي الجملتين لتكون الجملتان تفسيراً له، وظاهر أن المعنيين ليس بينهما تلازم، وكثيراً من أئمة اللغة فسّر الهلع بالجزع، أو بشدة الجزع، أو بأفحش الجزع، والجزع: أثر من آثار الهلع وليس عينه، فإن ذلك لا يستقيم في قول عمرو بن معد يكرب:

مَا إِنْ جَزِعْتُ وَلَا هَلِعْتُ وَلَا يَرُدُّ بُكَايَ زُنْدَا

إذ عطف نفي الهلع على نفي الجزع، ولو كان الهلع هو الجزع لم يحسن العطف، ولو كان الهلع أشد الجزع كان عطف نفيه على نفي الجزع حشواً. ولذلك تكلف المرزوقي في «شرح الحماسة» لمعنى البيت تكلفاً لم يغن عنه شيئاً قال: فكأنه قال: ما حزنت عليه حزناً هيناً قريباً ولا فظيلاً شديداً، وهذا نفي للحزن رأساً كقولك: ما رأيت صغيرهم ولا كبيرهم اهـ.

والذي استخلصته من تتبع استعمال كلمة الهلع أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك والإشفاق منه. وأما الجزع فمن آثار الهلع، وقد فسر بعض أهل اللغة الهلع بالشره، وبعضهم بالضجر، وبعضهم بالشح، وبعضهم بالجوع، وبعضهم بالجبن عند اللقاء. وما ذكرناه في ضبطه يجمع هذه المعاني ويريك أنها آثار لصفة الهلع.

ومعنى ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾: أن الهلع طبيعة كامنة فيه مع خلقه تظهر عند ابتداء شعوره

(1) محمد بن عبدالله بن طاهر بن الحسين، كان والي شرطة بغداد في زمن المتوكل على الله، وكان شاعراً أديباً ملازماً لأهل العلم، توفي سنة 253، وأبوه عبدالله والي خراسان في زمن المأمون وممدوح أبي تمام، توفي سنة 229.

بالنافع والضار، فهو من طباعه المخلوقة كغيرها من طباعه البشرية، إذ ليس في تعلُّق الحال بعاملها دلالة على قصر العامل عليها، ولا في اتصاف صاحب الحال بالحال دلالة على أنه لا صفة له غيرها، وقد تكون للشيء الحالة وضدها باختلاف الأزمان والدواعي، وبذلك يستقيم تعلق النهي عن حالٍ مع تحقق تمكن ضدها من المنهي لأن عليه أن يروض نفسه على مقاومة النقائص وإزالتها عنه، وإذ ذُكر الله الهلع هنا عقب مذمة الجمع والإيعاء، فقد أشعر بأن الإنسان يستطيع أن يكف عن هلعه إذا تدبر في العواقب فيكون في قوله: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ كناية بالخلق عن تمكن ذلك الخلق منه وغلبته على نفسه.

والمعنى: أن من مقتضى تركيب الإدراك البشري أن يحدث فيه الهلع.

بيان ذلك أن تركيب المدارك البشرية رُكِّز بحكمة دقيقة تجعلها قادرة على الفعل والكف، وساعية إلى الملائم ومعرضة عن المُنَافِر. وجُعِلت فيها قوى متضادة الآثار يتصرف العقل والإدراك في استخدامها كما يجب في حدود المقدرة البدنية التي أُعطيها النوع والتي أُعطيها أفراد النوع، كل ذلك ليصلح الإنسان لإعمار هذا العالم الأرضي الذي جعله الله خليفة فيه ليصلحه إصلاحاً يشملُه ويشمل من معه في هذا العالم إعداداً لصلاحيته لإعمار عالم الخلود، ثم جُعِل له إدراكاً يميز الفرق بين آثار الموجودات وآثار أفعالها بين النافع منها والضار والذي لا نفع فيه ولا ضرر.

وخلق فيه إلهاماً يُحب النافع ويكره الضار، غير أن اختلاط الوصفين في بعض الأفعال وبعض الذوات قد يريه الحال النافع منها ولا يريه الحال الضار فيبتغي ما يظنه نافعاً غير شاعر بما في مطاويه من أضرار في العاجل والآجل، أو شاعراً بذلك ولكن شغفه بحصول النفع العاجل يرجِّح عنده تناوله الآن لعدم صبره على تركه مقدراً معاذير أو حيلةً يقتحم بها ما فيه من ضررٍ آجل.

وإن اختلاط القوى الباطنية مع حركات التفكير قد تستر عنه ضرر الضار ونفع النافع فلا يهتدي إلى ما ينبغي سلوكه أو تجنبه، وقد لا تستر عنه ذلك ولكنها تُحدث فيه إثارةً لاتباع الضار لملائمة فيه ولو في وقت أو عند عارض، إغراضاً عن اتباع النافع لكلفة في فعله أو منافرة لوجدانه، وذلك من اشتغال تركيب قواه الباعثة والصارفة وآلاتها التي بها تعمل وتدفع على شيء من التعاكس في أعمالها، فحدثت من هذا التركيب البديع صلاحية للوفاء بالتدبير الصالح المنوط بعهدة الإنسان، وصلاحية لإفساد ذلك أو بعثرته.

غير أن الله جعل للإنسان عقلاً وحكمة إن هو أحسن استعمالها نَحَلَّت صفاته، وثَقَّفَتْ من قناته، ولم يُخَلِّه من دعاة إلى الخير يصفون له كيف يريض جامع نفسه، وكيف يوفق بين إدراكه وحسه، وهؤلاء هم الرسل والأنبياء والحكماء.

فإذا أخبر عن الإنسان بشدة تلبسه ببعض النقائص وجعل ذلك في قالب أنه جبل عليه، فالمقصود من ذلك: إلقاء تبعة ذلك عليه لأنه فرط في إرضاء نفسه على ما فيها من جبلّة الخير، وأرعى لها العنان إلى غاية الشر، وفرط في نصائح الشرائع والحكماء.

وإذا أسند ما يأتيه الإنسان من الخير إلى الله تعالى، فالمقصود: التنبيه إلى نعمة الله عليه بخلق القوة الجالبة للخير فيه، ونعمة إرشاده وإيقاظه إلى الحق، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: 79] عقب قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَإِلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 78].

وفي هذا المجال زلت أفهام المعتزلة، وحلكت عليهم الأجواء، ففكروا وقدروا وما استطاعوا مخلصاً وما قدروا.

واعلم أن كلمة «خلق الإنسان» إذا تعلق بها ما ليس من المواد مثل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: 2] بل كان من الأخلاق والغرائز قد يُعنى بها التنبيه على جبلّة الإنسان وأنها تسرع إلى الاعتلاق بمشاعره عند تصرفاته تعريضاً بذلك لوجوب الحذر من غوائلها نحو: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: 37] ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (19)، وقد ترد للعذر والرفق نحو قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (28) [النساء: 28]، وقد ترد لبيان أصل ما فطر عليه الإنسان وما طرأ عليه من سوء تصرفه في أفعاله كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) [التين: 4 - 5]، ففعل الخلق من كذا مستعار لكثرة الملابس. قال عروة بن أذينة:

إن التي زعمت فؤادك ملّها خلقت هواك كما خلقت هوّى لها
أراد إبطال أن يكون ملّها بحجة أنها خلقت حبيبة له كما خلقت محبوبها، أي: أن محبته إياها لا تنفك عنه.

والهلع: صفة غير محمودّة، فوصف الإنسان هنا بها لوم عليه في تفصيله عن التخلُّق بدفع آثارها، ولذلك ذيل به قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ (18) [المعارج: 18] على كلا معنیه.

وانتصب ﴿جَزُوعًا﴾ على الحال من الضمير المستتر في ﴿هَلُوعًا﴾، أو على البدل بدل اشتمال، لأن حال الهلع يشتمل على الجزع عند مس الشر.

وقوله: ﴿مَنْوعًا﴾ عطف على ﴿جَزُوعًا﴾، أي: خلقت هلوعاً في حال كونه جزوعاً إذا مسّه الشر، ومنوعاً إذا مسّه الخير.

و﴿الشَّرُّ﴾: الأذى مثل المرض والفقر.
 و﴿الْخَيْرُ﴾: ما ينفع الإنسان ويلتزم رغبته مثل الصحة والغنى.
 و(الجزوع): الشديد الجزع، والجزع: ضد الصبر.
 و(المنوع): الكثير المنع، أي: شديد المنع لبذل شيء مما عنده من الخير.
 و﴿وَإِذَا﴾ في الموضوعين ظرفان يتعلّقان كل واحد بما اتصل به من وصفي ﴿هَجْرًا﴾ و﴿مَنْعًا﴾.

[22 - 35] ﴿إِلَّا الْمُصْلِينَ﴾ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿23﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْرِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿24﴾ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿25﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الَّذِينَ ﴿26﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُسْتَفِقُونَ ﴿27﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿28﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿29﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلِأَنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿30﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿31﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿32﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿33﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿34﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿35﴾.

استثناء منقطع ناشئ عن الوعيد المبتدأ به من قوله: ﴿يُودُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِيهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ [المعارج: 11] الآية.

فالمعنى على الاستدراك، والتقدير: لكن المصلين الموصوفين بكَيْت وكيّت أولئك في جنات مكرمون.

فجملته: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿35﴾ حيث وقعت بعد ﴿إِلَّا﴾ المنقطعة وهي بمعنى «لكن» فلها حكم الجملة المخبر بها عن اسم «لكن» المشددة أو عن المبتدأ الواقع بعد «لكن» المخففة وهو ما حققه الدماميني، وإن كان ابن هشام رأى عد الجملة بعد الاستثناء المنقطع في عداد الجمل التي لا محل لها من الإعراب.

والكلام استئناف بياني لمقابلة أحوال المؤمنين بأحوال الكافرين، ووعدهم بوعيدهم على عادة القرآن في أمثال هذه المقابلة.

وهذه صفات ثمان هي من أشعار المسلمين، فعدّل عن إحضارهم بوصف المسلمين إلى تعداد خصال من خصالهم إطناباً في الثناء عليهم لأن مقام الثناء مقام إطناب، وتنبهاً على أن كل صلة من هذه الصلوات الثمان هي من أسباب الكون في الجنات.

وهذه الصفات لا يشاركهم المشركون في معظمها بالمرة، وبعضها قد يتصف به المشركون ولكنهم لا يراعونه حق مراعاته باطراد، وذلك كحفظ الأمانات والعهد،

فالمشرك يحفظ الأمانة والعهد اتقاء مذمة الخيانة والغدر، ومع أحلافه دون أعدائه، والمشرك يشهد بالصدق إذا لم يكن له هوى في الكذب، وإذا خشي أن يوصم بالكذب. وقد غدر المشركون بالمسلمين في عدة حوادث، وغدر بعضهم بعضاً، فلو علم المشرك أنه لا يطلع على كذبه وكان له هوى لم يؤد الشهادة.

ولما كان وصف ﴿الْمُصَلِّينَ﴾ غلب على المسلمين كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (42) ﴿قَالُوا لَرَأَيْتَ نَارَكَ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (43) [المذثر: 42 - 43] الآية، أتبع وصف المصلين في الآية هذه بوصف: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (23) أي: مواظبون على صلاتهم لا يتخلّفون عن أدائها ولا يتركونها.

والدوام على الشيء: عدم تركه، وذلك في كل عمل بحسب ما يعتبر دواماً فيه كما تقرر في أصول الفقه في مسألة إفادة الأمر التكرار.

وفي إضافة «صلاة» إلى ضمير ﴿الْمُصَلِّينَ﴾ تنويه باختصاصها بهم، وهذا الوصف للمسلمين مقابل وصف الكافرين في قوله: ﴿يُعَذِّبُ وَاقِعٌ﴾ (1) ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ [المعارج: 1 - 2]. ومجيء الصلة جملة اسمية دون أن يقال: الذين يدومون، لقصد إفادتها الثبات تقوية كمفاد الدوام.

وإعادة اسم الموصول مع الصلات المعطوفة على قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (23) لمزيد العناية بأصحاب تلك الصلات.

وتسمية ما يعطونه من أموالهم من الصدقات باسم ﴿حَقٍّ﴾ للإشارة إلى أنهم جعلوا السائل والمحروم كالشركاء لهم في أموالهم من فرط رغبتهم في مواساة إخوانهم إذ لم تكن الصدقة يومئذ واجبة ولم تكن الزكاة قد فرضت.

ومعنى كون الحق معلوماً أنه يعلمه كل واحد منهم ويحسبونه، ويعلمه السائل والمحروم بما اعتاد منهم.

ومجيء الصلة جملة اسمية لإفادة ثبات هذه الخصلة فيهم وتمكنها منهم دفعاً لتوهم الشح في بعض الأحيان لما هو معروف بين غالب الناس من معاودة الشح للنفوس.

والسائل: هو المستعطي، و﴿الْمَحْرُومُ﴾: الذي لا يسأل الناس تعففاً مع احتياجه فلا يتفطن له كثير من الناس فيبقى كالمحروم.

وأصل المحروم: الممنوع من مرغوبه، وتقدم في سورة الذاريات [19] في قوله: ﴿رَفَعْنَا أَمْوَالَهُمْ حَقًّا لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (19). وهذه الصفة للمؤمنين مضادة صفة الكافرين المتقدمة في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ (18) [المعارج: 18].

والتصديق بيوم الدين هو الإيمان بوقوع البعث والجزاء، والدين: الجزاء. وهذا الوصف مقابل وصف الكافرين بقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ [المعارج: 6].

ولما كان التصديق من عمل القلب ولم يتصور أن يكون فيه تفاوت أتى بالجملة الفعلية على الأصل في صلة الموصول، وأوثر فيها الفعل المضارع لدلالته على الاستمرار.

ووصفهم بأنهم ﴿مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ مقابل قوله في حق الكافرين: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: 1-2] لأن سؤالهم سؤال مستخف بذلك ومحيله. والإشفاق: توقع حصول المكروه وأخذ الحذر منه.

وصوغ الصلة بالجملة الاسمية لتحقيق وثبات اتصافهم بهذا الإشفاق لأنه من المغيبات، فمن شأن كثير من الناس التردد فيه.

وجملة: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [28] معترضة، أي: غير مأمون لهم، وهذا تعريض بزعم المشركين الأمن منه إذ قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: 138]. ووصفهم بأنهم لفروجهم حافظون مقابل قوله في تهويل حال المشركين يوم الجزاء بقوله: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيًّا حَمِيمًا﴾ [المعارج: 10] إذ أخص الأحماء بالرجل وزوجه، فقصد التعريض بالمشركين بأن هذا الهول خاص بهم بخلاف المسلمين فإنهم هم وأزواجهم يحبرون لأنهم اتقوا الله في العفة عن غير الأزواج، قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67].

وتقدم نظير هذا في سورة المؤمنين، أي: ليس في المسلمين سفاح ولا زنى ولا مخالاة ولا بغاء، ولذلك عقب بالتفريع بقوله: ﴿فَمَنْ يَبْتَغِ رِزْقًا فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُؤْتَاهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [المعارج: 31].

والعادي: المفسد، أي: هم الذين أفسدوا فاختلفت أنسابهم وتطرقت الشكوك إلى حصانة نسائهم، ودخلت الفوضى في نظم عائلاتهم، ونشأت بينهم الإحن من الغيرة.

وذكر رعي الأمانات والعهد لمناسبة وصف ما يود الكافر يوم الجزاء أن يفتديه من العذاب بفصيلته التي تؤويه فيذهب منه رعي العهود التي يجب الوفاء بها للقبيلة وحسبك من تشويه حاله أنه قد نكث العهود التي كانت عليه لقومه من الدفاع عن حقيقتهم بنفسه وكان يفديهم بنفسه، والمسلم لما كان يرعى العهد بما يمليه عليه دينه جازاه الله بأن دفع عنه خزي ودادة فدائه نفسه بمواليه وأهل عهده.

والقول في اسمية الصلة كالقول في الذي قبله.

والرعي: الحفظ والحراسة. وأصله رعي الغنم والإبل.

وقرأ الجمهور: ﴿لَا تَشْهَدُ﴾ بصيغة الجمع. وقرأه ابن كثير: ﴿لَأَمَانَتُهُمْ﴾ بالافراد، والمراد الجنس.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ (33) ذكر لمناسبة ذكر رعي الأمانات إذ الشهادة من جملة الأمانات لأن حق المشهود له وديعة في حفظ الشاهد، فإذا أدى شهادته فكأنه أدى أمانة لصاحب الحق المشهود له كانت في حفظ الشاهد.

ولذلك كان أداء الشهادة إذا طوّل به الشاهد واجباً عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: 282].

والقيام بالشهادة: الاهتمام بها وحفظها إلى أن تؤدي، وهذا قيام مجازي كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ في سورة البقرة [3].

وباء ﴿بَشَهَادَتِهِمْ﴾ للمصاحبة، أي: يقومون مصاحبين للشهادة، ويصير معنى الباء في الاستعارة معنى التعدية.

فذكر القيام بالشهادة إتماماً لخصال أهل الإسلام فلا يتطلب له مقابل من خصال أهل الشرك المذكورة فيما تقدم.

والقول في اسمية جملة الصلة للغرض الذي تقدم لأن أداء الشهادة يشق على الناس إذ قد يكون المشهود عليه قريباً أو صديقاً، وقد يثير الشهادة على المرء إحنة منه وعداوة.

وقرأ الجمهور: ﴿بَشَهَادَتِهِمْ﴾ بصيغة الافراد، وهو اسم جنس يعم جميع الشهادات التي تحمّلوها. وقرأ حفص ويعقوب: ﴿شهاداتهم﴾ بصيغة الجمع. وذلك على اعتبار جمع المضاف إليه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (34) ثناء عليهم بعنايتهم بالصلاة من أن يعتريها شيء يخل بكمالها، لأن مادة المفاعلة هنا للمبالغة في الحفظ مثل: عافاه الله، وقتله الله، فالمحافظة راجعة إلى استكمال أركان الصلاة وشروطها وأوقاتها. وإيثار الفعل المضارع لإفادة تجدد ذلك الحفاظ وعدم التهاون به، بذلك تعلم أن هذه الجملة ليست مجرداً تأكيداً لجملة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (23) بل فيها زيادة معنى مع حصول الغرض من التأكيد بإعادة ما يفيد عنايتهم بالصلاة في كلتا الجملتين.

وفي الأخبار النبوية أخبار كثيرة عن فضيلة الصلاة، وأن الصلوات تكفّر الذنوب كحديث: «ما يدريكم ما بلغت به صلاته».

وقد حصل بين أخرى هذه الصلوات وبين أولاهما محسن رد العجز على الصدر.
وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [34] يفيد تقوية الخبر مع إفادة التجدد من الفعل المضارع.
ولما أجريت عليهم هذه الصفات الجليلة أخبر عن جزائهم عليها بأنهم مكرمون في الجنة.

وجيء باسم الإشارة للتنبيه على أنهم استحقوا ما بعد اسم الإشارة من أجل ما سبق قبل اسم الإشارة كما تقدم في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ في سورة [البقرة: 5].

والإكرام: التعظيم وحسن اللقاء، أي: هم من جزائهم بنعيم الجنات يُكرمون بحسن اللقاء والثناء، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [23] سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ [24] [الرعد: 23، 24]، وقال: ﴿وَرِضْوَنٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72].

وهذا يقتضي أن يكون قوله: ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ خبراً عن اسم الإشارة، وقوله: ﴿مُكْرَمُونَ﴾ خبراً ثانياً.

[36 - 39] ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ﴾ [36] عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ [37] أَطِيعُ كُلَّ رَأْسٍ مِّنْهُمْ أَن يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ [38] كَلَّا [39].

فرع استفهام إنكاري وتعجيب من تجمع المشركين إلى النبي ﷺ مستهزئين بما يسمعون من وعد المؤمنين بالجنة ووعد المشركين بعذاب جهنم.

فرع ذلك على ما أفاده في قوله: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّتٍ مَُّكْرَمُونَ﴾ [35] [المعارج: 35].
والمعنى: أن الذين كفروا لا مطمع لهم في دخول الجنة، فماذا يحاولون بتجمعهم حولك بلامح استهزائهم.

وهذا وإن كان خطاباً للنبي ﷺ فالمقصود به إبلاغه إليهم فيما يتلو عليهم من القرآن، فهو موجه إليهم في المعنى كما يدل عليه تنهيته بحرف الردع فهو لا يناسب أن يكون إعلاماً للنبي ﷺ لذلك لأنه شيء مقرر في علمه.

ومعنى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي شيء ثبت للذين كفروا في حال كونهم عندك، أو في حال إهطاعهم إليك.

وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا﴾ في سورة البقرة [246].

وتركيب «ما له» لا يخلو من حال مفردة، أو جملة بعد الاستفهام تكون هي مصبّ الاستفهام. فيجوز أن تكون الحال المتوجه إليها الاستفهام هنا الظرف، أي: ﴿قِيلَ﴾ فيكون ظرفاً مستقراً وصاحب الحال هو ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ويجوز أن تكون ﴿مُطْعِمِينَ﴾ فيكون ﴿قِيلَ﴾ ظرفاً لغواً متعلقاً بـ ﴿مُطْعِمِينَ﴾.

وعلى كلا الوجهين هما مثار التعجب من حالهم، فأيهما جعل محل التعجب أُجري الآخر المُجرى اللائق به في التركيب. وكتب في المصحف اللام الداخلة على ﴿الَّذِينَ﴾ مفصولة عن مدخولها وهو رسم نادر.

والإهطاع: مد العنق عند السير كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مُطْعِمِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ في سورة القمر [8].

قال الواحدي والبخاري وابن عطية وصاحب «الكشاف»: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ ويستمعون كلامه ويكذبونه ويستهزئون بالمؤمنين، ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم وليكون لنا فيها أكثر مما لهم. فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: اسم بمعنى «عند».

وتقديم الظرف على ﴿مُطْعِمِينَ﴾ للاهتمام به، لأن التعجب من حالهم في حضرة النبي ﷺ أقوى لما فيهم من الوقاحة.

وموقع قوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ مثل موقع: ﴿قِيلَ﴾ وموقع: ﴿مُطْعِمِينَ﴾. والمقصود: كثرة الجهات، أي: واردين إليك.

والتعريف في ﴿الْيَمِينِ﴾ و﴿الشِّمَالِ﴾ تعريف الجنس أو الألف واللام عوض عن المضاف إليه.

والمقصود في ذكر اليمين والشمال: الإحاطة بالجهات، فاكتمل بذكر اليمين والشمال، لأنهما الجهتان اللتان يغلب حلولهما، ومثله قول قطري بن الفُجاءة:

فلقد أراني للرماح دَريئةً من عن يميني مرة وأمامي

يريد: من كل جهة.

و﴿عَنِ﴾ حال من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وعزين: جمع عِزَّة بتخفيف الزاي، وهي الفرقة من الناس، اسم بوزن فِعْلة. وأصله عِزوة بوزن كسوة، وليست بوزن عِدَّة. وجرى جمع عِزة على الإلحاق بجمع المذكر السالم على غير قياس، وهو من باب سَنَّة من كل اسم ثلاثي حُذفت لامه وعُوِّض عنها هاء التأنيث ولم يكسر مثل عِضة (للقطعة).

وهذا التركيب في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ مُطَّعِينَ﴾ (36) إلى قوله: ﴿جَنَّةٍ نَّعِيمٍ﴾ يجوز أن يكون استعارة تمثيلية شبه حالهم في إسراعهم إلى النبي ﷺ بحال من يُظن بهم الاجتماع لطلب الهدى والتحصيل على المغفرة ليدخلوا الجنة، لأن الشأن أن لا يلتفت حول النبي ﷺ إلا طالبو الاهتداء بهديه.

والاستفهام على هذا مستعمل في أصل معناه، لأن التمثيلية تجري في مجموع الكلام مع بقاء كلماته على حقائقها.

ويجوز أن يكون الكلام استفهاماً مستعملاً في التعجب من حال إسراعهم ثم تكذيبهم واستهزائهم.

وجملة: ﴿أَيُّطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (38) بدل اشتمال عن جملة: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ مُطَّعِينَ﴾ (36) الآية، لأن التفافهم حول النبي ﷺ شأنه أن يكون لطلب الهدى والنجاة فشبّه حالهم بحال طالبي النجاة والهدى، فأورد استفهام عليه. وحكى المفسرون أن المشركين قالوا مستهزئين: نحن ندخل الجنة قبل المسلمين، فجاز أن يكون الاستفهام إنكاراً لتظاهرهم بالطمع في الجنة بحمل استهزائهم على خلاف مرادهم على طريقة الأسلوب الحكيم، أو بالتعبير بفعل: ﴿يُطْمَعُ﴾ عن التظاهر بالطمع كما في قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْكَافِرُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 64]، أي: يتظاهرون بأنهم يحذرون.

وأسند الطمع إلى ﴿كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ دون أن يقال: أيطمعون أن يدخلوا الجنة، تصويراً لحالهم بأنها حال جماعة يريد كل واحد منهم أن يدخل الجنة لتساويهم، يرون أنفسهم سواء في ذلك، ففي قوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ تقوية التهكم بهم. ثم بُني على التهكم ما يبطل ما فُرض لحالهم بما بني عليه التمثيل التهكمي بكلمة الردع وهي ﴿كَلَّا﴾، أي: لا يكون ذلك. وذلك انتقال من المجاز إلى الحقيقة، ومن التهكم بهم إلى توبيخهم دفعاً لتوهم من يتوهم أن الكلام السابق لم يكن تهكماً. وهنا تم الكلام على إثبات الجزاء.

[39 - 41] ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ (39) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ

(40) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿(41)﴾ .

كلام مستأنف استئنافاً ابتدائياً للانتقال من إثبات الجزاء إلى الاحتجاج على إمكان البعث إبطاً لشبهتهم الباعثة على إنكاره، وهو الإنكار الذي ذكر إجمالاً بقوله المتقدم أنفأ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ (6) وَرَوْنَهُ قَرِيبًا ﴿(7)﴾ [المعارج: 6 - 7]، فاحتج عليهم بالنشأة

الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [62] [الواقعة: 62].
فالخبر بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ مستعمل في لازم معناه وهو إثبات إعادة خلقهم بعد فنائهم.

فهذا من تمام الخطاب الموجه إلى النبي ﷺ. والمقصود منه أن يبلغ إلى أسماع المشركين كما تقدم آنفاً.
والمعنى: أنا خلقنا الإنسان من نطفة حتى صارت إنساناً عاقلاً مناظراً، فكذلك نعيد خلقه بكيفية لا يعلمونها.

فما صدق ﴿مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ هو ما يعلمه كل أحد من أنه كَوْنٌ في بطن أمه من نطفة وعلقة، ولكنهم علموا هذه النشأة الأولى فألهاهم التعود بها عن التدبر في دلالتها على إمكان إعادة المكوّن منها بتكوين آخر.

وعُدل عن أن يقال: إنا خلقناهم من نطفة، كما قال في آيات أخرى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: 2]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [77] وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ [78] [يس: 77، 78] وغيرها من آيات كثيرة، عُدل عن ذلك إلى الموصول في قوله: ﴿مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ توجيهاً للتهكم بهم إذ جادلوا وعاندوا، وعلم ما جادلوا فيه قائم بأنفسهم وهم لا يشعرون، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [62] [الواقعة: 62].
وكان في قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ إيحاء إلى أنهم يُخلقون الخلق الثاني ﴿مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [36] [يس: 36]، وقال: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: 61]، فكان في الخلق الأول سرٌّ لا يعلمونه.

ومجيء ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾ مؤكداً بحرف التأكيد لتنزيلهم فيما صدر منهم من الشبهة الباطلة منزلة من لا يعلمون أنهم خلُقوا من نطفة وكانوا معدومين، فكيف أحالوا إعادة خلقهم بعد أن عدم بعض أجزائهم وبقي بعضها، ثم أتبع هذه الكناية عن إمكان إعادة الخلق بالتصريح بذلك بقوله: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [40] عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ مَفْرَعاً عَلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾، والتقدير: فإننا لقادرون، الآية.

وجملة: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ﴾... إلخ معترضة بين الفاء وما عطفته.

والقسَم بالله بعنوان ربوبيته المشار والمغارب معناه: ربوبيته العالم كله، لأن العالم منحصر في جهات شروق الشمس وغروبها.

وجمع ﴿الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ باعتبار تعدد مطالع الشمس ومغاربها في فصول السنة، فإن

ذلك مظهر عجيب من مظاهر القدرة الإلهية والحكمة الربانية لدلالته من عظيم صنع الله من حيث إنه دال على الحركات الحافة بالشمس التي هي من عظيم المخلوقات، ولذلك لم يذكر في القرآن قسم بجهة غير المشرق والمغرب دون الشمال والجنوب مع أن الشمال والجنوب جهتان مشهورتان عند العرب. أقسم الله به على سَنَةِ أقسام القرآن.

وفي إيثار ﴿الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ بالقسم برّبّها رعي لمناسبة طلوع الشمس بعد غروبها لتمثيل الإحياء بعد الموت.

وتقدم القول في دخول حرف النفي مع «لا أقسم» عند قوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [38] وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿39﴾ في سورة الحاقة [38 - 39]، وقوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ [75] في سورة الواقعة [75].

وقوله: ﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ يحتمل معنيين؛ أولهما: وهو المناسب للسياق أن يكون المعنى على أن نبدلهم خيراً منهم، أي: نبدل ذواتهم خلقاً خيراً من خلقهم الذي هم عليه اليوم.

والخيرية في الإتقان والسرعة ونحوهما، وإنما كان خلقاً أتقن من النشأة الأولى لأنه خلق مناسب لعالم الخلود، وكان الخلق الأول مناسباً لعالم التغير والفناء، وعلى هذا الوجه يكون ﴿نُبَدِّلَ﴾ مضمناً معنى: نعوض، ويكون المفعول الأول لـ ﴿نُبَدِّلَ﴾ ضميراً مثل ضمير ﴿مَنْهُمْ﴾، أي: نبدلهم، والمفعول الثاني ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

و«من» تفضيلية، أي: خيراً في الخلقة، والتفضيل باعتبار اختلاف زماني الخلق الأول والخلق الثاني، أو اختلاف عالميهما.

والمعنى الثاني: أن نبدل هؤلاء بخير منهم، أي: بأمة خير منهم، والخيرية في الإيمان، فيكون ﴿نُبَدِّلَ﴾ على أصل معناه، ويكون مفعوله محذوفاً مثل ما في المعنى الأول، ويكون ﴿خَيْرًا﴾ منصوباً على نزع الخافض وهو باء البدلية كقوله: ﴿أَنْتَبَدِّلُوكَ الْذِي هُوَ أَذْفَ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61]، ويكون هذا تهديداً لهم بأن سيستأصلهم ويأتي بقوم آخرين كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 19]، وقوله: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: 38].

وفي هذا تثبيت للنبي ﷺ وتذكير بأن الله عالم بحالهم.

وذيل بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، والمسبوق مستعار للمغلوب عن أمره، شبهه بالمسبوق في الحلبة، أو بالمسبوق في السير، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِطُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [4] [العنكبوت: 4]، ومنه قول مرة بن عداء الفقعسي:

- [4، 5] ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ⑤﴾. 798
- [6 - 11] ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ⑥ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ⑨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ ⑩ نَارٍ حَامِيَةٍ ⑪﴾. ... 799
- سورة التكاثر 802
- أغراضها 803
- [1 - 4] ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④﴾. 803
- [5] ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤﴾. 806
- [6، 7] ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦﴾. 806
- [8] ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾. 808
- سورة العصر 810
- أغراضها 811
- [1 - 3] ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③﴾. 811
- سورة الهمزة 817
- أغراضها 818
- [1 - 4] ﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزٍ لَمَزَةٌ ① الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ③ كَلَّا ④﴾. 818
- [4 - 7] ﴿لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْخَطْمَةِ ④ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ ⑤ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ⑥ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِدِ ⑦﴾. 821
- [8، 9] ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ⑨﴾. 822
- سورة الفيل 824
- أغراضها 825
- [1] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَحَبِّ الْفِيلِ ①﴾. 825
- [2 - 5] ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَمَاكُولٍ ⑤﴾. 828

- 832 سورة قريش
- 833 أغراضها
- [1 - 4] ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۝١ إِلَّا فِيهِمْ رَحَلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾.
- 833 سورة الماعون
- 840 أغراضها
- [1 - 3] ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَسْكِينِ ۝٣﴾.
- 841 [4 - 7] ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾.
- 843 سورة الكوثر
- 847 أغراضها
- [1، 2] ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾.
- 848 [3] ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾.
- 851 سورة الكافرون
- 854 أغراضها
- [1 - 3] ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣﴾.
- 855 [4] ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤﴾.
- 857 [5] ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥﴾.
- 858 [6] ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.
- 858 سورة النصر
- 860 أغراضها
- [1 - 3] ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.
- 862 [3] ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.
- 868 [3] ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

- 870 سورة المسد
- 871 أغراضها
- 871 [1] ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ﴾ (1).
- 874 [2] ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ﴾ (2).
- 875 [3] ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ﴾ (3).
- 875 [4، 5] ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ﴾ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿۝۵﴾.
- 878 سورة الإخلاص
- 880 أغراضها
- 881 [1] ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۚ﴾ (1).
- 885 [2] ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۚ﴾ (2).
- 886 [3] ﴿لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۚ﴾ (3).
- 887 [4] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۚ﴾ (4).
- 889 سورة الفلق
- 891 أغراضها
- 891 [1، 2] ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝۱ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝۲﴾ (2).
- 892 [3] ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝۳﴾ (3).
- 893 [4] ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝۴﴾ (4).
- 894 [5] ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝۵﴾ (5).
- 896 سورة الناس
- 897 أغراضها
- 897 [1 - 6] ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝۱ مَلِكِ النَّاسِ ۝۲ إِلَهِ النَّاسِ ۝۳ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفَاسِ ۝۴ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝۵ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝۶﴾ (6).
- 903 الفهرس

